الجيش المصري في العصر الإسلامي

من الفتح العربي إلى معركة المنصورة

دكتور عبد الرحمن زكي

موسوعة الجيوش الإسلامية

الجيش المصري في العصر الإسلامي

من الفتح العربي إلى معركة المنصورة

دكتور عبد الرحمن زكي

كتب عربي
(شــراء)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

رقم التسجيل ٦٣٢٨٣

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد بالقاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

تَحِيَّةٌ إِلَى الْجُنْدِيِّ الْمِصْرِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

جرت العادة أن يكون للكتاب مقدمة يوجز فيها المؤلف محتوى كتابه ، ويوضح فيها هدفه من تأليفه . وموضوع هذا الكتاب « الجيش المصرى فى العصر الإسلامى (٦٤٠ — ١٢٥٠ م) ، وهو الجزء الأول من موسوعة الجيوش الإسلامية يتناول تاريخ مصر الحربى منذ الفتح العربى إلى معركة المنصورة (١٢٥٠ م) . ففى خلال تلك الفترة ، حكم مصر فى المرحلة الأولى ولاة وفدوا من المدينة أودمشق أو بغداد ، ثم جاءت من بعدهم أسرة الطولونيين ، فالإخشيديين ، ثم الفواطم ، فأسرة الأيوبيين التى أسسها فى مصر صلاح الدين يوسف الأيوبى .

ففى الفصل الأول تحدثنا عن الجيش، وأنظمته فى أيام الولاة العرب ، وتناولنا فى الفصل الثانى الحديث عن الجيش المصرى الإسلامى ومعاركه فى أيام الطولونيين ، وتحدثنا فى الفصل الثالث عن الجيش ومعاركه فى عصر الإخشيديين ، ثم تكلمنا فى الفصل الرابع عن الجيش فى العصر الفاطمى (٩٦٩ — ١١٧١م) — عناصره وأسلحته ومعاركه التى خاضها ضد القرامطة الذين اعتدوا على مصر ، والبيزنطيين (الروم) أعداء الدولة العربية عامة ، والصليبيين الذين احتلوا القدس وساحل فلسطين. وفى أيام الفواطم كانت مصر دولة كبرى تتزعم بنفوذها المنطقة بريًا وبحريًا ، كما تنافس بغداد فى الشرق ، وقرطبة فى الغرب . وتناولنا فى الفصل الخامس الكتابة عن نظم الجيش وأسلحته ومعاركه الظافرة على أيام السلطان صلاح الدين ، ومنها معركة حطين الحاسمة ، وتحرير القدس بعد إنزال الهزيمة بالصليبيين . وفى الفصل السادس تكلمنا عما كان عليه جيش مصر الأيوبى فى أعقاب وفاة البطل صلاح الدين على أيام إخوته وأحفاده ممن تولوا الحكم . وفى الواقع يعتبر العصر الأيوبى فترة الجهاد الحربى ضد

البيزنطيين والصليبيين وغيرهم فى جبهات الصراع الكثيرة فى مصر وسورية وشبه الجزيرة العربية حتى أقصى شمال الجزيرة .

* * *

تلك هى محتويات الجزء الأول من كتابنا . وجدير بالملاحظة أن المقاتل المصرى منذ العصور القديمة ، وفى العصر الإسلامى خاصة ، لم يتجاوز حدود بلاده الأصيلة إلا لتأمين مصر نفسها من خطر عدو خارجى. ذلك لأن سياسة مصر العسكرية منذ القدم وهى سياستها التقليدية ، كانت سياسة دفاعية وليست هجومية . وينبغى هنا أن نقول بأن مصر وسورية كانتا فى معظم العصور الإسلامية تؤلفان وحدة سياسية باستثناء بعض الفترات القصيرة .

وجدير بالملاحظة أيضاً ، أن تاريخ بلادنا الحربى لم يكتب بعد كتابة فنية ، فقد اعتاد مؤرخونا على أن يدمجوا الأحداث العسكرية ضمن الأحداث السياسية التى مرت بالبلاد ، ولذلك فإنهم لم يتناولوا بطريقة مفصلة دراسة تاريخ البلاد من الناحية العسكرية، فلم يبحثوا تطور جيوشها، وتطور صناعة أسلحتها، وأساليب قتالها وتحليل معاركها، وأسباب ظفرنا أو هزيمتنا... الخ مثلما نقرأه عن الجيوش الغربية الأحدث منا عهداً ، بل وحضارة ! . . . مع أن تلك الدراسة من أهم ما يجب علينا معرفته فى أثناء مراحلنا التعليمية والثقافية . ولزاماً علينا أن نعى تاريخ جهودنا النضالية ، وأن ندركه حق الإدراك . إذن ، فلنقرأ فى هذه الصفحات القليلة ، هذا التاريخ الناصع ، للإفادة من دروسه وعبره الكثيرة .. نعم للإفادة من التجارب الظافرة أو المحن الحزينة ، وليس من أجل التسلية وقتل الوقت ...

فى هذا الزمن الذى نعيشه ، ينبغى أن نعيد الثقة إلى أنفسنا ، وإلى أبنائنا ، وخاصة إلى المقاتل المصرى الباسل الذى يحارب كما قاتل أجداده فوق تراب بلادنا أو فى بلاد أخرى دفاعاً عن أمن وطننا ، تماما كما يدافع اليوم ببسالة وثقة وإيمان فى الجبهة . ولا شك أن أولئك المقاتلين يعرفون ويؤمنون بأن لهم

تاريخاً حربياً مجيداً يمتد إلى آلاف السنين الغابرة ، فقد أسهم أجدادهم كما قلنا في مئات من المعارك التي خاضوها دفاعاً عن الوطن الكبير ، فإذا أعيدت الثقة إلى نفوسهم وأدوا واجبهم بإيمان وإخلاص ، لاستطاعوا أن يرفعوا شأن وطننا ليتبوأ مكانته السامية . وسيحققوا هذا الهدف قريبا بإذن الله ...

إنني لمدين حقاً لجميع المؤرخين الأفاضل الذين استعنت بمؤلفاتهم في تدوين هذه الصفحات ، فلولا جهودهم العلمية السابقة لما استطعت أن أسجل حرفاً . فلهؤلاء جميعا خالص الشكر وجميل العرفان .

وفقنا الله دواما ، إنه مجيب الدعوات .

القاهرة : يوليو ١٩٧٠ — عبد الرحمن زكي

الفصل الأول

الجيش في عصر الولاة العرب

مصر العربية

بزغ نجم الإسلام فى الجزيرة العربية ، وتدفقت الجيوش العربية إلى الشرق والشمال والغرب . . وكانت عدة قبائل عربية مهدت لها السبيل من قبل فاستوطنت مشارف البلاد العربية .

فتح العرب الشام ، ولما عرض القائد عمرو بن العاص على الخليفة عمر ابن الخطاب ، فتح مصر ، وافق على رأيه وطلب منه أن يجعل الأمر سراً ، وأن يسير بجنوده إلى الجنوب سيراً هيناً. فسار عمرو ليلا فى جيش صغير من الفرسان حتى صار عند رفح ، وفى أثناء وجوده فيها ، أتت رسل الخليفة تحمل رسالة منه للقائد العربى . فظن عمرو إلى ما فيها ، وظن أنّ الخليفة ربما قد عاد إلى الشك والخوف من الإقدام على هذا الفتح . ولكنه أحسّ أن جيش العرب إذا دخل مصر كانت عودته عنها خذلاناً للمسلمين . وعلى ذلك أرسل كتابه ، وطلب من عمرو أن يعود إذا كان فى فلسطين ، فإذا كان دخل أرض مصر ، فليسر على بركه الله ، ووعد أن يرسل له الإمداد .

لهذا لم يأخذ عمرو الكتاب من الرسول حتى عبر مهبط السيل الذى ربما كان الحد الفاصل بين أرض مصر وفلسطين ، وبلغ بسيره الوادى الصغير الذى عند العريش[1] وهناك أتى بالرسالة ، فقرأها . ثم سأل من حوله : أنحن فى مصر أم فى الشام ؟ فأجيب : « نحن فى مصر » ، فقرأ على الناس رسالة الخليفة ، ثم قال : « نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين»[2] . هكذا دخل العرب سيناء وصاروا

---

(١) إسمها القديم « رينوكورورا » أى بجذوم الأنف ، قامت على أنقاضها العريش وهو الاسم الذى أطلقه عليها العرب ، وهى أول الثغور المصرية فى الشرق . وقد شيدت فيها قلعة بعد الفتح العثمانى ، كانت أنقاضها باقية حتى الحرب العالمية الأولى وما بعدها بقليل .

(٢) بتلر وترجمة محمد فريد أبو حديد . فتح العرب مصر ، ص ١٧٣ — ١٧٥ .

أمام العريش ، وكانت خلواً من جيش البيزنطيين ، مع أنها كانت مدينة محصنة ، وكانت أسوارها لا تزال منها بقية ماثلة بإزاء البحر المتوسط .

أقام الجيش العربى عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة من عام ١٨ هـ (١٢ ديسمبر ٦٣٩) ، ثم غادر العريش ، وسار فى الطريق الساحلى إلى الغرب بعيداً قليلا من البحر . . تلك الطريق القديمة التى شهدت مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقمبيز واسكندر الأكبر ، وأسرة المسيح ، ثم وطأتها جيوش الفرس مرة أخرى . . وهى طريق القوافل والحجاج بين آسيا وأفريقيا .

وصل الجيش العربى مدينة الفرما [1] (بلوسيوم) ، تلك المدينة القديمة التى شاهدت عشرات المعارك الدامية ، وهى مفتاح مصر من الشرق ، وتشرف على هذه الطريق الهامة ، وتلك ناحية البحر ، ويجرى إليها فرع النيل البللوزى ولم يكن مع العرب شىء من عدد الحصار وآلاته ، وكان أمامهم إحدى وسيلتين : إما المهاجمة وفتح الأبواب ، أو التسلح بالصبر إلى أن يضطر الجوع أهلها أن ينزلوا إليهم . ولكن قوة العرب لصغرها كانت لا تقدر على حصار المدينة من جميع أجنابها ، فكانت حاميتها تهبط إليهم من حين وحين لقتالهم . واستمرت الحرب متقطعة مدة شهر أو أكثر ، ثم خرج إليهم جنودها مرة ليقاتلوهم . ولما عادوا إلى مدينتهم ، تبعهم العرب ، فملكوا الباب قبل أن يقتحموه . وكان أول من اقتحم المدينة من العرب « أسميقع بن وعلة السبائى » ثم تبعه المهاجمون ، وبعد حصار دام قرابة الشهر ، فتحها العرب فى يناير ٦٤٠ وملكوها ، وصارت فى أيديهم معقلا ، تؤمن لهم الطريق المؤدية إلى بلادهم .

أدرك عمرو فى الفرما أنه لا يستطيع التقدم للقاعدة العسكرية فى بابليون ، ويتقدم منها إلى الإسكندرية عاصمة البلاد إلا إذا وصلت إليه الإمداد عن طريق

---

(١) الفرما ، وبيرآمون ، وبيلوس وبلوسيوم كلها أسماء لمدينة واحدة هى الفرما . وكانت من أمنع المدن المصرية منذ القدم ، موقعها الأصلى على بعد ٢٣ ميلا جنوب شرقى بور سعيد . ضاعت جميع معالمها وما تبقى منها بعد أن غمرتها مياه البحر المتوسط فى الشمال ، ومياه بحيرة البردويل من الشرق والمنزلة من الغرب . كانت بها فى أيام الفراعنة حامية عسكرية ، وقد عرفت آنذاك باسم بر آمون أى مدينة آمون .

الفرما . إذ لم يكن معه من الجند من يقدر على أن يتركه فى المدينة ليحرسها . وعلى ذلك قرر عمرو هدم أسوار الفرما وحصونها حتى لا يفيد العدو منها ، لو عاد إلى تملكها[1] فضلا عن حراسة الطريق بين العريش والفرما ، وكان مضى نصف شهر يناير (عام ٦٤٠) . ثم سار عمرو فى طريقه بعد أن لحق به الإمداد من العرب ، واتجه إلى السبخة التى حول الفرما ، إلى أرض تليها تغطيها الرمال والأصداف البيضاء ، حتى وصل مدينة الجدول القديمة ، وهى فى الجنوب الغربى من الفرما . ثم اتجه إلى موضع يقع على « قناة السويس » مكانه الآن مدينة القنطرة . ولعلهم قصدوا بعد ذلك الصالحية أو فى مكان يقع بالقرب منها ، مخالفين فى ذلك أكثر فاتحى مصر الأسبقين . ولكن فى وقت فتح العرب ، كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها ، فأصبحت الطريق من هناك صعبة المسلك . ثم سار عمرو من الصالحية (أو القصاصين) إلى الجنوب ، فاجتاز تلال وادى الطميلات فى موقع قريب من التل الكبير . فلما خرج من الوادى لم يبق أمامه إلا بلوغ بلبيس . . التى سقطت فى قبضته بعد شهر تقريباً . ثم اتجه إلى مكان كان يعرف باسم أم دنين يقع على النيل (ضاحية المقس) . وقد لقى صعوبة فى الاستيلاء عليه ، ومن ثم عبر نهر النيل على رأس قواته متجهاً إلى الفيوم ، وهى خطة جريئة حقاً .

وفى سادس يونيو ٦٤٠ ، وصل إلى عمرو جيش ثان قوامه ١٢٠٠٠ وكان هدفه هليوبوليس (عين شمس) . ومن ثم اجتاز عمرو نهر النيل ثانية ليقود هذا الجيش الكبير ، فيجد أمامه جيش البيزنطيين . وكان مصير هؤلاء الهزيمة المنكرة فى يوليو ٦٤٠ . وكان هذا النصر حافزاً لعمرو على أن يحاصر القاعدة العسكرية الكبرى — بابليون[2] (فى مصر القديمة اليوم) . وبعد عدة محاولات بذلها الطرفان فى المفاوضات ، سقط الحصن العتيد فى قبضة العرب فى ٦ أبريل ٦٤١ .

شجع هذا الفوز المبين — القائد العربى ، على قيادة جيشه إلى الإسكندرية ،

---

(١) بتلر : المرجع السابق ذكره . ص ١٨٨

(٢) يراد ببابليون ، المدينة القديمة والحصن الذى أقامه الرومان فى أثناء حكمهم مصر ، وما زالت بقايا الحصن باقية إلى اليوم فى قصر الشمع فى الطريق المؤدية إلى متحف الآثار القبطية .

وبعد مسيرة موفقة على حافة الصحراء ، تم حصار عنيد لأسوار العاصمة ، سلمت الإسكندرية للعرب فى ٨ نوفمبر ٦٤١ بشرط أن لا يدخلوها إلا فى ٢٩ سبتمبر ٦٤٢ . وقد قضى عمرو تلك الفترة — بين التسليم ودخول العرب الإسكندرية — فى بناء العاصمة العربية الأولى — الفسطاط ، شمال حصن بابليون ، وتشييد جامعه الكبير الذى كان أول مسجد شيد على الأرض الأفريقية .

وفى أعقاب تلك الأحداث ، استولى العرب على جميع أنحاء الصعيد ، فدانت لهم مصر بالولاء والطاعة . وأصبحت منذ ذلك الحين ، أى فيما بين ٦٣٩ و ٩٦٨ ولاية خاضعة للخلفاء الأمويين والعباسيين من بعدهم ، حتى استقل بها أحمد بن طولون .

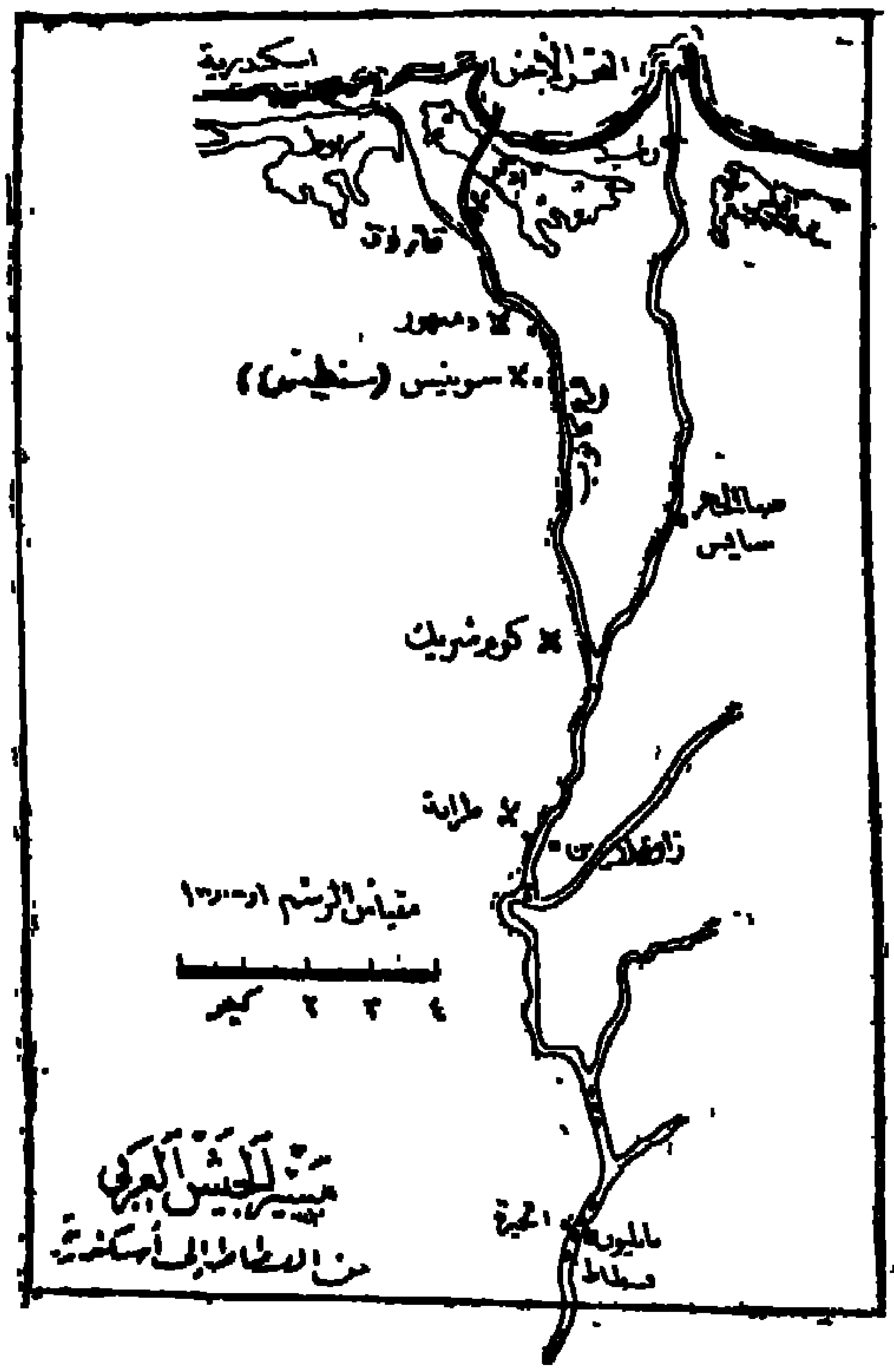

مسير الجيش العربى من الفسطاط إلى الاسكندرية

الجيش العربى فى عصر الولاة

بعد أن تم للعرب بقيادة عمرو بن العاص ، فتح مصر (٦٣٩ — ٦٤٠) بقيت بها حامية عربية . وقد حرّم الخليفة عمر على جنود هذه الحامية ، كما كان الحال فى سائر الأقاليم المفتوحة ، الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض لئلا يركنوا إلى الكسل ، ويسيطر عليهم حب المال والتقاعد عن الحرب ، فيصعب عليهم الانتقال إلى إقليم آخر إذا دعوا لحمايته أو فتحه من جديد ، أو الدفاع عنه . وقد كتب الماوردى فى ذلك قائلا : « إن من واجبات أمير الجيش ألا يمكّن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرف الاهتمام بها عن مصابرة العدو وصدق الجهاد » . فما هى إذن الأرزاق التى كانت تعطى للجند وأسراتهم ، وبعبارة أخرى كيف كان التنظيم المالى للجيش العربى ؟ .

ينسب المؤرخون تدوين الدواوين إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين اتسعت رقعة الدولة العربية فى عهده . فكان لا بد من ضبط الأمور وتقرير العطاء المفروض للجند وأسراتهم، إلى غير ذلك مما تتطلبه أمور الدولة بعد اتساعها [1].

كان فى مصر ديوان للجند تدوّن فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقدير العطاء والأرزاق اللازمة لهم ، وأول من دوّن للجند فى مصر هو عمرو بن العاص ، ثم دوّن عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) تدويناً ثانياً ، ودوّن قرة ابن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ) التدوين الثالث ، ثم دوّن بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) التدوين الرابع . وكان أهل الديوان يثبتون على حسب قبائلهم التى ينتمون إليها . ولسنا نعرف ما الذى كان يراعى فى تقدير العطاء والأرزاق ، إذ أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئاً من هذا . ولا نعرف منها سوى أن الوالى كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراتهم ، أو يطلب من أصحاب الكور إرسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان . ويذكر الماوردى [2] أن تقدير العطاء كان بحيث

---

(١) الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : الجيش والبحرية فى مصر من الفتح العربى إلى بداية العصر الطولونى ، ص ١١ — ١٣ ، رسائل الثقافة الحربية رقم ٤٨ .

(٢) الأحكام السلطانية ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

يغنى المرء عن الاشتغال بخدمة أخرى تشغله عن القتال والحرب . وكان يراعى في تقدير العطاء ثلاثة أمور : أحدها عدد من يعوله الفرد من الذرارى والرقيق ، والثانى عدد ماعنده من الخيل،والثالث ظروف الموضع الذى يحل فيه من الغلاء والرخص . وإذا مات عربى من الديوان أو قتل قد يصبح عطاؤه إرثاً من بعده يأخذه ورثته .

اشترط على المصريين ضيافة الأجناد ، فمن نزل عليه جندى واحد أو أكثر وجبت عليه ضيافته ثلاثة أيام ، وهذا كان يوفر على الجند كثيراً من العناء وعند انتقالهم من جهة إلى أخرى فى أنحاء مصر .

عنى الخلفاء بأمر حامية مصر وذلك لخطورة موقعها وعظم شأنها . فمصر تقع فى منطقة يسهل منها التوسع جنوباً وغرباً وشرقاً ، وشمالا عن طريق البحر المتوسط . فقد أصبحت قاعدة للفتوح العربية والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها . أما إذا تطرق إليها الضعف فيهددها الغزو من هذه الجهات . ولقد زادت حامية مصر بعد الفتح العربى زيادة ملحوظة . فقد كانت حامية الإسكندرية اثنى عشر ألفاً بين عامى ٤٣و٤٤ هـ،ولكن قائد هذه الحامية كتب إلى عتبة بن أبى سفيان والى مصر يشكو قلة من معه من الجند .

ونعلم أن فى خلافة عثمان بن عفان ، خرج واليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح لغزو أفريقيه . كما خرجت فى خلافة معاوية بن أبى سفيان لغزو أفريقية أيضاً . ولما استقر الأمر لبنى أمية عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر وتطلع الجنود نحو الغرب ولكنه توفى سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) وخلفه إبنه عبد الله ثم عزله الخليفة معاوية وولى معاوية بن حديج الذى خرج بأمر من الخليفة على رأس جيش من حامية مصر سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) ، فهزم جيشاً بيزنطياً كبيراً نزل من البحر عند سوسة الحالية واستولى على حصن جلولاء ثم رجع إلى مصر محملا بالغنائم . وفى عام ٦٧٠ م بدأ فتح أفريقية فتحاً منظماً على يد عقبة بن نافع ، ثم تعاقبت الحملات حتى كللت حملة موسى بن نصير بالنجاح التام ، وكان ذلك

فى عام ٧٠٥ — ٧٠٦ م، ثم أصبحت أفريقية ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر .

على أن مصر لم تكن مركزاً أو قاعدة للحملات الحربية البرية فحسب ، بل كان على العرب أن يعنوا بحماية سواحلها ضد هجمات البيزنطيين ولا سيما على الإسكندرية وقد ردهم عبدالله بن سعد . كذلك هاجموا دمياط سنة ٢٣٨هـ ٨٥٢ م فى أثناء ولاية عتبة بن إسحق واستولوا على هذا الثغر وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من سكانه ثم مضوا إلى تنيس وأقاموا بأشتومها ، ومن أجل ذلك أمر الخليفة المتوكل ببناء الحصون فى دمياط وتنيس .

* * *

لم يخل عصر الولاة العرب فى مصر من الحركات الوطنية أو الثورات التى قام بها القبط ، وكانت أسباب معظم هذه الثورات للأعباء المالية الثقيلة التى كان يفرضها بعض الولاة ، ومنهم أسامة بن زيد متولى الخراج فى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠ م) فعزله .

وإزاء هذه الأعباء الثقيلة الوطأة ، بدأ القبط يتخلون عن سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية ، فثاروا فى عام ١٠٧هـ (٧٢٥م) فى الوجه البحرى ، فبعث إليهم الحر بن يوسف والى مصر سنة ١٠٨هـ (٧٢٦م) جيشاً لمحاربتهم ؛ فقتل منهم نفر كثير وثار المصريون فى عهد خلافة يزيد الثانى ابن عبد الملك (٧٢٠—٧٢٤) الذى ولى على مصر حنظلة بن صفوان (١١٩— ١٢٤ هـ) . وفى أيامه تتابعت ثورات القبط فى الصعيد وحاربوا عمال الحكومة فى سنة ١٢١هـ (٧٣٩) ؛ فأرسل إليهم الوالى جيشاً لقمع حركتهم فانتصر عليهم وفى سمنود خرج ثائر قبطى اسمه يحنس ، فبعث إليه عبدالملك بن مروان ابن موسى ابن نصير والى مصر حينذاك جيشاً لمحاربته، وكان ذلك فى سنة ٧٤٩ — ٧٥٠ فقتل يحنس مع كثير من أصحابه (الخطط المقريزية ج ١ ص ٧٩) .

وفى سنة ٧٤٩م ثار القبط فى رشيد ، فأرسل مروان بن محمد جيشاً لمحاربتهم ، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بنى العباس ، فهزمهم هذا الجيش . وثار ضده

أيضاً أهل منطقة البشرود (البشمور) فى شمال الدلتا [1] ، لكنه لم يستطع القضاء على ثورتهم ، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه .

وبعد قيام الدولة العباسية ، تفاءل القبط وخمدت ثورة البشموريين، إلا أن المشكلة المالية لم تنته،وعادت إلى ما كانت عليه فى أيام الأمويين ، فلم تمض ثلاث سنوات على قيام بنى العباس بمصر حتى ضوعف الخراج على القبط ولم ينفذوا ما وعدوا به من التخفيف عنهم [2] ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرر الخليفة السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الإسلام ويقيم شعائره ؛ فتخلى كثير من القبط الأغنياء أو الفقراء عن دينهم واعتنقوا الإسلام بسبب أعباء الجزية ، ولكن سرعان ما عاد القبط الذين بقوا على دينهم إلى الثورة . فثار قبط سمنود فى سنة ١٣٥ هـ (٧٥٢) فى ولاية أبى عون الأولى على مصر ، فبعث إليهم جيشاً لمحاربتهم ، فهزموا وقتل أبو مينا زعيم الثورة . وفى ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة على مصر ثاروا ثانية فى سخا سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) وانضم إليهم أهل البشرود وبعض جهات الوجه البحرى ، ولكن العرب هزموا أمام القبط (الخطط جـ ١ ص ٧٩) ، وثاروا مرة ثانية بعد سنوات فى ولاية موسى ابن على اللخمى فهزمهم .

وتمدنا المؤرخة سيدة إسماعيل كاشف بمعلومات وثيقة عن ثورة القبط فى أيام الخليفة المأمون ، فتقول : « كانت آخر ثورة للقبط تلك التى حدثت فى سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل المعتصم ، إذ ثار أهل الوجه البحرى كلهم سواء فى ذلك العرب والقبط ، فطردوا عمال الحكومة ، وقدم قائد المأمون من برقة لمحاربتهم ؛ فسار إلى الحوف وهزمهم ، ولم يستطع قائد أن يهزم أهل البشرود حتى جاء المأمون إلى مصر . ومما لا شك فيه أنه مما شجع هؤلاء على الثورة طبيعة المنطقة التى

---

(١) إقليم البشمور هو المنطقة الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد وقد عرفت فى التاريخ القديم باسم بيكولى (Bucolies) التى حدثت فيها حرب الزراع فى عهد الأمبراطور ماركوس أورليوس . سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام، ص ١٤٤ — ١٤٥ بالهامش

(٢) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .

يعيشون فيها فهى رملية ، وتحيط بهم المستنقعات والأوحال التى تعيق حركة الجند ، وبالرغم من تحذيرهم فقد تمادوا فى ثورتهم ، ورأى المأمون أن يأتى إلى مصر لإخماد حركتهم ؛ فجاء على رأس جيش وصحب معه البطريرك ديونوسيوس بطريرك أنطاكية .

حاول المأمون أولا أن يخمد ثورة البشموريين باللين فأرسل إليهم البطريرك أنبا يوساب والبطريرك ديونوسيوس ووعدهم ألا يعاقبهم إن هم سلموا ولكنهم لم يجيبوا البطريركين ، فسير إليهم قائد قواته بجنده ولكنهم قاوموا جنده بشدة ، فلما علم المأمون بذلك سار إليهم بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريين فأعمل الجند فيهم السيف ، وهدموا بيوتهم وكنائسهم . وغادر الخليفة المأمون مصر بعد أن استتب أمور البلاد . وكانت هذه الثورة آخر ما قام به القبط فى عهد الولاة العرب . ولم تكن هذه الثورات حركات قومية دائما ، وإنما كانت فى الغالب حركات غير منظمة لم يعرف القبط فيها كيف يوحدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادات حكيمة . . .

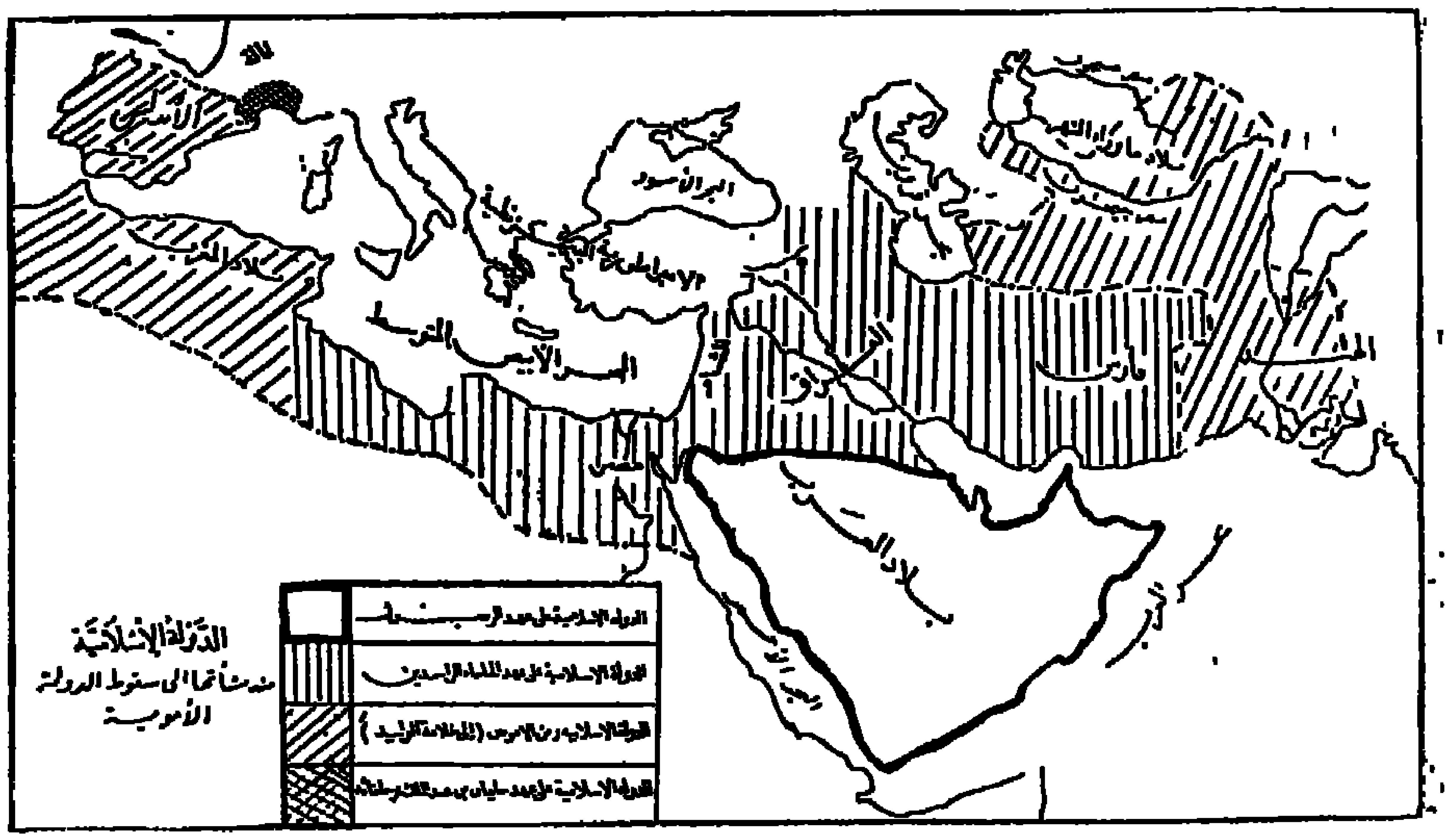

الدولة الإسلامية منذ نشأتها الى سقوط الدولة الأموية

الفصل الثانى

الجيش فى عصر الطولونيين

(٨٦٨ – ٩٠٥ م)

أصبحت مصر بعد الفتح العربى قلب الأمبراطورية الإسلامية العربية وظلت جزءاً منها إلى أن ضعفت الخلافة العباسية ، وترك الخلفاء حكم البلاد ومعالجة سياستها للوزراء والقواد غير العرب ، فاستأثروا بالسلطة ، وعمت الفوضى أجزاء الدولة — وبدأت الحركات الانفصالية فى بعض الولايات ومنها مصر حيث ظهر أحمد بن طولون :

قدم أحمد بن طولون الفسطاط قاعدة الدولة المصرية وعمره لا يتجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعاً لتسلم زمام السلطة العسكرية ، وسرعان ما ظهر نبوغه فى الشئون الإدارية والحربية وتجلى نشاطه . أتى إلى مصر من قبل الخليفة ومات تاركا دولة قوية وجيشاً وأسطولا . وكان أحمد بن طولون طموحاً إلى المجد فعمل على استخلاص ملك مصر لنفسه من أول يوم وطأت فيه قدماه وادى النيل . وللمرة الأولى فى تاريخ البلاد منذ الفتح العربى أصبحت مصر فى أيامه دولة قوية مستقلة ، فغلب على مثيرى الفتن فى البلاد ، وأخضع ثلاث ثورات شبت فى أنحاء مصر ، ثم سار إلى الشام واحتلها . ووصلت جيوشه إلى الفرات وحارب الروم ووحد تحت سلطته أمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من برقة إلى حدود الامبراطورية الرومانية فى آسيا الصغرى ، ومن نهر الفرات إلى شلالات النيل الأولى . واهتم ابن طولون بتحصين الفسطاط فأمر ببناء حصن على الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة (جزيرة الروضة) كما أنشأ داراً لصناعة الأسلحة والسفن . ولم يدم الحال طويلا لأسرة الطولونيين ، فقد عادت مصر ثانية إلى سلطان الخليفة العباسى وأصبحت إحدى ولاياته التى يشرف عليها أحد أمرائه . ومع ذلك

فلم تنج مصر من هجمات الفاطميين بعد تأسيس دولتهم الجديدة فى المغرب . فأرسلوا جيشاً اخترق البلاد المصرية وعسكرت جنودهم أمام شاطىء النيل فى الجيزة حيث حفر جيش الخليفة خنادقه بقيادة « ذكا الرومى » ، ولكن انتصر المصريون عليهم وطردوا الفواطم عام (٩٢٠ م) . وسنرى بعد ذلك ما كان عليه جيش الطولونيين .

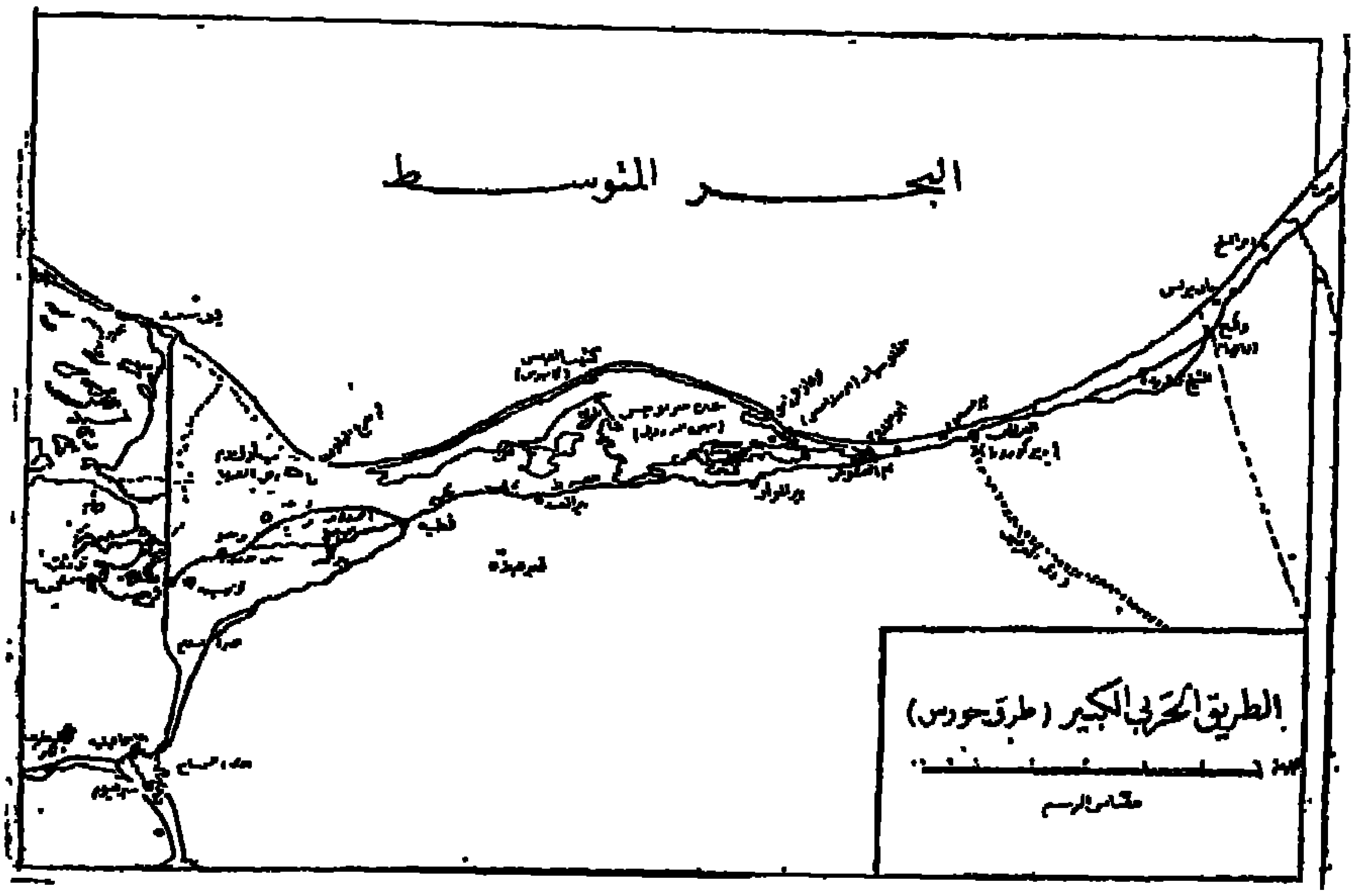

الطريق الحربى عبر شمال سينا

الجيش الطولونى

أصبحت مصر بعد الفتح العربى عضوا فى الدولة العربية الكبرى، إلى أن بدأ ضعف الخلافة العباسية على يد الجنود الأتراك، ومهد ذلك إلى تفكك أوصال الدولة .

وفى أثناء الخلافة العباسية بزغ نجم أحمد بن طولون ، فاستقل بولاية مصر ، بعد تغلبه على مثيرى الفتن فى أنحاء البلاد ، وأخضع عدة ثورات ، ثم اتجه إلى سورية واحتلها ، فوصل بجيوشه إلى طرسوس والفرات وحارب جيش الخليفة والبيزنطيين ، حتى تمكن من إنشاء دولة غنية قلبها مصر ، وجناحاها عند الفرات وبرقة ، وامتدت جنوباً إلى النوبة . تم هذا بفضل الجيش المصرى الفتى الذى أسسه أحمد بن طولون .

لم يلق ابن طولون صعوبة فى تأليف هذا الجيش الوطنى، لأسباب كان منها ضعف القوات التى كان يرسلها الخليفة العباسى إلى مصر ، وكانت الجنود الترك والمرتزقة قد حلوا محل الجنود العرب منذ أيام الخليفة المعتصم بالله الذى عمل على إبعاد العنصر العربى عن إدارة الجيش وقيادته ، وقد نتج عن ذلك اختلاط الجنود العرب بالمصريين ، فتبادل العنصران المزايا العسكرية والإدارية ، مما كان له أثر حميد على الجيش الوطنى الجديد .

ولا شك فى أن أهم خطوات أحمد بن طولون فى سبيل التمكين لنفسه وتحقيق أهدافه هى بناء الجيش المصرى الذى لا يعتمد على الخلافة ، إنما يعتمد عليه ويدين بالولاء لابن طولون ، ويكون عدته فى تنفيذ أهدافه . وكانت نواة جيشه ، مائة غلام كانوا حرساً خاصاً لعامل الخراج أحمد بن المدبر الذى سلب منه أحمد بن طولون السلطة بدهائه وقوة شكيمته . وتفصيل ذلك أنه لما وصل أحمد إلى مصر أهدى إليه ابن المدبر هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار ، فرأى الأول فى بطانة ابن المدبر مائة غلام « لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد ، وعليهم أقبية ومناطق ثقال وبأيديهم مقارع غلاظ ، على طرف كل مقرعة

مقمعة من فضة ، وكانوا يقفون بين يديه فى مجلسه ، فإذا ركبوا بين يديه فيصير له بهم هيبة عظيمة فى صدور الشعب » . فلما بعث ابن المدبر بهديته إلى ابن طولون ردّها إليه . فقال ابن المدبر إن هذه لهمة عظيمة من كانت هذه همته ، وعمل سراً على إبعاده ، فلم تكن غير أيام حتى بعث ابن طولون إلى ابن المدبر يقول له :

« قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ، فرددتها توفيراً عليك . ونحب أن نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك ، فأنا اليوم أحوج منك » . فقال ابن المدبر ، لما بلغته الرسالة ، هذه أخرى أعظم مما تقدم . ولم يجد بداً من أن يبعثهم إليه ، فتحولت هيبة ابن المدبر إلى ابن طولون .

تألفت من هذا الحرس الخاص ، النواة الأولى لجيش ابن طولون فى مصر .

وشاءت الأحوال بعد ذلك خدمة ابن طولون ، فتسلم أعمال الإسكندرية من إسحق بن دينار ، ثم أرسل إليه الخليفة ابن المتوكل العباسى يطلب إليه إخماد حركة عيسى بن شيخ الشيبانى فى الخروج عن طاعة بغداد قبل أن يستفحل أمره فى فلسطين والأردن ، وأرفق الخليفة أوامره لابن المدبر لكى يضع تحت تصرف ابن طولون ما يحتاج إليه من المال لإعداد جيش قوى إلى سورية ، فنزل ابن المدبر عن سلطانه وأطاع أمر الخليفة مضطراً ، وهكذا تمكن ابن طولون من الإكثار من قواته وتكوين جيش قوى .

وصل ابن طولون إلى سورية دون أن يلحق به أذى ، وكان الخليفة قد بدأ يتحول عن رأيه ، ويكلف تلك المهمة للجنود العراقية ، لأنه خشى عاقبة انتصارات ابن طولون على خصمه ابن الشيخ ، بيد أن ابن طولون كان قد أنجز مهمته وعاد إلى الفسطاط يحمل لواء النصر ، وأصبح من كثرة جنوده وآلات القتال بحال تضيق به محلاتهم الأولى ، فاختط قصره العظيم وميدانه الفسيح فى موضع قبور المسيحيين واليهود التى كانت عند سفح جبل المقطم فيما يلى الفسطاط ، وأمر أتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله ؛ فبنوا مساكنهم واتصل البناء بعمارة الفسطاط ، ثم اختطت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها من السودانيين أو الروم ، وبنى الأمراء مواضع متفرقة لهم .

ذكر المقريزى أن ابن طولون كان أول من أدخل السودانيين فى جيش مصر ، وذكر من هذه الطوائف السودانية : الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والمنصورية [١] ، وقد ذكر أيضاً أن عدد السودانيين كان قرابة ٤٠٠٠٠ جندياً و ٢٤٠٠٠ من الترك و ٧٠٠٠ حر مرتزق (المتطوعة) وقد ذكر الكندى أن الجيش الطولونى بلغ فى أمجد أيامه مائة ألف مقاتل .

استفاد ابن طولون من التجربة التى عاشها فى بغداد وما عرفه من غلبة الترك واستبدادهم ، فخاف أن يغلب على الجيش عنصر واحد يستبد بالأمر ، ولم يكن من المعقول أن يتخذ جنده كلهم من القبائل العربية التى استقرت فى مصر منذ الفتح .

ومن أجل ذلك رغب ابن طولون فى أن يكون جيشه خليطاً من عدة عناصر ، وكانت له سياسة مرسومة فى السيطرة على هذه الطوائف ، فقد جعل ضباط هذا الجيش من الترك المقربين إليه . ولكى يكون هؤلاء الجند على استعداد دائم كان يدربهم تدريباً شاقاً ، ثم كانت فتوحه سبباً لفتح باب الأمل أمامهم فى الثروة والجاه ، وعرف كيف يوفر أسباب الراحة لهم ، يغدق عليهم دون حساب ويدفع أعطياتهم فى حينها ، ولم تحدث فى أيامه ثورة تنسب إلى التخلف فى الفوز بالأجور ، وكان فى بعض الأحيان يمنح راتب سنة منحة خالصة لهم [٢] .

عنى ابن طولون بتحصين الفسطاط وأمر ببناء حصن على الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة «جزيرة الروضة» ليكون معقلا لأهل بيته وذخائره . ووزع أعمال البناء على أمراء الجيش ، وكان يتعهدهم بنفسه كل يوم حتى انتهى العمل منه . كما أنه أمر بتشييد دار لصناعة السفن والسلاح .

ولما خلف خمارويه والده ، لم تقل عنايته بالجيش عن عناية ابن طولون ، بل قد فاقتها ، فزاد عدد الجند وأدخل عناصر جديدة إليه . واستكثر من الأتراك فى الجيش ، وضم إليه طائفة من المصريين [٣] ، كما أنه عنى بتجنيد

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢ ، ص ١٤ ، ١٩ ، ٢١ .
(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٣٦ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٧ .

العرب ، فقد جند طائفة من العرب المقيمين فى منطقة الحوف وغيرها ، وعنى بتدريبهم وتنظيمهم وتسليحهم وكون منهم فرقة أسماها « المختارة » ، فكانوا بمثابة حرسه الخاص . وقد أسرف خمارويه فى عنايته بالجيش ، فقد ألبسهم الأقبية من الحرير والديباج ، وصاغ لهم المناطق وقلدهم السيوف ، وتجلت هذه العناية فى مواكبه الرسمية التى كانت على أوفر ترتيب وتنظيم (١) وكان لكل عصبية فى الجيش سلاحها وزيها ، وكان يمنحهم أعطياتهم بانتظام ، ويوزع عليهم الهبات ، بالإضافة إلى ما كانوا يحصلون عليه من الأسلاب والغنائم . وقد وصف المقريزى أزياء « المختارة » وصفاً جيداً يمكن الرجوع إليه .

واتفقت معظم المراجع على أن عدد الجيش فى أيام خمارويه قد بلغ حوالى ٤٠٠ر٠٠٠ جندى ، وبلغت ميزانية الجيش فى عهده قرابة ٩٠٠ر٠٠٠ دينار .

تولى الحكم بعد وفاة خمارويه ، سلاطين ضعفاء ، ولما مات شيبان انتهت الدولة الطولونية بعد حكم دام ٣٧ عاماً وبضعة أشهر ، وعادت مصر ثانية إلى أحضان الدولة العباسية .

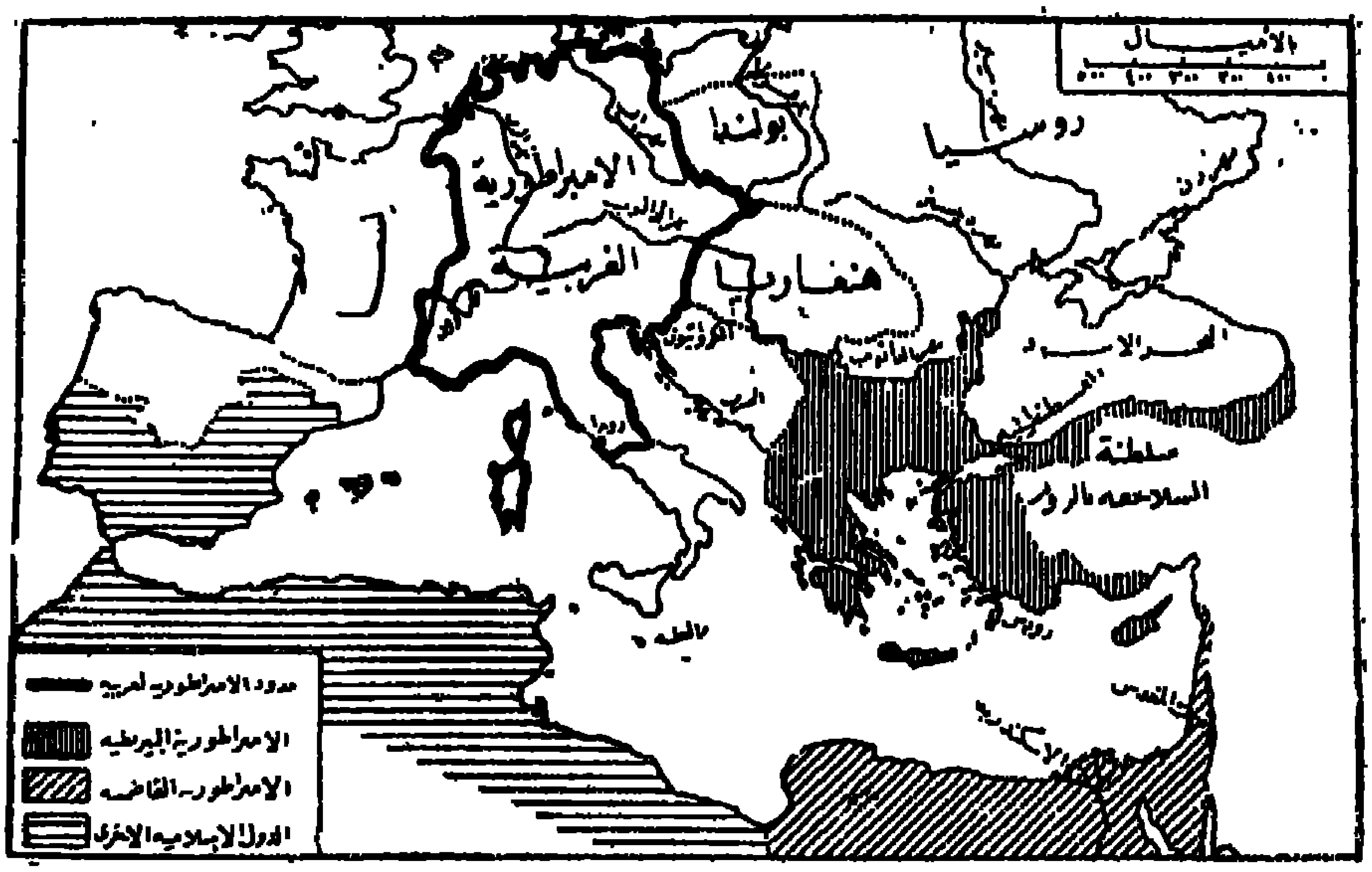

الامبراطوريتان الفاطمية والبيزنطية والدولة الأندلسية
ودول شمال أفريقيا العربية

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٧ .

الفصل الثالث

الجيش في عصر الإخشيديين

(٩٣٥ — ٩٦٩ م)

نسبت الدولة الإخشيدية إلى الإخشيد ، وهو اللقب الذى منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج فى سنة ٩٣٧ — ٩٣٨ . وكان هذا أكبر أولاد طغج الذى كان والياً على دمشق وطبرية . وقد أبلى محمد بلاء حسناً مع تكين فى قتال الفاطميين وتوثقت صلته به، وكان يعينه فى مناصب هامة فى أثناء ولايته على مصر . ثم عينه الخليفة المقتدر والياً على الرملة ثم دمشق وفيها وطد مركزه ، ثم طمع فى حكم مصر قبل وفاة تكين ، فوليها فى عام ٩٣٥ وهو فى دمشق آنذاك .

رأى الإخشيد أنه لن يستطيع دخول مصر إلا بالقوة ، فجمع جنوده وضم إليهم من استطاع جمعهم من القادة والجند الذين وفدوا عليه من أنحاء سورية والعراق والبادية ، وزاد عدد هذا الجيش حتى صعب على الإخشيد تموينه . وكان الماذرائى يعمل ضده فى الخفاء ، ويأبى عليه الولاية ، ويعاونه فى ذلك أحمد بن كيغلغ الوالى الموجود فى مصر قبل ابن طغج .

وسرعان ما بعث أحمد والماذرائى جيشاً إلى حدود مصر الشمالية الشرقية ليمنع ابن طغج من دخول الفرما . وقرأ الماذرائى على أهل مصر كتاب الراضى الذى يفوض إليه تدبير مصر ، ويقر ابن كيغلغ على ولايتها ثم أوفد الرسل ومعهم صورة هذا الكتاب إلى محمد بن طغج ، فقابلوه عند وصوله إلى الفرما . ولما قرأ الإخشيد صورة كتاب الراضى طلب من الرسل أن يحملوها إلى الوزير الفضل بن جعفر وكان ينزل حينئذ فى الرملة . ولما وصل الرسل إلى هذه المدينة قبض عليهم الفضل وظلوا فى أسره ، وتقدم ابن طغج بجيوشه وخرج أحمد بن كيغلغ على رأس جنده ومعه المغاربة بقيادة زعيمهم « حبشى » .

أرسل محمد بن طغج قسما من جيشه فى أسطول بقيادة صاعد ، وأفلح هذا الأسطول فى الأستيلاء على دمياط وتنيس ، ثم سارت سفنه فى النيل . ولقيت مراكب الماذرائى وابن كيغلغ بقيادة على بن بدر على مقربة من سمنود ، وكان النصر لأسطول ابن طغج فى شعبان ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ ، ووصلت سفنه إلى جزيرة الروضة ، وأقامت بها أياما ثم انسحبت إلى الدلتا ، فأمر الماذرائى بشحن الجزيرة بالسلاح والرجال للدفاع عن الفسطاط ، وما لبثت سفن ابن طغج أن عادت وأسرت من فى الجزيرة ، واستولت على ما فيها من العتاد ، ولكنها لم تستطع أن تدخل الفسطاط (١) .

أما ابن طغج ، فقد سار على رأس جيشه والتحم مع جنود ابن كيغلغ والماذرائى فى معركة خسرها المصريون ، ثم نزل ابن طغج منية الأصبغ (شمال القاهرة بالقرب من ضاحية الدمرداش) ، وأرسل كتاباً إلى ابن كيغلغ لكى لا يمنعه عن تنفيذ أمر الخليفة . وكان هذا قد سئم استبداد الماذرائيين بتدبير الأمور فى مصر ، فأقبل على تسليم البلاد لابن طغج ، واعتذر إليه بأن زمام الحوادث كان قد أفلت من يده وأن جند مصر قاوموه بغير إرادته . ودخل محمد بن طغج الفسطاط فى أغسطس ٩٣٥ وأشرف الجند منها على شاطىء النيل ، فانضم إليهم زملاؤهم الذين كانوا يقيمون فى الجزيرة بعد الاستيلاء عليها . وسرعان ما غادر الفسطاط حبشى ابن أحمد قائد الجند المغاربة فى مصر وعلى بن بدر قائد أسطول ابن كيغلغ ، وغيرهما من القواد الذين قاوموا ابن طغج .

أرسل الفواطم جيشاً آخر لغزو مصر ، فأفلح ابن طغج فى صده ، وهكذا دانت مصر لابن طغج ، ثم قدم إليها الفضل بن جعفر ومعه خلف لمحمد بن طغج من قبل الخليفة الراضى بالله تثبيتاً له على ولاية مصر . وبعد مدة غادر الفضل مصر ، فجمع الإخشيد جميع السلطات كما عمل أحمد بن طولون ، وتمكن من التغلب على جميع منافسيه فى مصر وسورية وفى العراق أيضاً . وقد توفى بدمشق فى عام ٩٤٦ ، وكان قد عقد قبل وفاته لولديه أونوجور وعلى وقرر أن تكون

---

(١) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٧ — ٧٤ .

الوصاية عليهما لغلامه كافور . ولما توفى على وهو صغير فى عام ٩٦٦ ، استقل كافور بالدولة، فواجه فى مبدأ حكمه المشاكل الداخلية والخارجية ، ثم قضى على ثورة قام بها أهل مصر ، كما أوقع بسيف الدولة الحمدانى عند ما شرع فى المسير لغزو مصر ، وتمكن من صد جيش فاطمى قادم لفتح مصر .

توفى كافور سنة ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ بعد أن ولى الأمور حوالى ٢٣ سنة ، استقل فيها بالملك سنتين وأربعة أشهر ، وخطب له على منابر مصر وسورية والحجاز والثغور ، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به . وخلفه أحمد حفيد الإخشيد وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة ، فعين الحسن بن عبيد الله بن طغج والى الشام وصياً عليه ، غير أنه لم يلبث أن استبد بالأمر فسخط عليه المصريون ، واضطر إلى العودة إلى سورية ، وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمى هذا الاضطراب فى مصر وضعف بغداد فى الدفاع عنها ، لانشغالها بصد غارات البيزنطيين ، فبعث جيشاً بقيادة جوهر الصقلى لفتح مصر عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م ، فانتصر على الإخشيديين .

الفارس العربى

الجيش الإخشيدى

على أثر سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب (٩٠٥م)، عادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية ، وكان ذلك فى أيام خلافة المكتفى بالله . وقد أحرق هذا القائد مدينة القطائع ونهب جنده الفسطاط واستباحوا النساء وارتكبوا الفظائع والمنكرات ، ولما رحل محمد بن سليمان من مصر (٢٩٢ هـ / ٩٠٤ — ٩٠٥م) ، استصحب معه الأمير شيبان بن أحمد بن طولون . وبنى عمه وأولادهم وأعوانهم ؛ ولم يدع أحداً من آل طولون فى مصر ؛ كما أنه أخرج قوادهم إلى بغداد . ثم آلت ولاية مصر إلى أبى موسى عيسى بن محمد النوشرى .

ولكن تمكن ضابط من الجيش الطولونى إسمه ابن الخليج أن ينفصل عن ركب محمد بن سليمان فى أثناء عودته إلى مصر ؛ والتف حول هذا الضابط عدد كبير من الجند والضباط الذين كانوا فى خدمة بنى طولون ؛ وعقدوا العزم على إحياء الدولة الطولونية ، وانضم إليهم أنصار كثيرون ؛ فهزموا قوات الخليفة فى الرملة والعريش والفرما ؛ وتتابعت إنتصاراتهم حتى دخلت قوات ابن الخليج الفسطاط ؛ فاستقبلهما الشعب إستقبالا حسناً، وسرعان ما أفلح فى جمع الضرائب وفى دفع رواتب الموظفين والجند ، وما لبث أن استولى على الأسكندرية ، واستقر له الأمر فى العاصمة وفى الدلتا .

ولما علم الخليفة المكتفى بثورة ابن الخليج أرسل جيشاً بقيادة أبو الأغر وكان فى الجيش الأمير أحمد بن كيغلغ وهزم ابن الخليج هذا الجيش شر هزيمة فى أوائل المحرم سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ وسرعان ما أرسل الخليفة جيشاً آخر بقيادة فاتك المعتضدى ، كما أرسل جيشاً ثانيا بقيادة دميانة ، وقد التقى فاتك بابن الخليج بالقرب من النويرة (إحدى قرى بنى سويف) ، فاضطر ابن الخليج إلى التقهقر وتخلى عنه كثير من أتباعه فعاد إلى الفسطاط واختفى عند صديق له ، ولكن خانه هذا الصديق وكشف أمره فقبضوا عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ — ٩٠٥ بعد

أن دام سلطانه قرابة سبعة أشهر وعشرين يوماً ، وأخذ ابن الخليج إلى بغداد حيث أمر الخليفة بقتله[1] .

الخطر الفاطمى

وفى أعقاب وفاة عيسى النوشرى (٢٩٧ هـ — ٩١٠ م) قام بالأمر من بعده إبنه أبو الفتح محمد إلى أن قدم الوالى الجديد أبو منصور تكين بن عبدالله من قبل الخليفة المقتدر . وكان أول ما فعله ، العناية إلى دفع الخطر الفاطمى فى المغرب ، فجند جيشاً تولى قيادته أبو النمر احمد بن صالح بعد أن ولاه على برقة وبعد أن استتب له الأمر مدة ، هزم ، فشجع ذلك الفاطميين على الهجوم على مصر ، فوجه اليها المهدى جيشاً بقيادة إبنه أبى القاسم سنة (٣٠١هـ — ٩١٣)فوصل به إلى الأسكندرية والفيوم ، ولكن تمكن المقتدر بالله أن يرسل جيشاً على رأسه مؤنس الخادم من أعلام القواد العباسيين ، وأفلح هذا الجيش فى صد القواطم وإرغامهم على الجلاء عن مصر . ومع ذلك فقد عاد جيش فاطمى آخر فى العام التالى بقيادة حباسة بلغ عدده حوالى مائة الف ، وقد جاء هذا الجيش بطريق البحر ، وسقطت الاسكندرية دون مقاومة ، ولكن قدمت الجيوش من المشرق مدداً لتكين والتقت جيوشه بالفاطميين على مقربة من الجيزة ، فانتصر المصريون وفر حباسة بفلول جيشه إلى المغرب، فقتله المهدى .

صعد نفوذ مؤنس وتمكن من عزل تكين عن ولاية مصر ، وأمره بالرحيل منها وأقام مؤنس فى مصر يدير أمورها الى أن عين الخليفة والياً جديداً محل تكين، هو ذكا الأعور ، وغادر مؤنس البلاد مع جيشه .

عاد جيش الفاطميين إلى مصر مرة أخرى (٣٠٧ هـ — ٩١٩) ، وسقطت الاسكندرية فى أيديهم ، ثم استطاع أبو القاسم قائد هذا الجيش احتلال الفيوم والأشمونين وجزءاً كبيراً من الصعيد . أما ذكا الرومى (الأعور) فكان مقيماً فى الفسطاط يعمل على الاستعداد لقتال الجيش الفاطمى ويسعى فى حشد جنوده،

---

(١) الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى عهد الأخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٠ — ٢٤

ولكن عدداً كبيراً منهم كان يأبى الخروج للقتال ، واستطاع ذكا أن يخرج بجيشه إلى الجيزة بعد جهد ، وكان صاحب الخراج حينئذ الحسن بن احمد المآذرائى وقد قام بتوزيع العطاء على الجند فأرضاهم وجد ذكا فى التأهب للحرب وأمر ببناء حصن على الجسر الغربى بالجيزة وحفر خندقاً يحيط بعسكره حتى لا يفاجأه العدو . ومازال ذكا جاداً فى القتال حتى مرض وتوفى بالجيزة (٩١٩)م . ولما توفى عهد الخليفة المقتدر بولاية مصر إلى تكين للمرة الثانية . وكان الخليفة قد أرسل جيشاً آخر إلى الفسطاط لصد الفواطم ثم بعث اليه بأسطول على رأسه ثمل الخادم . والتقى الأسطولان الفاطمى والعباسى عند رشيد فى شوال ٣٠٧هـ — ٩١٩ وكانت سفن العباسيين غنية بالنفط وعدد القتال ، فانتصروا على الفاطميين وطيف بسليمان الخادم ويعقوب الكتامى قائدى الأسطول الفاطمى مقيدين ومعهم رؤساء السفن وبالرغم من هذه الهزيمة ، فقد كانت جيوش الفواطم تحتل الفيوم وجزءاً من مصر الوسطى ، بيد أن الأمراض وصعوبة التقدم عطلتا تلك القوات عن العمل ، وعندما تحركت لقتال تكين فى معسكره بالجيزة ، كان النصر حليف الوالى العباسى ، وعاد الفواطم إلى مصر الوسطى ، وعاد تكين بجيوشه إلى الفسطاط .

لم يرض الخليفة بتلك النتيجة ، فبعث إلى مصر مدداً قوامه ثلاثة آلاف جندى على رأسهم مؤنس الخادم ، ولكن لم يستطع مؤنس أن يفعل شيئاً ، فأرسلت نجدة ثانية من العراق بقيادة جنى الخادم المعروف بالصفوانى وسارت الجيوش العباسية إلى الفيوم بقيادة مؤنس وتكين وجنى الخادم وأوقعت بالفاطميين عدة هزائم ، وفرت فلول جيشهم إلى برقة .

أدت تلك الحروب المتتالية فى البلاد إلى اضطراب الأحوال المالية ، مما دعا محمد بن على المآذرائى العامل على الخراج إلى الكتابة إلى بغداد ينبهها إلى كثرة الجيوش فى مصر وما تحتاج اليه من النفقات الطائلة .

عزل تكين من ولاية مصر وجاء هلال بن بدر بديلا عنه ، كما استدعى الخليفة القائد مؤنس إلى بغداد ، فخرج من مصر ومعه الجيوش العباسية . ولم تهدأ البلاد فى أثناء ولايته ، فعزله الخليفة وأرسل والياً جديداً ، هو أحمد

ابن كيلغ ، ولكن الجند ثاروا مطالبين بعطاءاتهم، ولم يستطع أن يكبح جماحهم، فعزله الخليفة وأرسل تكين للمرة الرابعة (٩٢٤) ، ولما قتل المقتدر وبويع أخوه القاهر ، أقر تكين على ولاية مصر ، ولكن لم تطل ولايته بعد ذلك ، فمرض ومات (٩٣٣) وكانت البلاد قد استقرت أحوالها . بالرغم من سيطرة الماذرائيين على معظم مرافق الادارة فى مصر .

ونلاحظ أن مقاليد الأمور بمصر فى الفترة الواقعة بين الدولتين الطولونية والاخشيدية كانت فى أيدى ثلاث قوات : الولاة ، وقواد الجيش العباسى فى مصر ، وأسرة الماذرائيين التى نزح كثير من أفرادها إلى مصر ، فتقلدوا المناصب الادارية والمالية الكبرى عدة سنين حتى تمكن محمد بن طغج الأخشيد إلى الحد من نفوذهم .

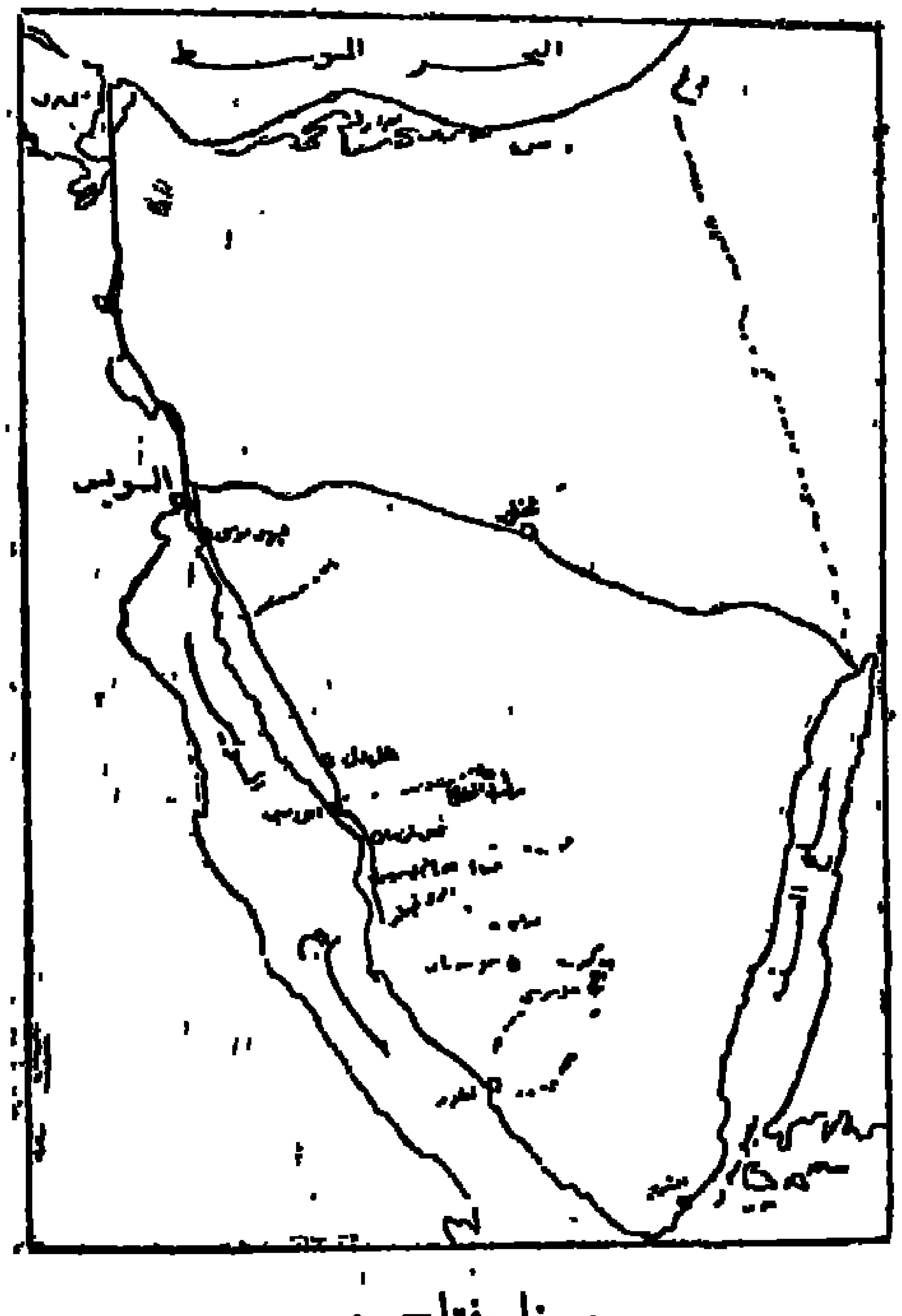

سينا مفتاح مصر

الفصل الرابع

الجيش في عصر الفاطميين

(٩٦٩ - ١١٧١ م)

لما نجح الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى تأسيس دولته بالمغرب ، عزم على فتح مصر ، فرتب خطته العسكرية وأعد حملته ، ثم سير عليهما قائده جوهر الصقلى على رأس مائة ألف من جنوده مستهلا السير من مدينة القيروان فى ١٤ ربيع الأول عام ٣٤٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩ م) . فسار جوهر حتى وصل بجيوشه إلى طروجه بالقرب من الإسكندرية وأرسل إلى أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان . فأجابهم جوهر إلى ذلك وكتب لهم العهد . فلما علم الإخشيديون بذلك توجهوا لقتاله عند الجيزة، فوصل جوهر إليها ووقع القتال بينهما حتى سقطت مصر فى ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩ م) ، بعدما سار أحد قادة جوهر إلى منية الصيادين (ميت النصارى) وعبر مخاضة منية شلقان (شلقان) الواقعة شرقى القناطر الخيرية فى حركة بارعة .

دخل جوهر فى اليوم التالى إلى الفسطاط ثم نزل بالمناخ ، وهو موضع القاهرة اليوم ، واختط المدينة التى أصبحت فيما بعد عاصمة البلاد ، وحفر أساس القصر فى نفس الليلة، وكتب إلى مولاه المعز يبشره بالفتح ويهنئه . وبقى جوهر حاكما على مصر حتى قدم إليها المعز لدين الله ، وجعلها عاصمة دولته الكبرى ، التى امتدت فى أثناء حكم الفواطم من نهر العاصى بالشام شرقاً إلى الجزائر غرباً ، وشمال السودان الغربى. وقد طغى نفوذهم الروحى بلاد فارس. كما تملكوا عدة جزر فى البحر المتوسط ، بفضل نشاطهم البحرى مدة قرنين .. وفى ذلك الحين ، وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، أخذ الصليبيون فى تحقيق أمنيتهم للاستيلاء على الأراضى المقدسة من قبضة المسلمين . بيد أن الأمراء المصريين فى الشام استطاعوا مقاومتهم بعض الوقت : من هؤلاء عماد الدين زنكى ، والسلطان المجاهد نور الدين محمود .

ولم يستطع الفواطم لضعفهم فى أخريات أيامهم مقاومة تلك الحملات الصليبية ، فاستنجدوا بالأمير نور الدين سلطان دمشق .

وفى أوائل يناير ١١٦٨ ، وصل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى من قبل نور الدين إلى مصر لنجدتها ضد جيوش أملريك ملك الفرنج فى سورية . فحاول شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمى أن يستميل شيركوه بالمداهنة ، فلم يفلح وقبض عليه صلاح الدين ، ثم أمر الخليفة بقتله ، لما علم باتصاله بأعداء مصر . واختار العاضد بالله القائد شيركوه ليكون وزيره الأول ، ولقبه بالملك المنصور ، غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام ، فاستوزر من بعده — القائد صلاح الدين وجعله أميراً لجيوشه ، ولقبه بالملك الناصر .

وانتهز صلاح الدين فرصة وفاة العاضد ، فقضى على دولة الفواطم فى مصر ، وأعاد كلمة العباسيين إلى البلاد مرة أخرى ، ثم أنشأ أسرة الأيوبيين ، وجعل على الوزارة « بهاء الدين قراقوش » الذى شيد قلعة الجبل . ومن ثم أبدل صلاح الدين نظم الجيش الفاطمى فأزال من صفوفه : السود ، والعرب ، والأرمن ، وجعل الجيش من الأكراد والترك ، ثم ضم إليهم المصريين .

* * *

مقاتل عربى

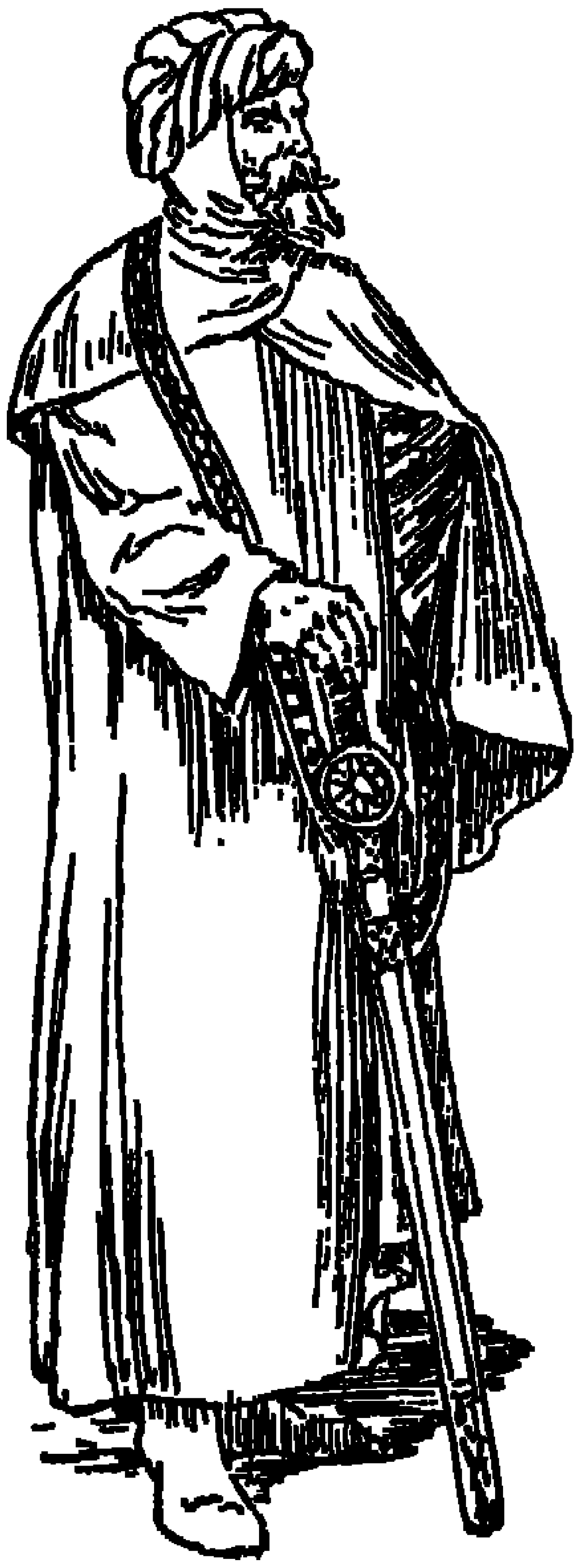

زعيم عربى

الجيش الفاطمى

قامت الأسرة الفاطمية بشمال أفريقيا ، ودانت بظهورها لأبى عبدالله الشيعى فى أوائل القرن العاشر بالقيروان ، وما لبث أن عمل عبد الله المهدى على التخلص منه بالقتل ، فأثار الحادث أهالى بلاد المغرب ، غير أن عبيد الله تمكن من إخماد الثورة ، ووجه عنايته إلى إخضاع قبائل صنهاجة بالمغرب الأقصى ، والقضاء على نفوذ أسرة الأدارسة فى عاصمتهم فاس ، ثم شيد حاضرة المهدية على بعد ٩٠٧ كم جنوب القيروان لتكون قاعدة ملكه الجديد، ونادى بنفسه خليفة، معارضا بذلك الخلافة العباسية ببغداد (٩٠٩م) ، واستولى على الجزائر وتونس وطرابلس ثم برقة . ومن ثم عمل على توسيع ملكه فهاجم مصر مرات عدة ، لكنه ارتد على أعقابه وتوفى عام ٩٢٣ وفى أيام الخليفة اسماعيل المنصور تم الاستيلاء على صقلية فى عام ٩٤٦. وبعد وفاته (٩٥٢) آلت خلافة الفواطم إلى المعز لدين الله الذى فتح مصر بقيادة جوهر الصقلى عام ٩٦٩ ، وأسس مدينة القاهرة، واتخذها عاصمة للدولة الفاطمية بعد نقلها إلى مصر التى ازدهرت فى أيامه، وبنيت المساجد وأهمها : الأزهر لتدريس المذهب الشيعى والدعوة له . وفى أثناء حكم المعز استولى على غرب بلاد العرب وفلسطين وسورية .

والمعروف أنه كان للفاطميين فى أوائل حكمهم فى مصر ، جيش كبير جاءوا به من أفريقية ، يتكون من مائة ألف رجل[1] فكان أكبر جيش عرفته منذ أيام اسكندر الأكبر ، ولكن هذا العدد الكبير انخفض فى أواخر الحكم الفاطمى ، كما جاء بالقريزى ، الذى روى أن عدد من كانوا فى جداول الديوان فى عهد الوزير رزيك بن صالح (٥٥٦ هـ / ١١٦٠) يبلغ أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل .

ومن أهم مراجع الجيش الفاطمى بمصر ماذكره الرحالة ناصر خسرو الذى زار مصر فيما بين ١٠٤٥ ، ١٠٥٢ فى الأعوام الأولى من حكم الخليفة المستنصر

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٧٨ . أنظر أيضا جـ ١ ص ٩٤ .

بالله[١] وقد وصف لنا بدقة فى كتابه « سفرنامه » الجيش الفاطمى فى أثناء الاحتفال بفتح خليج النيل . وكذلك ما أمدنا به أسامة بن منقذ الفارس العربى الذى زار مصر فى سنة ١١٤٤ وذلك فى كتابه « الاعتبار »[٢] .

أضف إلى هذين المرجعين المعاصرين ، ما جاء فى كتاب الخطط للمقريزى (القرن ١٥) وقد جمعت فيه المعلومات الكثيرة عن النظم الإدارية والعسكرية والمالية والمعمارية . . إلخ[٣] .

* * *

كان هناك ثلاثة دواوين تشرف على الجيش ، أولها « ديوان الجيش » ، ويهيمن على الجنود واعدادهم . ثانيها ديوان « الرواتب » ويشرف على تسجيل عطاءات الجنود وجميع موظفى الدولة ، وكان جزء كبير من الدخل ينفق على الجيش . فكان الديوان يشمل أسماء المرتزقين من الجنود ومن استجد منهم أو من مات دون أن يشتمل على أسماء المتطوعة أو البدو . وقد تغير هذا العطاء عدة مرات فى أيام الفواطم ، وكان يتناسب مع درجة كل جندى . وقد ذكر ناصر خسرو أن عطاء كل جندى فى عهد المستنصر بالله ، بلغ عشرين ديناراً فى كل شهر . وثالثها « ديوان الاقطاع » ويختص بما هو مقطع للجنود حيث كانت الدولة تقوم بمنح الاقطاعات إلى الأجناد لقاء قيامهم بالواجبات العسكرية .

كان قائد الجيش يسمى فى العصر الفاطمى « اسفهسلار العسكر » أى قيادة العسكر ، وكان يضطلع بالقيادة الحربية فقط ، أما أمور الإدارة العسكرية فلم تكن من اختصاصه ، وكان للجيش قادة من الأمراء يتميز بعضهم عن بعض .

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب . مطبوعات معهد اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٤٥ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، حققه وعلق عليه الدكتور فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ .

(٣) دكتور عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥ . راجع الفصل الخامس فى الجزء الأول : النظم الحربية ١٩١ — ٢٢٩ .

بعلامات يحملونها فى الأعياد الرسمية ، ومن هؤلاء(١) مرتبة الأمراء وينقسمون إلى ثلاثة أنواع :

(ا) الأمراء الكبار ، ويتحلون بأطواق الذهب فى أعناقهم ويسمون « الأمراء المطوقين » ، ويقود كل منهم ألف جندى ، وهم كمقدمى الألوف فى أيام الدولة المملوكية .

(ب) أمراء القضب ، وهم يركبون فى مواكب الخليفة حاملين فى أيديهم قضب من الفضة ، وهى رماح فضية يخرجها لهم الخليفة من « خزانة التجمل » ، ويقود كل منهم مائة جندى وهم كأمراء الطبلخانة فى الدولة المملوكية .

(ج) أدوان الأمراء ، وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات فى العصر المملوكى ، وكانوا يحملون سلاحاً من نوع أقل قيمة من الرماح .

٢ — مرتبة خواص الخليفة ، أو حرسه الخاص وهم ثلاثة أنواع :

(ا) طائفة صبيان الحجر : وكان المعز لدين الله أنشأ سبع حجر وجعلها مكاناً لجماعة من الجيش الفاطمى مؤلفة من الصبيان ممن يختارون من أبناء وجهاء الناس وتتوافر فيهم صفات خاصة . وقد وصل عدد هذه الجماعة إلى خمسة آلاف نسمة وكان القادة والأمراء يختارون من بينهم . وكان لكل حجرة من تلك الحجر اسم خاص تعرف به ، كالفتح والمنصورة ، وأنشىء لخدمة هذه الطائفة اسطبلا يقابل حجرهم يجاور باب الفتوح وقد استمرت مبانيها إلى ما بعد عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠ حينما عمرها بالبيوت .

(ب) صبيان الخاص : وهم أولاد الأمراء والعساكر وعبيد الدولة الذين يقومون بالخدمة الخاصة بالخليفة ، وكان يعنى بتدريبهم على الفروسية وكانت لهم مساكن خاصة بهم

(ج) الأساتذة : يؤلفون فرقة من العبيد البيض والسود ، وخصيان وغير خصيان وغالبيتهم أجانب الأصل . عرفوا بالأستاذين المحنكين . وأكثرهم حنكة قربوا إلى الخليفة وهم خاصته الذين يطلعون على أسراره . ويعين منهم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٧٦ — ٤٧٧ .

«متولى شد التاج» ، وزم الأقارب » ... وكان راتب الواحد منهم مائة دينار في كل شهر [١] وكانت ملابس الأستاذين تختلف بحسب طبقاتهم ، فالمحنكون لهم كسوة مذهبة ، أما غير المحنكين فليس لهم الحق إلا في بدلة حريرية [٢] .

وبالإضافة إلى الطوائف التى ذكرناها ، كانت هناك مجموعة من الأجناد السود يبلغ عددهم خمسمائة رجل،ومثلهم من الفرسان ، يقومون بحراسة قصر الخليفة والمرور حول أسواره أثناء الليل . وكان لقب مقدمهم «سنان الدولة». ومن واجباته نفخ البوق ودق الطبل والصنوج بعد صلاة العشاء ، ثم قفل باب القصر وتثبيت سلسلة لمنع المرور بين القصرين ، وترفع عندما ينفخ البوق مرة ثانية فى الفجر [٣] .

٣ — والمرتبة الثالثة هى طوائف الأجناد .

كانت تنسب كل طائفة إلى خليفة من الخلفاء الفواطم . الحافظية ،الآمرية. أو إلى وزير من الوزراء كالوزيرية (يعقوب بن كلس) والجيوشية والأفضلية.. وقد تنسب إلى قبيلة أو جنس كالديلم والمصامدة أو السودان .

وهناك أيضا حملة السلاح أو الركابية أو صبيان الركاب ومهمتها حمل السلاح حول الخليفة فى المواكب وكان لهذه الطائفة اثنا عشر مقدما (قائد) .

ألقاب القادة :

وكان للأمراء الفواطم ألقاب ، منها الاسفسهلار وزعيم الجنود ، وعون العساكر (لقب من ألقاب ناظر الجيش) ، ومدبر الجيش ، ونقيب الجيش ، والناظر (خاص بالأموال) والمقر . وجميعها من وظائف أرباب السيوف .

مرتبات الجند :

خصص الفواطم ثلث المال الذى يتحصل من الخراج للانفاق على العساكر وكان مرتب صاحب ديوان الجيش أربعين دينارا فى كل شهر . وكان يهيمن

(١) مشرفه : نظم الحكم فى مصر ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٢) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ٥٥ .
(٣) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين جـ ٢ ص ٣ .

على إدارة الجيش ثلاثة دواوين ، أولها ديوان الجيش وكبيره يعرض الجند ولا يستطيع تغيير مخصصاتهم إلا بأمر من السلطان ، وكان يشرف على نقباء الأمراء الذين يعرفون أحوال الجند ، وديوان الرتب،وديوان الاقطاع المختص بمـا هو مقطع للجنود (نصيبهم من الأرض) .

ويذكر شمس الدين بن ظهير الحنفى الحموى[1] ان مرتبات الجيش (فى القرن التاسع الهجرى) تعطى باعتبار ما يحتاج اليه كل واحد منهم لنفسه وأولاده وأرقائه ودوابه من طعام وكسوة باعتبار غلاء المعيشة ورخصها مع زيادة عن ذلك بمقدار احتياطى لمـا عسى أن يولد له من أطفال وكل ذلك لمدة سنة ، ويعطون هذا المرتب فى وقت معين عن السنة . واذا أراد أمير اخراج جندى من ديوانه فلا يجوز له ذلك الا اذا ظهر منه ما يوجب الطرد أو حدث عذر يقتضيه.واذا أراد الجندى أن يستقيل من الخدمة العسكرية وأن ينقطع عنها جاز له ذلك اذا لم تكن لديوان الجيش به حاجة .

واذا امتنعت طائفة من الجيش عن مقابلة العدو فإن مرتباتهم واستحقاقاتهم تسقط ان كانوا أكفاء لذلك العدو ، وان كانوا أضعف منه وإن عددا فليس للأمير اسقاط مرتباتهم .

ولمـا تحدث ابن ظهير عن كتابة ديوان الأموال قال :

لا يتم نظام الدولة إلا بالأمن والأجناد ، ولا يتم أمر الجيش إلا بالأموال. وقال إن أكبر موظفى هذه الإدارة يسمى صاحب الديوان أو كاتب بيت المال . وموارد بيت المال هى :

الجزية — الخراج — العشور — الأجور — الزكاة — الأثمان — المقاسات - الغنيمة الفىء ·

---

(١) كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب لشمس الدين بن ظهير ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة .

عناصر القوات الفاطمية

استمد الفاطميون قواتهم الحربية من عنصرين أساسيين : العنصر المغربى ، والعنصر الشرقى . فالمغاربة وهم من البربر ، أما المشارقة فهم من عناصر الترك والفرس والكرد، وقد أدخلوا فى أيام الخليفة العزيز لموازنة نفوذ البربر بوساطة برجوان . وكان من أهم قبائل البربر التى مدت الجيش برجالها : طوائف الكتامية [1] ، والباطلية والمصامدة والجودرية (نسبة إلى قائدهم جودر) وزويلة التى جاءت مع جوهر من المغرب .

لما جاء الخلفاء الفاطميون إلى مصر ، شرعوا فى تكوين طوائف من العسكر ، تكون فى قبضتهم ، ومن أجل هذا ، شرط المعز على ولاة الأعمال ، البحث عمن يظهرون مهارة حربية من بين أولاد الناس ، وأفرد المعز لهم « حجراً » فى قصره يعلمون فيها فنون القتال ، وسماهم بسبب سكناهم فى هذه الحجر باسم « صبيان الحجر » أو غلمان الحجر ، ويجعل المقريزى هذه الحجر فى القاهرة بجوار دار الوزارة، قريباً من باب النصر [2]. وكان هؤلاء الجندون يخضعون لنظام دقيق ، فجعل لكل مائة قائد يسمى « زمام » ، وقسموا إلى قسمين « الحجرية الكبار » و « الحجرية الصغار » . وقد كان على هؤلاء الجندين أن يتعلموا امتطاء صهوة الجواد بمهارة، ولذلك أعد لهم اصطبل لدوابهم، عرف باسم « اصطبل الحجرية » .

وكانت هناك ، طوائف أو فرق من الجيش تنسب إلى الخلفاء أو إلى الوزراء أو حتى إلى بعض أفراد حاشية الخليفة . ونذكر على سبيل المثال : الآمرية نسبة إلى الخليفة الآمر ، والحافظية نسبة إلى الحافظ ، وطائفة الوزيرية التى يرجع الفضل فى تأليفها إلى الخليفة العزيز الذى سمح لوزيره ابن كلس بتكوين حرس خاص به ، ينتسب إليه . ثم ازدادت طوائف جند الوزراء ولا سيما فى عهد وزراء السيف ، لاعتمادهم عليها لدعم نفوذهم ، فنذكر منهم

(١) كان الكتامية عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر ، ومن زعمائهم أبو محمد الحسن بن عمار

(٢) الخطط ، ج١ (ص١٤٣ — ١٤٤) انظر أيضا صبح الأعشى : ج٣ ص ٤٧٢ ، ٥٠٨ .

« الجيوشية » نسبة إلى الأمير بدر الجمالى أمير الجيوش ، والأفضلية نسبة إلى ابنه الأفضل ، والبرقية التى أنشأها الوزير طلائع على اسم المكان الذى أتت منه هذه الطائفة من برقة .

وإلى جانب هذه الطوائف : اليانسية ، على اسم يانس وزير الحافظ ، أو يانس الخادم الذى كان من خدام العزيز والحاكم ، والعطوفية على اسم عطوف الذى كان فى خدمة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله .

وعلى مر الأيام ضم الجيش الفاطمى عدة عناصر ، فمنهم السود(١) من عبيد الشراء ، وقد زاد عددهم فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، وتضاعفوا على أيام المستنصر ، الذى كانت أمه سوداء ، وقد بقيت هذه الفرقة حتى آخر أيام الفواطم ، وقد زاد خطرهم على أمن الدولة فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله .

وكان يضم الجيش الفاطمى فى وقت الحرب والسلم ، عناصر غير نظامية من البدو ومن قبيلة لواته البربرية ، كما أنه ضم أيضاً عناصر أجنبية كتلك التى وفدت بصحبة شيركوه وصلاح الدين ، كالأكراد والغز والأرمن والروم والفرنج والجيل (سكان جيلان جنوب بحر قزوين) والترك . ومن العناصر الأوربية الصقالبة وهم السلاف .

ظهر أمر الترك فى عهد العزيز بالله فاستكثر منهم وقربهم إليه وأصبحوا منذ ذلك الحين عنصراً هاماً فى الجيش الفاطمى وكانوا ينافسون السودانيين ولا سيما فى عهد المستنصر بالله فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة . ولما ضاق بهم ذرعاً ، اضطر سنة ٤٦٦ هـ أن يبعث إلى بدر الجمالى والى عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدابير شئون دولته ، فاشترط أن يجلب معه الجند الذين يختارهم وكانت غالبيتهم من الأرمن (٢) .

---

(١) بدأ ظهور السودانيين فى مصر منذ أيام كافور الاخشيدى . ولم يعمل كل من المعز وابنه العزيز على استخدامهم فى الجيش .

(٢) عرف الارمن بالمغارقة تمييزاً لهم عن الاتراك والبربر والسودان وقد تفانوا فى الإخلاص لاميرهم بدر الجمالى واحتفظ كثيرون منهم بالمسيحية ثم آثروا الإقامة بمصر على العودة إلى بلادهم

وهذا اليوم أعظم الأعياد فى مصر ، ويسمى « عيد ركوب فتح الخليج » .

حينما يقترب هذا الموسم ، ينصب للسلطان على رأس الخليج سرادق عظيم التكاليف من الديباج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكلل بالجواهر ، ومعد أعظم إعداد ، وهو من الكبر بحيث يتسع كله لمائة فارس . وأمام هذا السرادق خيمة من البوقلمون وسرادق آخر كبير .

وقبل الاحتفال بثلاثة أيام يدقون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكئوس فى الإصطبل ، لتألف الخيل هذه الأصوات .

ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة ، وأطواق وألجم مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون ، نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تخط ، وطرزت حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان درع أو جوشن ، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى . وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هوادج مزينة ، وبغال عماريّاتها (هوادجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ . وإن الكلام ليطول إذا ذكرت كل ما يكون فى يوم فتح الخليج » .

فى ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقه فرقة ، وفوجاً فوجاً ، ولكل جماعة اسم وكنية .

فرقة تسمى « الكتاميين » وهم من القيروان » أتوا فى خدمة المعز لدين الله وقيل إنهم عشرون ألف فارس . وفرقة تسمى « الباطليين » . وهم رجال من المغرب ، دخلوا مصر قبل مجىء السلطان إليها وقيل إنهم خمسة عشر ألف فارس . وفرقة تسمى « المصامدة » وهم سود من بلاد المصامدة ، قيل إنهم عشرون ألف رجل . وفرقة تسمى « المشارقة » وهم ترك وعجم ، وسبب هذه التسمية أن أصلهم ليس عربياً ، ولو أن معظمهم ولد فى مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، قيل إنهم عشرة آلاف رجل وهم ضخام الجثة . وفرقة تسمى « عبيد الشراء » وهم عبيد مشترون ، قيل إنهم ثلاثون ألف رجل . وفرقة تسمى « البدو » وهم من أهل الحجاز . وكلهم يجيدون حرب الرماح قيل إنهم

وفرقة تسمى « الأستاذين » كلهم خدم بيض وسود ؛ أشتريا للخدمة ؛ وهم ثلاثون ألف فارس . وفرقة تسمى « السرائيين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ؛ ولهم قائد خاص ؛ يتولى رعايتهم ؛ وكل منهم يستعمل سلاح ولايته ؛ وعددهم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزنوج » يحاربون بالسيف وحده ؛ قيل أنهم ثلاثون ألف رجل » ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال ، ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ؛ وتصرف أرزاق الجند من الخزانة فى وقت معين ؛ بحيث لا يرهق وال أو أحد من الرعية بمطالبة الجند .

وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا لمصر من أطراف العالم ، ولا يعدون من الجيش ، وَمن بين هؤلاء أولاد خسرودهلى . وقد أتت أمهم معهم ؛ وأولاد ملوك الكرج (جورجيا) ، وأبناء ملوك الديلم ، وأبناء خاقان تركستان .

قادة الفواطم فى مصر

جوهر أبو الحسن (الرومى الصقلى)

أول القادة الفواطم الذين عرفتهم مصر . ولد فى بلاد الروم ثم أحضر إلى القيروان . اشترى وبيع عدة مرات ثم انتقل إلى الخليفة المنصور فجعل منه تابعه الخاص . أعتقه المعز لدين الله ابن المنصور وخليفته ، وسرعان ما ارتقى من منصب الكتابة إلى الوزارة ثم أصبح أميراً فى الجيش ، وبرز فى القيادة فأصبح من أعظم القادة الفاطميين . كانت حملته على المغرب (٣٤٧هـ — ٩٥٨م) أول عمل حربى كبير قام به ثم دان له المغرب بأسره . قاد حملة فتح مصر وتغلب على الأخشيديين (٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م) ومن ثم شيد القاهرة وبنى الجامع الأزهر وكل فتح الشام إلى جعفر بن فلاح فاستولى على دمشق (٣٥٩ هـ) ، ولكن نجح القرامطة فى التغلب عليه ، فارتد إلى القاهرة ولحق به القرامطة عند أبواب

استمر القتال بين الطرفين حتى انتصر إنتصاراً تاماً أمام أسوار القاهرة (٣٦١هـ — ٩٧١م) . أخذ المعز لدين الله يغير من قائده ورأى فيه تهديداً لسلطانه . استعاد جوهر مكانته بعد وفاة المعز حينما تولى الحكم العزيز ، فأرسله لمقاتلة أفتكين التركي في دمشق . لم يستطع التغلب عليه في الميدان بل أنه أفلح في الحصول من أفتكين على ضمان له بسلامة الارتداد ، فرجع إلى مصر وتوفى في ٢٠ ذي القعدة عام ٣٨١ هـ — يناير ٩٩٢ . أنعم العزيز على حسين بن جوهر بلقب أبيه وجعله في رتبته ثم قبض عليه في أيام الخليفة الحاكم وأمر بقتله .

بدر الجمالي أمير الجيوش

كان مملوكاً أرمنياً لجمال الدولة بن عمار ، ولذا عرف بالجمالي . تنقل في عدة مناصب أظهر فيها الكفاءة حتى ولاه الخليفة المستنصر بالله الفاطمي إمارة دمشق (٤٥٥ هـ — ١٠٦٣ م) ثم تقلد نيابة عكا . ولما ساءت الأحوال بمصر ، استدعاه المستنصر ليكون المتولي لتدبير دولته ، فاشترط أن يجلب معه من يختارهم من الجند ولا يبقى أحداً من عسكر مصر ، فأجابه المستنصر إلى طلبه . قدم إلى القاهرة (٤٦٥هـ—١٠٧٢ م) ، فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة وتخلص منهم بالقتل . خرج إلى الوجه البحري ، فأسرف في قتل مدبري الفتن واستصفى أموالهم ، ثم نزل بالأسكندرية فحاصرها أياماً إلى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كانوا بها ، ثم فعل بالصعيد مثل مافعله في الوجه البحري ، فأصلح أحوال البلاد . جهز الجند لمحاربة الثائرين في الشام ولكنه لم يقض عليهم . توفى (٤٨٧هـ — ١٠٩٤ م) بعد أن تحكم في مصر واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط ، وعمر البلاد وأصلحها بعد خرابها . وكان له يوم وفاته حوالى الثمانين سنة بعد أن حكم البلاد إحدى وعشرين سنة . ومن آثاره بالقاهرة تجديده أبواب زويلة ، والنصر والفتوح ، وقام من بعده ابنه شاهنشاه الملقب بالأفضل

السلاح في العصر الفاطمي

عرفت مصر منذ القدم شتى أنواع السلاح ، ومن أهمها السيف . وكان له نصل مستقيم وقصير لا يزيد طوله على ثلاثة أقدام ، له حدان وطرفه مدبب يستخدم كالخنجر ، وكانت قبضته بسيطة الصنع ومقعرة في الجانبين لسهولة القبض عليه ، وترصع أحياناً بالأحجار النفيسة أو المعادن القيمة وكان النصل من البرونز السميك أو المنتفخ قليلا عند الوسط وقد تمتد على طوله شطبة . (١)

وعند ما دخل العرب مصر ، كان الفاتحون يحملون السلاح العربي المعروف في شبه الجزيرة كالسيوف المستقيمة والرماح والقسي . ولا تتحدث المصادر العربية الأولى عما إذا كان قد احتاج الأمر بعد الفتح العربي إلى العناية بصناعة السلاح في الوطن الجديد ، أم أن الفاتحين كانوا يستوردونه من بلادهم ، أو مما كان يقع غنيمة في أيديهم ، وذلك بعد أن إزداد عدد الجيوش التي تتطلبها الفتوح المتواصلة ، ولا سيما أن مصر كانت قاعدة للجيوش التي وجهتها الحكومات لفتوح المغرب .

وصلت إلينا نصوص كثيرة عن السلاح الفاطمي ومنها ما ذكره المقريزي نقلا عن ابن زولاق ، أنه لما استقر الخليفة المعز لدين الله في القاهرة (٩٧٢م) مثل الأشراف والزعماء وكبار الموظفين بين يدى الخليفة وقدمهم إليه جوهر القائد ، وبعد ذلك تقدم قليلا إلى الإمام ، وأرى الحضور هديته التي أعدها لمولاه المعز وكانت تتألف من مائة وخمسين فرساً مسرجة ملجمة بعضها مذهب وبعضها مرصع والبعض الآخر معتبر ... كما اشتملت على أربعة صناديق يرى ما بداخلها وجعل فيها أواني الذهب والفضة ، وكان في الهدية مائة سيف محلاة بالذهب والفضة ودرجان من فضة مخرقة فيها ثمين الجواهر والشيشان المرصعة بالجواهر ، وغير ذلك من مئات الأواني التي اشتملت على طرائف مختلفة انتقاها له القائد

---

(١) الشطبة هي القناة التي تحفر في متن السيف لتجعله أكثر ادانة ويقال سيف مشطوب وتجمع على شطب

جوهر من ذخائر مصر . ولم يعرف أحد صفات تلك السيوف، وهل كان القائد قد أمر باستيرادها من سورية أو فارس أو قد صنعها السلاحون فى مصر .

أفاض مؤرخو العصر الفاطمى فى وصف ثروة مصر، ونقل عنهم المقريزى وابن ميسر وقد وصف هذا — الكنوز التى خلفها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى وصفاً شائقاً ، كما أنه وصف الهديه النفيسة التى أرسلها إليها البساسيرى إلى مصر (٤٥٠ هـ — ١٩٥٨) حين أقام الخطبة باسم الخليفة المستنصر الفاطمى على منابر بغداد . وكان مما بعث به البساسيرى ثلاثين ألف قطعة كبيرة من البلور وخمسة وسبعين ألف ثوب من الحرير الخسروانى ، وعشرين ألف سيف محلى بالذهب [١] أما شكل تلك السيوف وزخارفها ونقوشها بالدقة ، فأمور مازال يخيم عليها الغموض ، لأنه لم يصل إلينا منها شىء البتة والظاهر أنه افتقدت فى خلال الثورات العديدة التى حلت بمصر فى أواخر حكم الفواطم .

أضف إلى هذا أن خزائن القصور الفاطمية كانت عامرة بأنواع السلاح النادرة وكان من بينها السيف العربى المستقيم المسمى بسيف ذى الفقار وصمصامة (سيف) عمرو بن معدى كرب الزبيدى ، ذلك السيف الذى اعتبره العرب أمضى السيوف عندهم ونسبوه إلى بلاد العرب الجنوبية ، وسيف عبد الله بن وهب الراسبى [٢] وسيف كافور الأخشيدى ، وسيف المعز ودرعه وسيف أبى المعز الحسن بن على بن أبى طالب ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب . كما احتوت هذه الخزانة على آلاف الخوذ والدروع والتجافيف والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الحديدية وصناديق النصال وجعاب السهام الخلنج وصناديق القسى والرماح والزرد والبيض [٣] .

عتاد الجيش الفاطمى

كان الفاطميون لايدخرون وسعاً فى تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من السلاح والعتاد، ويتضح لنا ذلك فيما جاء فى الخطط عن خزائن السلاح الفاطمية [٤]

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٥٣ .

(٢) نسبة إلى راسب وهى قبيلة من بنى أسد الذى اشتهروا بصناعة النصال

(٣) جمع بيضة وهى الخوذة أو المغفر وسميت كذلك لأنها تشبه البيضة فى شكلها .

(٤) المقريزى . الخطط ، ج ٢ ص ٣ ، صبح الاعشى . ج ٢ ص ١٣٨

وكانت خزانة السلاح الرئيسية تقع فى القاعة التى كان يطلق عليها اسم « الإيوان الكبير » ، وهى القاعة ذات العمد ، التى كان يجلس بها الخلفاء فى استقبالاتهم الأسبوعية ، كل اثنين وخميس ، ولكن فيما بعد ، فى أيام الخليفة الآمر (١١٩١ — ١١٣٠) ، نقل جلوس الخليفة إلى القاعة المعروفة بقاعة الذهب ، وتحول الإيوان الكبير إلى مستودع السلاح وسمى « خزائن السلاح » . وكانت تحتوى على أنواع شتى من الأسلحة التى استعملها الجند ، منها السيوف على اختلاف أصنافها ، والرماح الزان المسماة ، « القطيمية » ، والأسنة الطويلة المسماة « القنا » والرماح الخشبية « القنطاريات » ، وجعاب السهام ، والدروع ، وسهام الخلنج ، والنشاب ذات القراعين المثلثة الأركان ، والكرغندات المبطنة بالحرير أو القطن (لوقاية الذراعين) ، والدروع العربية ، والفارسية ، والزرد (الجواشن) ، والزرديات السابلة (القضفاضة) والتجافيف وهى درع الخيل ، وأنواع القسى ، مثل قوس اليد التى تشد باليد ، فتخرج السهام التى تشبه الجراد لصغر حجمها ، دفعة واحدة فى جهات متعددة ، وقوس الرجل أو القدم التى تشد بدفعها من الرجلين ، وقوس الركاب التى تشد من ركاب الخيل ، وقوس اللولب التى تشد بوساطة لولب ، وقسى تقذف قارورات النقط ، والمنجنيقات ذات الأحجام المختلفة ، والأبراج والستائر ... الخ .

وهناك خزائن البنود (الأعلام) ، والخيام ، والسروج التى تعد للدواب فى زمن الحرب . وكان الجيش الفاطمى يكثر من استعمال الرايات البيضاء ، وقد كانت الرايات الفاطمية تحمل عادة اسم الخليفة والقابه مطرزة على أطرافها ...

وكان فى الجيش الفاطمى ، طائفة تسمى « النفاطين » [1] مهيأة خصيصاً لرمى النفط فى القوارير ، أو بآلات الحصار كالمنجنيقات ، أو بالنشاب ، أو فى قدور النفط أو من على الجياد .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٣٨٦ ، ٢٨٧ — ٣٨٨ ...

السياسة الدفاعية فى عصر الفاطميين

١ — أسوار القاهرة وأبوابها

حينما فتح القائد جوهر مصر، اختط القاهرة وسرعان ماحفر أسس أسوارها، كان ذلك فى يوم السبت ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) . كان سور القاهرة الخارجى من اللبن وعلى شكل مربع ، طول كل ضلع من أضلاعه قرابة ١٢٠٠ ياردة ، وكانت مساحة الأرض التى حددها هذا المعقل (الحصن) المربع ٣٤٠ فداناً ، منها قرابة سبعين فداناً بنى عليها القائد جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان الكافورى ، ومثلها للميادين ، والباقى وقدره مائتا فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية وعددها قرابة عشرين خطة بجانبى قصبة القاهرة . فاتخذت قبيلة زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة حارة البرقية ، واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر .[1]

كان هدف القائد جوهر من إنشاء القاهرة على هذا النمط أن تكون معقلا حصينا لرد القرامطة من مدينة مصر « الفسطاط » ليتجنب القتال فيها ، فأدار السور اللبن على خطط قواته ، وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً ، وحفر خندقاً من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة للقاهرة ثم لمصر من ورائها ، وكان للقاهرة ثمانية أبواب فى كل جانب من أجنابها بابان ، ولم يبق من آثار هذا السور الأول شىء . ومن السهل أن نعرف امتداد القاهرة التى شيدهاجوهر إذا تصورنا نقطتين هامتين ، وهما أن باب الفتوح الحالى ومعه جامع الحاكم وباب زويلة ومعه جامع المؤيد ، يقعان خارج المربع الأصلى للقاهرة المعزية بمسافة قليلة ، وكان عرضها ممتدا من باب الغريب خلف الجامع الأزهر من ناحية الشرق إلى الخليج المصرى من جهة الغرب ، بالقرب من حى بين السورين (الموسكى) .

من هنا نرى أن موقع القاهرة قد اختير لغرض عاجل وهو ستر الأماكن القريبة من المدينة الثلاثية : « الفسطاط والعسكر والقطائع » ، ووقايتها وحمايتها

---

(١) أنظر مخطط القاهرة فيما بعد .

من غارات القرامطة الذين كان يهددون مصر على أول أيام الفواطم ، وتنفيذاً للخطة الدفاعية التى كلف جوهر القيام بها أمر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشر أذرع . وقد سجل لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة، إحداهما فى ربيع الأول ٣٦١ هو الأخرى فى ٣٦٣ هـ/٩٧٣م ، وقد تمكن القرامطة من عبور الخندق فى الغارة الأولى ولكنهم مع ذلك لم يستولوا على القاهرة .

السور الفاطمى الثانى

يستفاد مما ذكره المقريزى عن سور القاهرة الثانى أن الذى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وقد زاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوسين اللذين أنشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة الشمالى وبين السور الحالى الذى يقع فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليان ، ومن الجنوب الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة الجنوبى، وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى ، وجعل أكتاف الأبواب من الحجارة وكذلك الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فقد شيد بالحجارة . وعلى جانبى زويلة بنيت كذلك بالحجارة على مسافة ١٢٠ متر تقريبا من كل جانب . وقد زالت آثار الأسوار التى بناها بدر الجمالى باللبن،وأقام صلاح الدين فى مكانها بعض أجزاء منها قطعات أخرى بالحجر .

وتعتبر أعمال بدر الجمالى (وهى الأبواب الثلاثة) ذات أهمية بالغة لأنها تعتبر معالم بارزة فى العمارة العسكرية لعصور ما قبل الحملات الصليبية وهى باقية إلى اليوم فى قلب القاهرة القديمة . وسنتكلم عنها بقدر من العناية .

باب النصر

يقع فى الجزء الشمالى الشرقى من السور الشمالى ، ويشتمل على برجين ،عرض كل منهما ٨٫٢٥ م، وكلاهما مُبدَّن إلى نحو ثلثى الارتفاع . ويتوسط البرجين مجاز بديع معقود ، عرضه ٤٫٧٦ م وارتفاعه ٦٫٤٧ م . ويجىء بعد ممر يمتد مسافة حوالى ١٠٫٧٧ م وسعته ٨١٫٧ م ، يعلوه عقد متقاطع الشكل .

ويقوم خلف البرج الشرقى ، برج كبير مستطيل الشكل يحتوى على درج

الولبى ، عرضه ١٫٦٥ م ويعتبر أجمل نموذج شيد فى العمارة العسكرية ، وهو يؤدى إلى الإفريز الذى يعلو مدخل الباب . فإذا صعدنا إلى الممر العلوى ، بواسطة الدرج لأشرفنا على الثلث الأخير من الأبراج وشاهدنا خصائصها المعمارية الأساسية ، ونلاحظ خمس فتحات فى أرضية الممر خلف دروة السور ، وتلك الفتحات تحكم جيدا الوجه الخارجى لباب النصر .

وللأبراج ثلاثة طوابق ، يشتمل بناء الطابق الأول على ١٦ مدماكا من الحجارة الملساء . ويلاحظ أن المدماك السابع يشتمل على حلقات دائرية متجاورة تبعد الواحدة عن الأخرى بنحو ١٫٨٥ م . وهذه تبدو فى الوجوه الخارجية للأبراج وبرج الدرج والسور . . . وهذه الدوائر هى أطراف العمد المثبتة فى الجدار كرباط بين أجزاء الحجارة الداخلية والوجوه الخارجية للحجارة المصقولة.

لهذا فإن هذه العمد قد أقيمت لغرض معمارى هام ، وقد أشار إليها المقريزى فى كتابه السلوك[1] .

والطابق الثانى للباب محلى ببعض الدروع ، منها ما هو دائرى الشكل ومنها ما هو مستدير فى أعلاه فقط، مذنب الطرف فى أسفله على نمط الدروع النورمانية التى تشاهد فى قطعة نسيج بايو (Bayeux Tapestry) التاريخية . ويوجد على قمة هذا الطابق النقش الكتابى الذى يؤرخ إنشاء الباب، وهو عبارة عن شريط من الكتابة الكوفية ، ويعلوه إفريز من الحجر .

والطابق الثالث يعلو مصطبة ، يعلوها برجان منفصلان ، ارتفاع الواحد منهما ٧٫٦٥ مترا ، وفى كل برج غرفة مربعة ٣٫٨٠ × ٣٫٨٠ مترا ، يعلوها قبة غير عميقة التكور من الحجارة ، وتنهض أطراف القبة المذكورة على مثلوث كروى وتحوى كل غرفة مزاغل لرمى السهام ، وخلف كل غرفة درج يؤدى إلى المصطبة .

ومما يزيد جمال باب النصر الكورنيش المقوس والإفريز الرشيق الذى تزينه الكتابات الكوفية المزخرفة . وهذه الكرانيش تتمشى مع واجهة

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٢٦ ، ج ٢ ص ١٠ — ١٢ .

الباب ، وعلى الأوجه الداخلية للبرجين المربعين العظيمين اللذين يحيطان بالباب إلى منتصف ارتفاعه .

وداخل العقد وفوق عتبة الباب ، نقشت لوحة مستطيلة من الحجارة ، وكتب عليها بالكوفية :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لاشريك له محمد رسول الله على ولى الله » .

وتحت هذه اللوحة ، وعلى العقد المبنى فوق العتبة أضيفت هذه العبارة :

« صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما أجمعين » .

أما الكتابة المنقوشة على الإفريز ، والتى اكتشفها مستر ه . ك . كاى عام ١٨٨٢ ، والمنقوشة على وجه مدخل الباب ، فقد قرأها بشىء من التحريف:

« الله العزيز الجبار مبانى الإسلام تنشأ لمعاقل الأسوار، أنشأ هذا بابا لمدينة معزية القاهرة المحروسة حماها الله بأمر مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين أنشأ هذا » .

وتستمر الكتابة على الجانب الداخلى والأمامى للبرج الشرقى كما يأتى :

« أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإيمان كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصرى عضد الله به الدين وأمتع طول بقائه أمير المؤمنين . سنة ثمانين وأربعمائة .

وعلى البرج الغربى كتبت آية الكرسى بكاملها .

ونقشت على الحائط الغربى لباب النصر عبارة كتبت بعد بنائه ، لم يقف أحد المؤرخين على تاريخها بالضبط،وهى مكتوبة بخط النسخ ، ونحتمل كتابتها فى عصر المماليك وهى :

« بحسب ما رسم نائب السلطنة المعظمة المقر العالى سودون السيفى من عراقة الجمال ، بأن يؤخذ على كل جمل خمسة ، وملعون من يأخذ أكثر من ذلك أو يحدث مظلمة فى أيام الدولة العادلة » .

ومنصب « نائب السلطنة هذا كان يلى منصب السلطان ، لكنه بمرور

السنين ضعفت سلطته ، فلم تتجاوز شراء الطعام والوقود للقصر ، ثم ألغى ذلك المنصب أثناء حكم السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ — ١٣٩٩) وكان سودون آخر من تولى هذا المنصب ، ويمكن تحديد تاريخ الكتابة المذكورة بين ١٣٨٢ ، ١٣٩٠ م .

سور القاهرة الشمالى

يمتد الجزء الأول من سور القاهرة الشمالى نحو ٢٨ر٩١ مترا ، ابتداء من الواجهة الغربية لباب النصر إلى أن يصل إلى الواجهة الشرقية للبرج الأول . ويبلغ ارتفاع ممشى السور ١٠ر٦٩ مترا فوق العتبة الجرانيتية لباب النصر ويبلغ عرض هذا الممشى ٣ر١٤ مترا . وللجانب الخارجى للمشى دورة مسننة تخانتها ٤٨ سنتيمترا . وفى وسط الجانب الخارجى للسور مرحاض يرتكز على خمسة كوابيل من الحجارة المزخرفة . ويقوم وراء السور فى اتجاه باب النصر درج مؤلف من ٢٣ درجة ، ثم ٢٩ درجة تفصلهما بسطة ، وعرض كل درجة نحو ٤٠ سنتيمترا وارتفاعها نحو ٢٥ سنتيمتراً .

ويمتد القسم الثانى من السور الشمالى حوالى ٤٩ر٠٦ متراً، وتصل فى نهايته إلى البرج الثانى الذى يبلغ عرضه خمسة أمتار ، ويبرز حوالى ٤ر٧٠ متراً ، وهو أقل ارتفاعاً من البرج الأول . ولذلك يمر ممشى السور فوقه بعد صعود ست درجات . وفى البرج قاعة داخلية مساحتها ٢ر٣٠ × ٣ر٦٨ م٢ يغطيها سقف معقود نصف مستدير، وفى كل حائط من حيطانها الأربعة مزغل سهام . ويدخل إلى القاعة من قاعة كبيرة ذات سقف معقود أيضاً . وتمتد هذه القاعة طويلا فى داخل السور إلى برج الدرج ، إلى ما وراء باب الفتوح . وفى الحائط الخارجى للقاعة (سمكه ١ر٠٨ مترا) مزاغل سهام ، وفوقها فتحات مستطيلة للتهوية ، أبعادها ٤٤ × ٣٠ سنتى .

البرج الكبير :

إذا عدنا إلى ممشى السور ، وسرنا فى اتجاه البرج المربع الكبير الذى يبعد حوالى ٤٩ر١٣ مترا من البرج الذى انتهينا من وصفه ، وجدنا أنه ليس

برجاً بالمعنى العادى لكلمة برج ، لأنه تكون فى ظروف عارضة . فباطنه يتألف من السور الشمالى لمسجد الحاكم الذى تقوم عليه مأذنة . ولما شيد سور بدر الجمالى اتصل بالحائط الشمالى للمسجد المذكور ، وبوصول السور إليه اضطر البناء إلى أن يلتف حول اليمين بحوالى ٦ر٩١ ثم يدور إلى اليسار ليتجه بمحاذاة واجهته ، ثم يدور ثانية إلى اليسار ثم إلى اليمين ليستمر أخيراً فى الاتجاه نحو الغرب على خط لينحرف ثلاثة أمتار إلى الجنوب . وقد لف البناء حول البرج القائم حينذاك وأضاف قطعة من البناء على شكل حرف L انتهت أمام السور الغربى لمسجد الحاكم . وهذا الجزء قطعة صماء من البناء ، أما الجزء الآخر فجوف ، لأن الرواق الذى يمتد فى السور يجرى فى داخله . ويبرز البرج نحو ٦ر٩١ متراً على الجانب الشرقى ، وحوالى ٩ر٧٦ متراً على الجانب الغربى . ويبلغ امتداد واجهة البرج ٢٤ر٨٠ متراً ويقوم على مسافة ٢٥ متراً منه باب الفتوح

باب الفتوح

هذا الباب مثل باب النصر يتكون من برجين ، بينهما طريق معقود مرتد قليلا ، ثم يمر له سقف ذو عقد صليبى ومغطى بقبة غير عميقة التكور من الحجارة المنحوتة ، وهى ترتكز على مثلوثات كروية مثلثة لها درجة التقوس نفسها . وأما الأبراج فمستطيلة الشكل ولها واجهة مستديرة ، وهى ليست مقسمة من الخارج إلى طوابق . وأبعاد البرجين ٢٢ر٨٥ متراً عرضاً و ٢٢ر٣٣ متراً ارتفاعاً و٢٢ر٢٥ متراً عمقاً . والمصطبة التى تعلو المدخل نصل إليها بوساطة درج يصعد بمحاذاة الواجهة الداخلية للسور الكبير إلى الشرق ، وعرضا البرج ٧ر٥٨ متراً وبروز الأجناب المستقيمة للبرج يبلغ حوالى ٧ر٥٨ متراً من واجهة السور .

ويفضى الدرج إلى الممشى ، أمام المدخل الشرقى للمصطبة الكبرى فوق الممر ، ثم يعبر باب فى جدار سمكه نحو ٢ر٠٥ أمتار ، يؤدى إلى المصطبة من الجانب الغربى

برج الدرج الكبير

إذا غادرنا مصطبة باب الفتوح وبعد بضع خطوات بمحاذاة السور الكبير، فإننا نصل إلى برج مستطيل كبير يبلغ عرضه ٢٦٫٣٩ متراً وعمقه ٢٢ متراً وارتفاعه ١٧ متراً . وفى داخله درج جميل البناء يقوم فى ركنه الجنوبى الشرقى، ويدخل النور إليه من منافذ ، وتطل على الشرق والجنوب . وفى أعلى الصعدة الأولى من الدرج نجد بابين يفضيان إلى قاعتين كبيرتين سقفهما مقبى ، وهما يشغلان بقية البناء من الداخل ، وأبعاد القاعة الخارجية ١٨٫٥٥ × ٨٫٢٣ وارتفاعها ١٠٫٦٦ متراً إلى نقفها المعقود وفيها خمسة مداخل مهام ، وأبعاد القاعة الأخرى ١٢٫٦٥ × ٥٫٩٣ متراً يداخلها الضوء من ثلاثة منافذ .

البرج المستدير

وعلى مسافة قرابة ٥٢٫٥٠ متراً من البرج الأخير نصل إلى برج يختلف شكله عن الأبراج الأخرى ، فله مؤخرة مستطيلة الشكل — عرضه ١١٫٦٣ متراً ولها واجهة ثلاثة أرباعية الاستدارة ، ويبلغ ارتفاع هذا البرج نحو ٢٣ متراً ، وهو أصم البناء إلى مستوى ممشى السور الكبير ، ويعلو حوالى ٨٫٤٨ متراً فوق الممشى ، وفى داخل البرج قاعة مقباة نصف مستديرة عرضها ٥٫٦٩ متراً وطولها ١١٫١٦ متراً وارتفاعها ٥٫٤٥ متراً، وفيها خمس فتحات لمزاغل السهام .

باب زويلة (المتولى)

يشبه باب زويلة باب الفتوح ، ويتألف من بوابة كبيرة ، لها عقد عرضها ٤٫٨٤ متراً ، يقوم على جانبيها برجان مستطيلان ، واجهتاهما مستديرتان . ويبعد أحدهما عن الآخر مسافة ٩٫١٧ متراً وللبوابة ممر معقد ، ويعلوها قبة غير عميقة التكور ، تقوم على مثلوثات كروية . وتستند عليها المصطبة الكبيرة التى تمتد عبر الواجهة الخلفية للبرجين معاً . وهذه البلاطة تتصل بها من الجانب الجنوبى بثلاثة عقود . العقدان الخارجان منها : يتصلان بالقاعات التى توجد فى الثلث العلوى من الأبراج . أما العقد الأوسط ، فيتصل بالشرفة المقباة

فوق البوابة . وهناك مصطبة ثانية فوق الغرفتين والشرفة (Vaulted loggia) المقباة تتوجها شرفات ويتصل بها سلم ذو درج .

وهذا الباب مشيد بالحجارة الجيدة ، وأهم ما نلاحظه وجود سلسلة من الدوائر ، وهى أطراف العمد المثبتة وسط البناء لتدعيمه ، وتقويته وربطه . أما أبراج الباب فمستديرة الباب فمستديرة الشكل.

السور الجنوبى

لايزال جزء صغير من أسوار القاهرة الفاطمية فى الجنوب باقياً إلى اليوم . ويختفى هذا الجزء خلف بعض الدور فى حى الدرب الأحمر . ويمكن مشاهدة هذا الجزء إذا صعدنا على سقف مسجد الصالح طلائع أمام باب زويلة . وقد اضطر الأستاذ كريسويل عالم الآثار إلى دخول أربع أو خمس دور ليرسم تخطيطات ما تبقى من السور، فوصل إلى برج كبير تبلغ واجهته قرابة ٢٢ر٨ متراً يقع شرقى باب زويلة ، ويبرز البرج المذكور نحو الجنوب حوالى ٧٩ر٧ متراً ، وبعد مسيرة حوالى ٣٨ر١٦ متراً قابل كريسويل برجا صغيراً آخر تبلغ واجهته حوالى ٢٠ر٤ م متراً . ثم التقى ببرج آخر بعد ١٩ متراً ، واجهته ١٩ر٤ من الأمتار . وقد لاحظ الأستاذ كريسويل وجود الشرفات الحجرية فى أعلى أجزاء السور المذكورة ، ويبلغ امتداد هذا الجزء من السور حوالى ٧٥ متراً تقريبا .

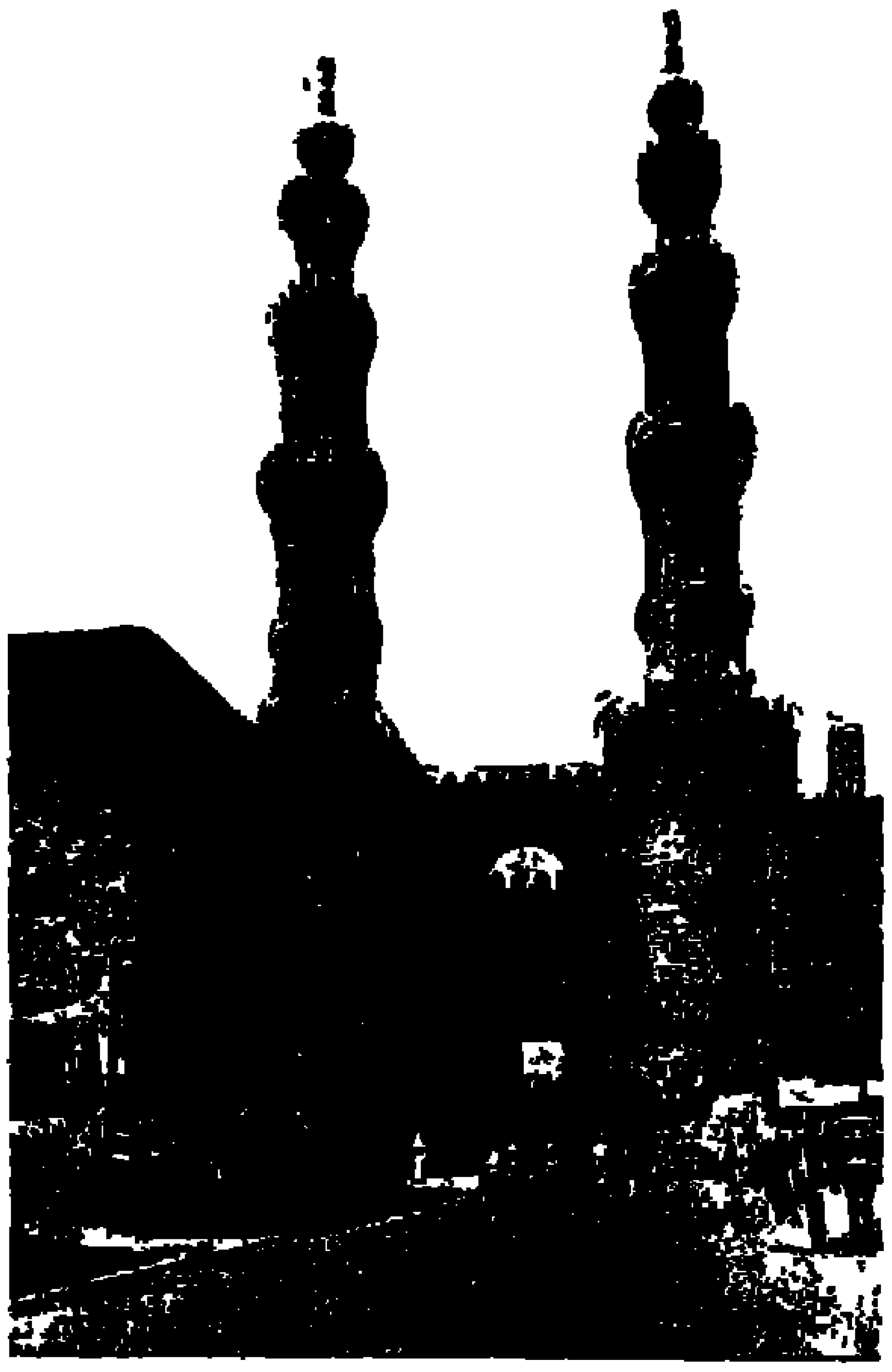

باب زويلة

الأصول المعمارية فى الأسوار الفاطمية

فى أعمال بدر الجمالى

١ — الأبراج المربعة على جانبى الأبواب[١]

لا يقابلنا فى ناحية العمارة العسكرية فى الأبواب الثلاثة والسور الفاطمى شيئاً جديداً من الأصالة. حتى إذا وصلنا إلى الأعمال التى تمت على أيام صلاح الدين لاحظنا تطورا حثيثاً فى هذا الحقل، وعلى سبيل المثال :

المدخل — الممر (entrance-passage) الذى يتصل أولا يتصل به ممرات على شكل زوايا قائمة . (entrance passage with one or more right angle turns) ان الأبراج التى تحمى جانبى الباب عرفت فى العمارة منذ آلاف السنين، كذلك الأبواب التى كانت تتخللها، ومع ذلك فقد سبقت الأبراج المربعة — الأبراج المتعددة الأضلاع وشبه المستديرة (semi circular) تلك التى توضح تقدما من ناحية النظر الاستراتيجية . والأمثلة المعمارية فى المبانى القديمة عديدة، ونلاحظها بكثرة فى حصون آشور القديمة (١٥٠٠ ق . م) ، ولم يعرف هذا الأسلوب فى مصر القديمة إلا فى قلعة سمنة الغرب التى بنيت فى أيام الأسرة الثامنة عشرة (١٦٠٠ — ١٤٠٠ ق . م) فى مصر القديمة .

ويبدو أن الانتقال من الأبراج المربعة أو المستطيلة إلى الأبراج المستديرة حدث فى أيام الامبراطورية الحيثية فى سنجرلى، حيث تقابل أسوار المعبد الخارجية التى شيدت حوالى عام ٩٠٠ ق . م لها أبراج شبه مستديرة (Semicircular) . وبعد مضى ثلاثة قرون نلاحظ الأبراج المستديرة فى الحصون الإخمينية ولا سيما فى سوسه[٢] ومع ذلك فإنه يشك فى أمرها. وإذا صح إثبات وجود هذه الخصيصة المعمارية فلا بد أنها تكون نتيجة تأثير حيثى . وقد عثر

---

(١) Square flanking towers

(٢) Dieulafoy. L'acrople de Susa, pl. II.

آندريا الآثارى المعروف فى السور الخارجى لمدينة الحضر البارثية على مثال طيب منه . وفى أيام الساسانيين (٢٢٤ — ٦٣٢ م) سارت الأبراج المستديرة هى القاعدة التى تتبع .

شاع استخدام البرج المستدير فى العمارة الرومانية بالشرق قبل استخدامه فى الغرب ، ففى الولايات الشرقية منذ أيام هادريان (٩٨ — ١١٧ م). كانت المعسكرات الرومانية الكبرى التى كانت يؤلف منها خط من المخافر الحربية تمتد من خليج العقبة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى تدمر . كانت لكلها أبراج بارزة وتكاد جميعها تكون مستديرة . مثال ذلك « اللاجون وأدرع » . وهما يرتدان فى الغالب إلى أيام هادريان (١٠٦ م) . والضمير Odruh (١٦٢ م) وقصطل (القرن السادس) . ولدينا فى مصر باب قصر الشمع فى مصر القديمة (لحصن بابليون) وقد بنى قسم منه فى أيام هادريان . وكان يستعمله الناس خلال عبورهم ومرورهم إلى أيام ابن دقماق عندما ألف كتابه فى القرن الرابع عشر[(١)] .

ولما كان مشيدو هذه الأبواب الثلاثة (النصر — الفتوح — زويلة) هم الأخوة الثلاثة الذين جاءوا من الرها ، فمن المتوقع أن تصل معهم بعض الخصائص والأساليب المعمارية من شمال سوريا وشمال الجزيرة .

ولما كان ما وصلنا من أعمال العمارة العسكرية الإسلامية التى شيدت قبل الحروب الصليبية قليلا ونادراً . فينبغى أن ندرس ماوصلنا منها بعناية تامة ، ولا سيما تلك التى نراها أمامنا اليوم[(٢)] .

---

(١) Butler : Ancient Coptic Churches. I.P.178.
: The Arab Conquest of Egypt. 243 – 4.

(٢) من أعمال العمارة العسكرية الإسلامية قبل الحملات الصليبية : قصر الحير (١١٠ هـ ٧٢٩م) والرقا (١٥٥هـ — ٧٧٢م) والاخيضر (١٥٩هـ — ٧٧٥/٧٦ م) ورباط سوسة (٢٠٦هـ — ٨٢١/٢٢م) وقصبة المريدة (٢٢٠هـ — ٨٣٥م) وأسوار سوسه (٢٤٥هـ — ٨٥٩م) . (انظر كريزويل ج ٢ ص ٧٢١ — ٢٧٣) .
انظر كريزويل : ج ٢ ص ١٩٧ — ٢٠٥ .

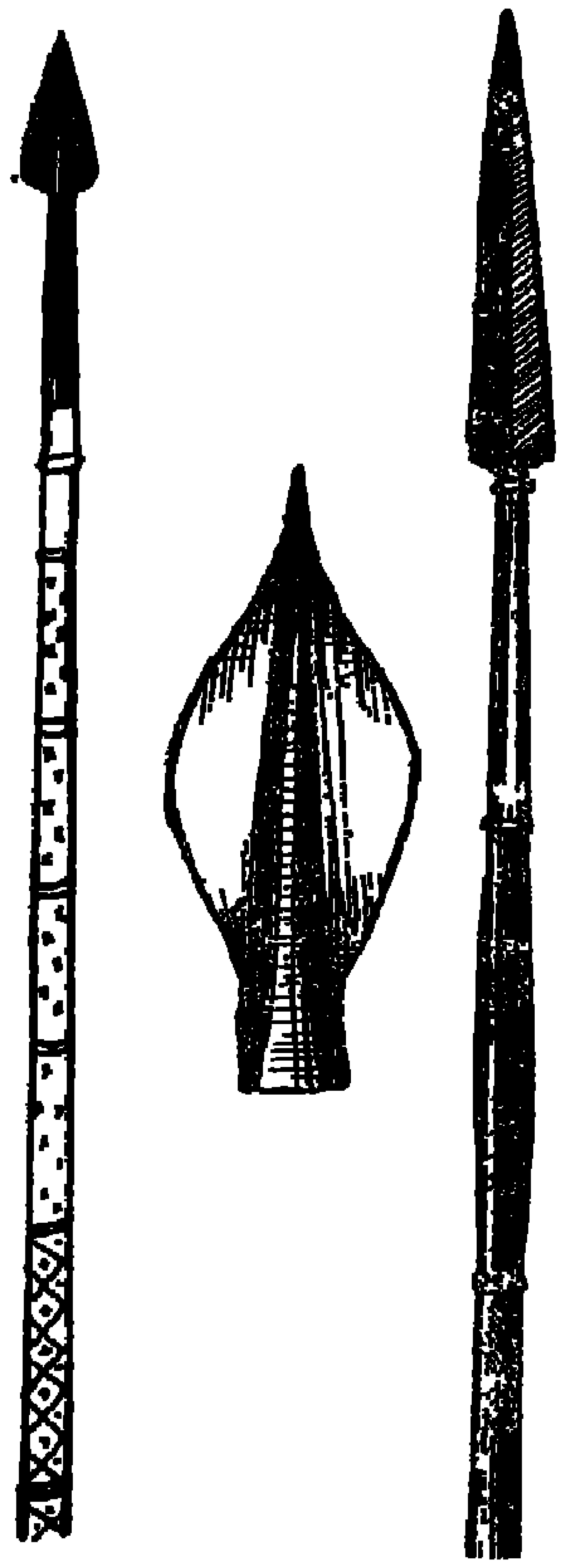

رمحان ورأس رمح

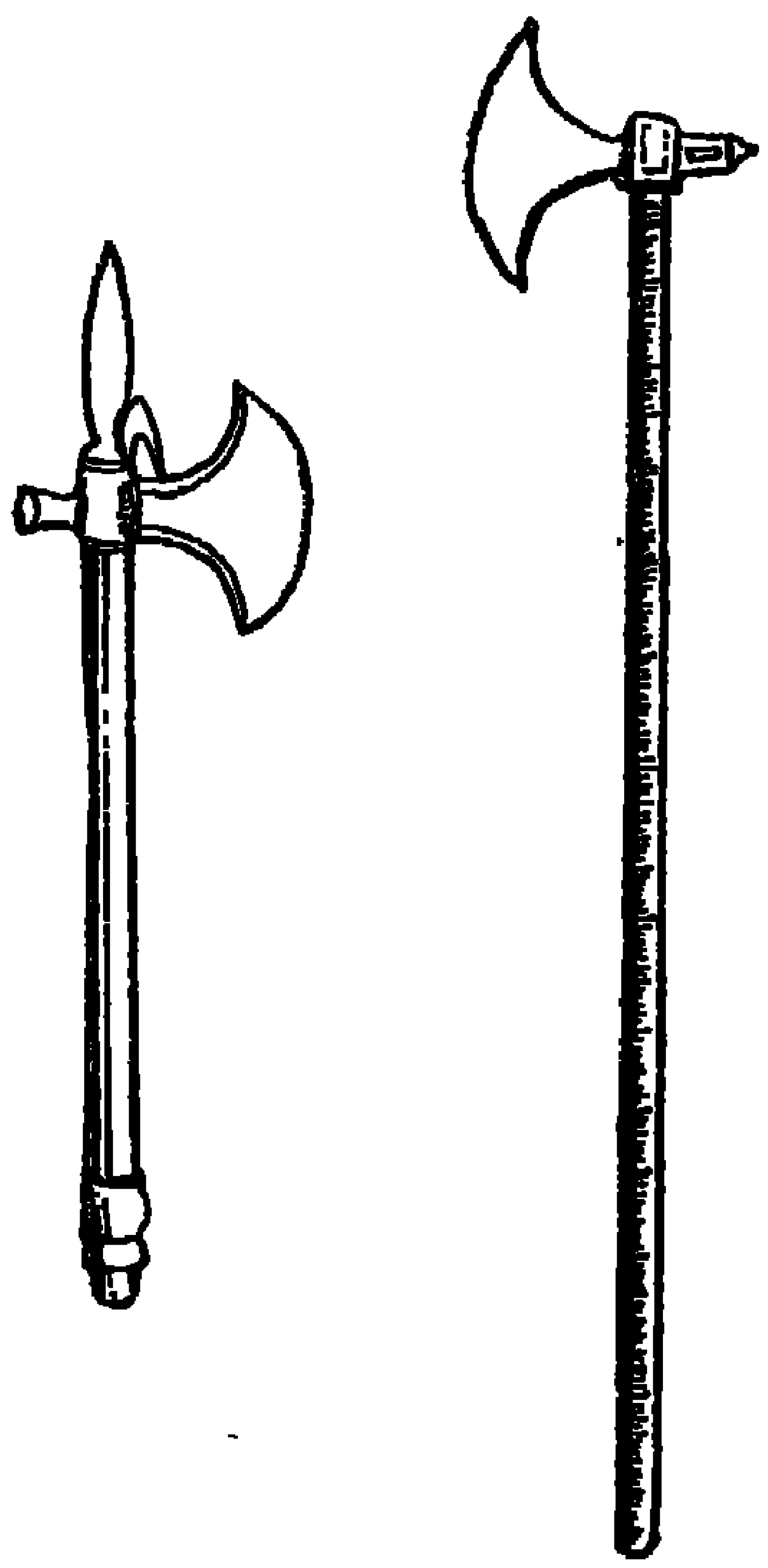

بلطتان للقتال

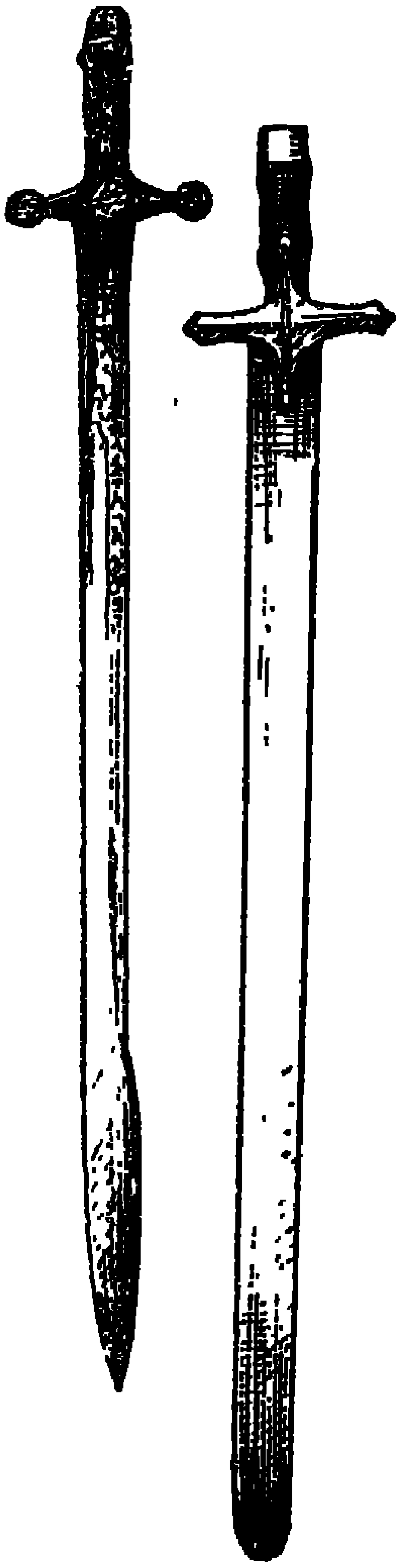

سيفان عربيان

درقة مستديرة

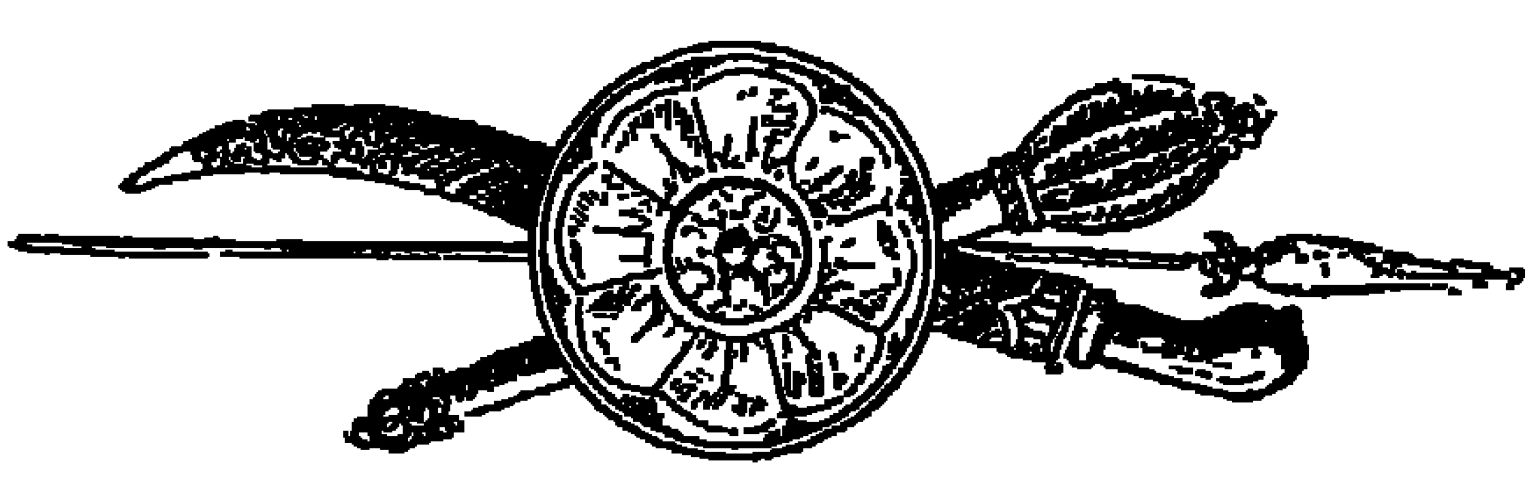

أسلحة عربية

٢ — المثلوثات الكروية المثلثة : (Srherical triangle pendentives)

كانت تلك المثلوثات التى فى كنيسة أيا صوفيا (٥٣٧ م) أقدم الأمثلة المعروفة لدينا لهذه الخصيصة المعمارية . وكان يعتقد أن تلك الخصيصة اختراع بيزنطى ، ولكن لم يعد لهذا الرأى أهمية اليوم . لأن فى عمان وجد ضريح يعرف باسم قصير النويجس، وفى حمامات مدينة جرش كما يوجد فى ضريح آخر فى سماريه عثر عليه رايزنر. ويمكن أن نضيف اليوم مثالا أقدم آخر، وهو غرفة مربعة الشكل طول ضلعها ٤٫٦٠ مترا فى حمامات البتراء، ويرجع تاريخ بنائها إلى أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثانى. وتقابلنا فى جميع تلك الأمثلة ظاهرة واحدة مشتركة وهى أن الساف (المدماك) العلوى للمثلوث قد أعد بأسلوب واحد وذلك بأن سطحيه العلوى والسفلى تجعلهما غير متوازيين ، وطرفا الطابوق (قالب الطوب) يتسعان نحو الخارج .

وتقابلنا ظاهرة المثلوث المثلث الكروى فى العمارة الإسلامية فى سوريا فى وقت مبكر . ومثال ذلك قصير عمره (حوالى ٧١٥م) ، وفى حمام الصرخ (حوالى ٧٢٥ م) ، ثم لا تقابلنا بعد ذلك فى أى مبنى خلال ثلاثة قرون وربما أكثر[١] .

وأصبح استخدام المثلوث شائعا فى أرمينية حيث كان يبنى من الحجر المنحوت فى القرن السابع . ولا يزال مثال له موجودا إلى اليوم فى كاتدرائية تاليش (Talysh) التى شيدت حوالى ٦٦٨م[٢] ، وتوجد أمثلة متتالية فى كاتدرائية تالين (٧٨٣ م) وكنيسة القديس جريجوى فى كوشة فانك التى بنيت فى (٩٨٥ م) .

وتقابلنا أخيرا تلك الظاهرة فى أبواب بدر الجمالى ، وذلك لأجل حمل القبة التى تغطى مجاز المدخل (entrance – passage) فى باب الفتوح وباب

---

(١) كريزويل : الجزء الأول ص ٢٠٧ و ص ٢٧٤ واللوحة ٥١ و ٥٢ .

(٢) Strzygowshei : Die Baukunst der Armenien 1,H. 190 – 93. واللوحة ١٤ .

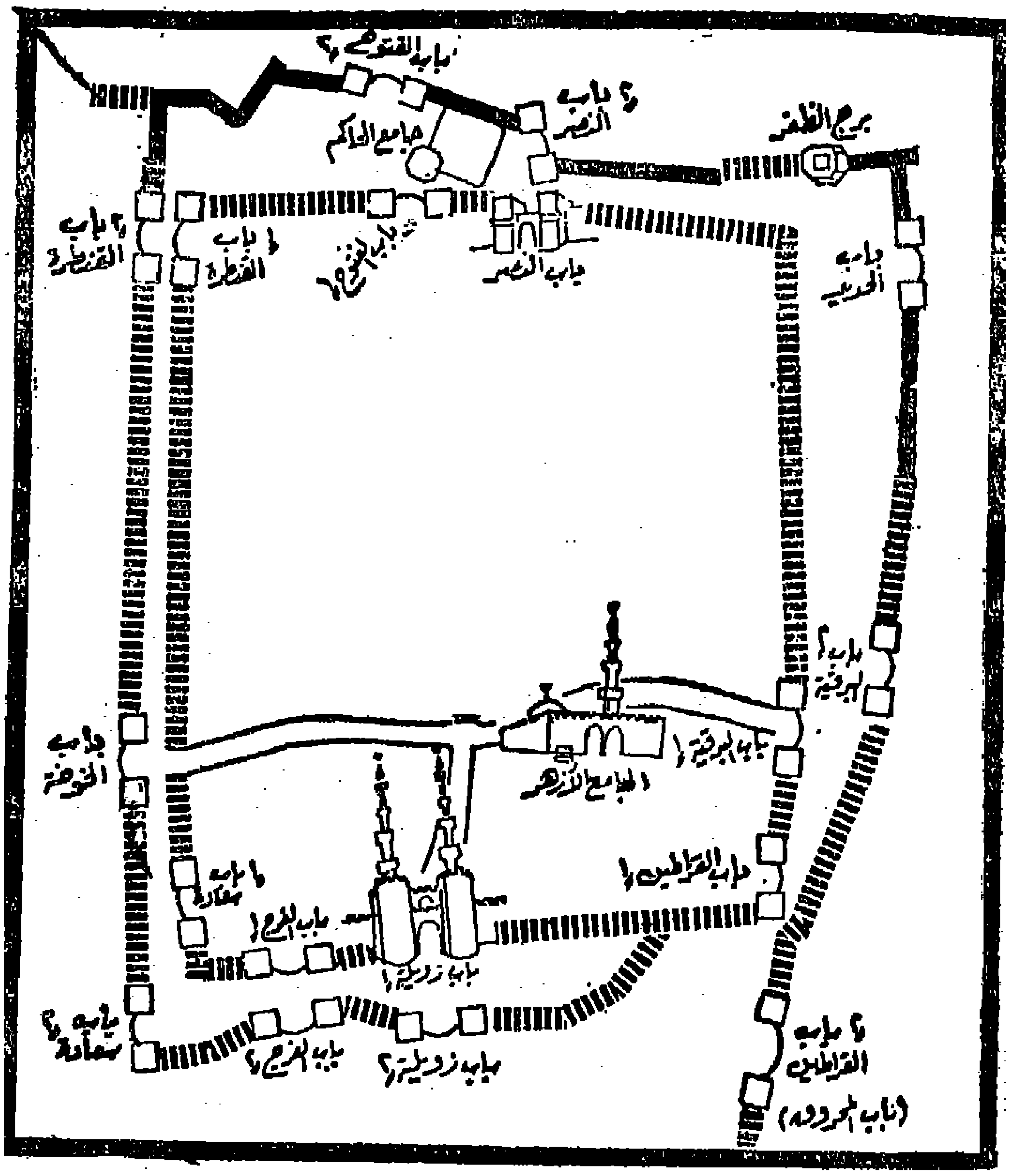

أسوار القاهرة وأبوابها فى زمن الفواطم والأيوبيين

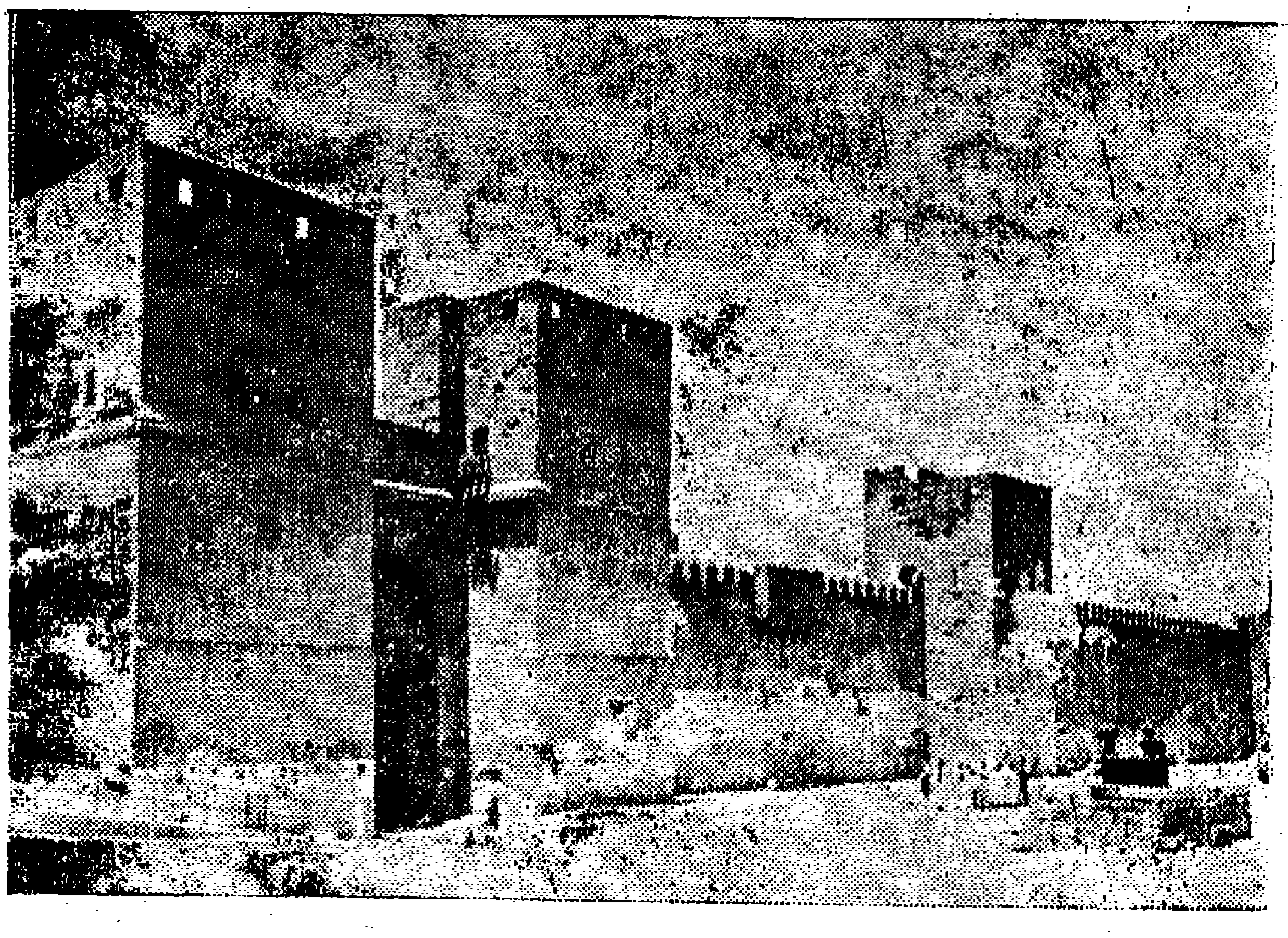

سور القاهرة وباب النصر

زويلة ، ثم القاعة التى تشغل القسم العلوى لبرجى باب النصر ، وجميع تلك القباب غير مرتفعة ولها نفس التقوس الذى للمثلوث ، وجميعها متفقة من ناحية جمال نحت الحجر . ونلاحظ أيضا أن كل قبة قد أغلقت من الوسط بحجر مستدير ، ومما نلاحظه بوضوح أن فى قبتى باب الفتوح وباب زويلة نشاهد ماقابلناه فى أمثلة المثلوث القديمة وهى أن المدماك الأخير فيه تميل جوانب طابوقه (طوبته) إلى الخارج ولا يتوازى وجها سطحيه .

يؤيد كل هذا القول بأن تلك الأبواب الثلاثة قد اشترك فى بنائها بناءون من أرمينية ، وتقابلنا هذه الظاهرة المعمارية فى مصر منذ القرن الحادى عشر إلى الفتح العثمانى فى العمائر الآتية :

١ — المسجد الأقمر (٥١٩ هـ — ١١٢٥ م) .

٢ — باب صلاح الدين فى برج الظفر (٥٧٢ هـ — ٨٩/١١٧٦—٩٣م) .

٣ — البرج التالى الذى يقع إلى شماله وفى باب المدرج بالقلعة (٥٧٩هـ — ١١٨٣/٤ م) .

٤ — مسجد بيبرس الأول (٦٦٥ — ٨ هـ / ١٢٧٦ — ٧٠ م) .

٥ — باب قصر منجق السلحدار (٧٤٧ — ٨ هـ / ١٣٤٦ — ٧ م) .

٦ — جامع وضريح برقوق وفرج (٨٠٣ — ١٣ هـ / ١٤٠٠ — ١٠م) .

٧ — مدرسة وضريح قانى باى أمير أخور (٩٠٨ هـ — ١٥٠٣ م)

٨ — جامع الغورى فى المنشية (٩٠٦ — ٢٢ هـ / ١٥٠٢ — ١٦ م) .

وتقابلنا الأمثلة الكثيرة فى عمائر العصر العثمانى فى القاهرة .

٣ — الأعمدة المستخدمة كرباط لدعم المبانى

إن أقدم ذكر لتلك الظاهرة جاء فيما كتبه المقدسى الجغرافى ، فقد قال إن جده أبو بكر البناء كان ندبه ابن طولون لبناء حاجز الأمواج فى عكاء (٢٦٤ — ٥ هـ / ٧٨٧ — ٩ م) .

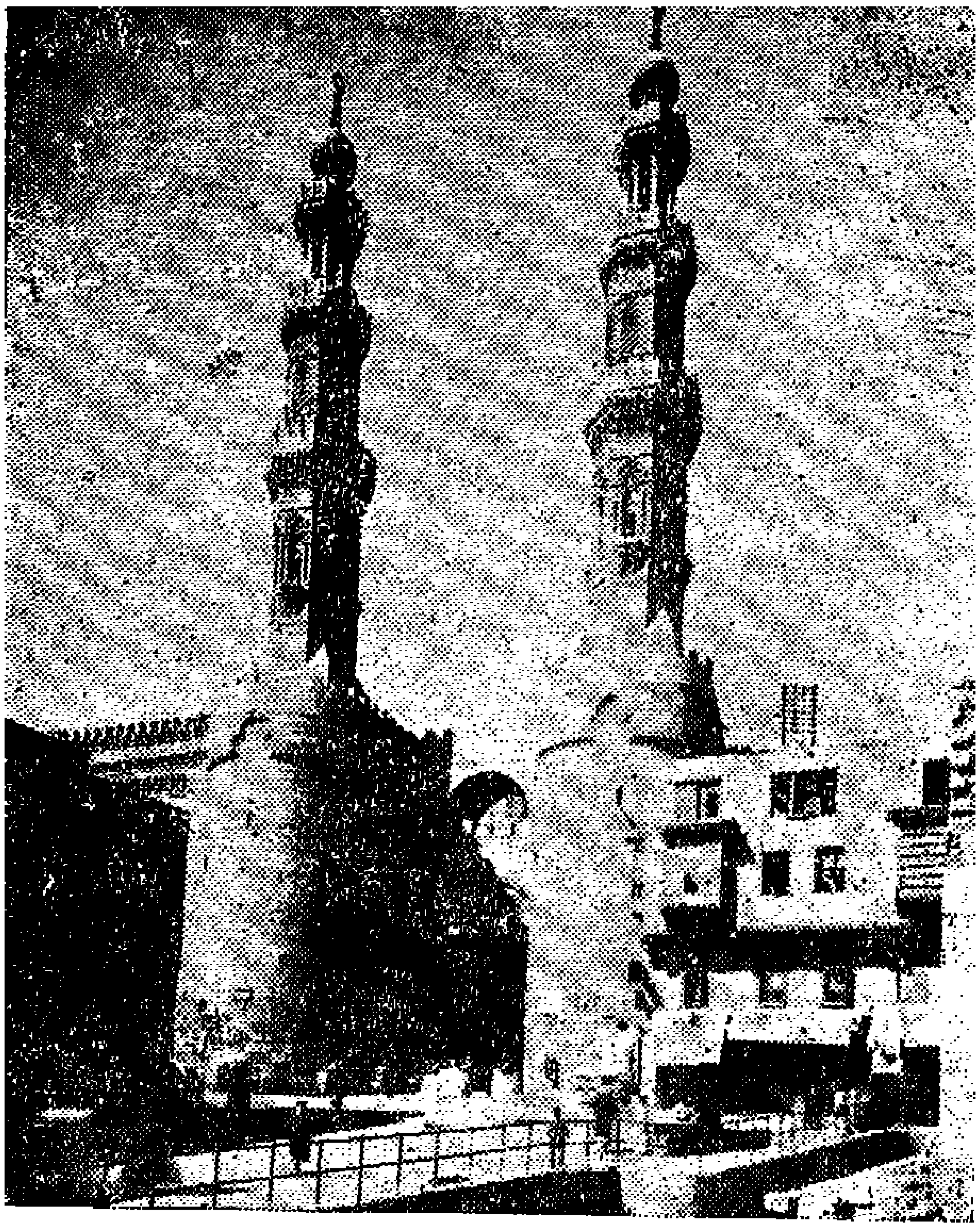

باب زويلة (المتولى) فى سور القاهرة الجنوبى

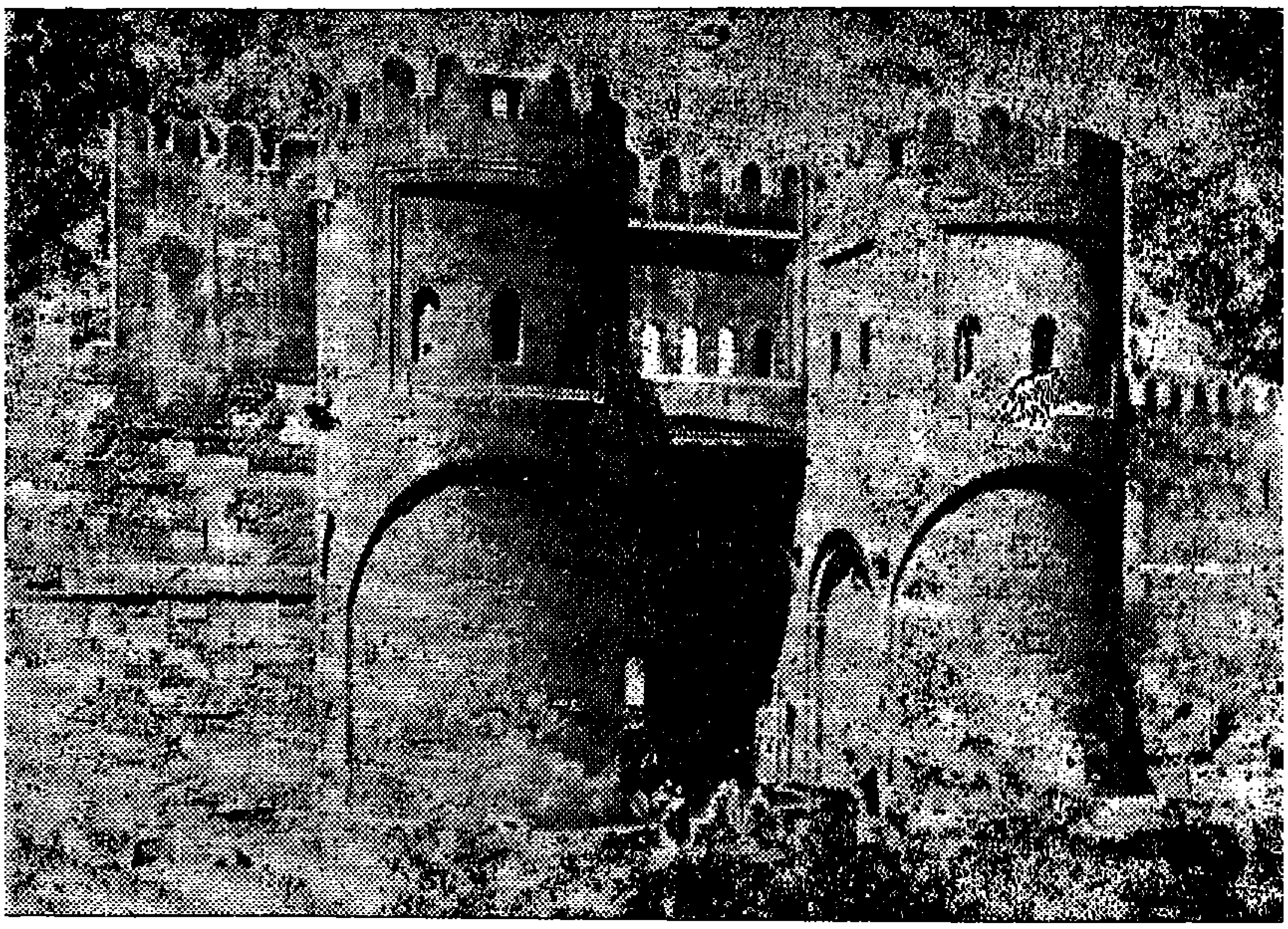

باب الفتوح فى سور القاهرة الشمالى

وأقدم مثل باق ومعروف إلى اليوم يقابلنافى قطعة من أسوار ميناء المهدية التى شيدها المهدى أول خلفاء الفواطم، وقد تم عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ — ١٨ م . ولا نعرف أمثلة أخرى لهذه الظاهرة حتى وصل الصليبيون إلى سوريا وما بعد ذلك فى ساجيت (Sajette) وعسقلان وسلمية وشيزر وجبيل وبصرى ودمشق [1] واللاذقيةوطرابلس (برج السباع) وصيذاء وبيروت . وقد استخدم أيضاً فى حلب بجامع قبقان وفى مأذنة المسجد الأبيض بالرملة (٧٨٨هـ—١٣١٨م) وفى أسوار القدس (١٦م) . كما يقابلنا فى برج بديار بكر (٦٣٤هـ—١٢٢٦/٧م) .

وتقابلنا هذه الظاهرة بعد أسوار القاهرة نادراً . مثال ذلك فى مسجد الصالح طلائع (٥٥٥ هـ — ١١٦٠م) ومسجد بيبرس (٦٦٥ – ٨هـ/ ١٢٦٧ — ٧٠ م) وربما استخدم أيضاً فى أسوار الاسكندرية قبل تخريبها .

٤ – العقد شبه المستدير : (Semi - Circular)

هذا النوع من العقود — والعقد الأفقى يعتبرا خروجا عن القاعدة المألوفة . لأنه لم يكن معروفاً ، إذا استثنينا نوافذ مسجدى الأزهر والحاكم ، ومع أنه كان قد استخدم فى سوريا قبل الإسلام ، ولكنه لم يستخدم بعد الإسلام . وهذا ما يعتقده الأثريان دى دفوجه وبتلر

استخدم العقد المدبب (pointed arch) قبيل الإسلام فى قصر ابن وردان عام ٥٦١ — ٢ م [2] وبعد انتشار الإسلام استخدم هذا النوع فى المسجد الكبير بدمشق (٨٨ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ١٥م) وفى قصير عمره (٩٣ – ٩٦هـ/ ٧١٢ – ١٥ م) وفى حمام الصرخ وفى قصر الحيروفى مشتى وفى قصر الطوبة (١٢٥ – ٦هـ/ ٧٤٣ – ٤ م) ، وفى صهريج الرملة (٧١٢ هـ — ٧٨٩ م) ثم مرت حوالى ٢٤٠ سنة تقريباً إلى أن تقابلنا العقود المدببة قليلا (Slightly - pointedarches) فى المسجد الأقصى كحوامل للقبة . وعلى العقد الشمالى تاريخ منقوش هو ٤٢٦هـ (١٠٣٥ م) .

(١) Van Berchem and Fatio : Voyage en Syrie, 1, p. 108, 179, 105, 106, 290.

(٢) كريزويل ، الجزء الأول ص ٢٧٦

ولكن العقد شبيه المستدير (Semi circular) الذى نحن بصدده كان شائعاً فى أرمينية إلى عصر بناء حصون القاهرة . ويقابلنا مثل هذا العقد فى أثر إسلامى معاصر تقريباً وهو مسجد آنى ، والتاريخ المنقوش عليه ذو القعدة ٤٦٥ هـ (يوليو ١٠٧٣ م)[١] وهكذا نرى أن استخدامه هنا هو شاهد آخر على التأثير الأرمنى .

٥ – الأعتاب المنحوتة من كتلة واحدة أو العقود المنحوتة من الحجر

هذه الحقيقة شائعة كثيراً فى مبانى تلك الحصون القاهرية ، وهى من الأعتاب المستخدمة بوفرة فى العمارة المسيحية فى شمال سوريا ، وقد أمدنا بتلر الأثرى بأمثلة كثيرة فى كتابه « العمارة وفنون أخرى » عن مبان شيدت فى القرن الرابع الميلادى[١] ولمبان أخرى شيدت فى القرن الخامس (مشبك وسرجبله)، ولمبان أخرى شيدت فى أثناء القرن السادس فى خربة حسين ودار كيتا ، ولدينا مثال لمبنى مسيحى شيد فى القرن السابع فى كنيسة القديس سرجيوس وتاريخه ٦٠٩ / ١٠ م[٣]

٦ – الأحجار المعشقه – المتداخلة : (Joggled voussoirs)

مع أن هذه الخصيصة لم تستخدم بكثرة ، فقد عرفت فى عصر الإمبراطورية الرومانية من قرطبة إلى حدود الفرات[٤]

٧ – تقاطع العقود المقباة المرتفعة

يتضح هذا الأسلوب المعمارى فى بج الدرج الكبير ، وفى الدرج الموصل إلى مسطبة باب النصر ، وفى درج صغير آخر يصل من نفس المصطبة وممشى السور ، وقد دخل هذا الأسلوب إلى سوريا من بيزنطية فى القرن السادس ، حينما يقابلنا فى قصر ابن وردان

(١) Diez : Die Kunst der Islamischen Volker p. H4. Wiet Repertoired' Epigraphie arabe VII, p. 189.
(٢) Butler : Architecture and other Arts
(٣) Butler : Ancient Architecture in Syria, part 1. Northern Syria, 111, 179
(٤) Creswell : vol. 1. p. 343 – 345

٨ — وسادة العقود المعشقة فى باب الفتوح (Cushion Vouassior)

هذه الخصيصة من أقدم الأمثلة المعروفة فى مصر ويجىء بعدها خمسة نماذج أخرى فى سوريا ، ثم نلاحظ أنها لا تتكرر فيما بعد فى مصر ثانية لمدة قرنين ، ثم تظهر أربعة أمثلة فى العهد الذى قوى فيه التأثير السورى ، ويعتقد الأستاذ كريزويل أن وسادة العقود المعشقة التى فى باب الفتوح ، وفى كنيسة القيامة بالقدس ، (وهذه أقدم الأمثلة فى سوريا) كلاهما مقتبس من أمثلة سورية سابقة .

ونوضح فيما يلى بعض الأمثلة السورية :

١ — كنيسة سنت أن فى القدس (حوالى ١١٣٠ م) .

٢ — كنيسة القيامة (المدخل الرئيسى والمدخل الغربى ربما تم تشييدها حوالى عام ١١٤٩ م)

٣ — معمدانية كنيسة جبيل فى خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر .

٤ — مأذنة المسجد الأبيض فى الرملة ٧١٨هـ — ١٣١٨ م .. الخ .

أما الأمثلة الرابعة الأولى فى مصر التى تجىء بعد باب الفتوح فهى :

١ — المدخل الرئيسى لمسجد الظاهر بيبرس .

٢ — مأذنة ضريح السلطان قلاوون (٦٨٣ — ٤ هـ / ١٢٨٤ — ٥) .

٣ — مأذنة مدرسة سالار وسنجر الجاولى بالقاهرة .

٤ — خانقاه السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٦ — ٩ هـ / ١٣٠٦ — ٩م) .

٥ — ضريح على بدر القراف (حوالى ٧٠٠ — ١٠هـ / ١٣٠٠ — ١٠):الخ .

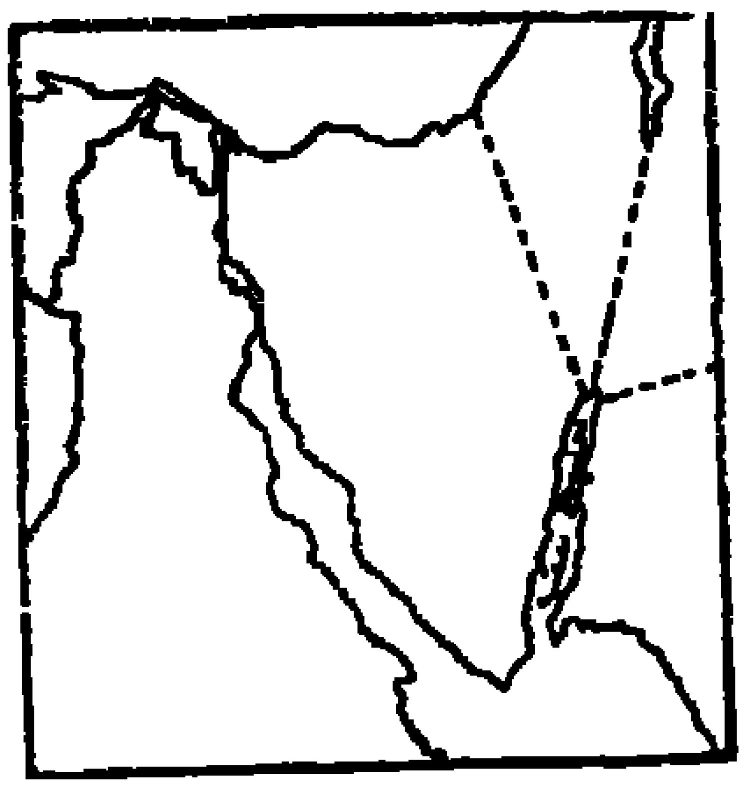

أرض المعارك

معارك الجيش الفاطمى

كان للفاطميين أعداء كثيرون منذ قدموا إلى مصر : من هؤلاء البيزنطيون ، والقرامطة ، والسلاجقة ، والصليبيون ، أضف إلى هؤلاء أهل العراق . وقد بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميين منذ استولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق .

(١) القرامطة(١)

طالب الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الملقب بالأعصم الذى ولى أمارة القرامطة سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٦٩ بالإتاوة التى كان يدفعها الأخشيديون لحكومته لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الإتاوة ومن ثم أعد جيشاً واتجه إلى دمشق سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ ليقضى على نفوذ الفواطم فى الشام . أما جعفر فإنه بعث فى طلب الحملة التى كان أرسلها إلى أنطاكية لإجلاء الروم (البيزنطيون) عنها ، وسرعان ما اشتبكت قوات القرامطة بقوات الفواطم فى ناحية الدكة على مقربة من دمشق حيث نشبت معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة جعفر وقتله وكثير من أتباعه سنة ٩٧٠ م وبذلك استولى الحسن القرامطى على دمشق . وترجع هذه الهزيمة إلى عدم استعداد جعفر لملاقاة خصمه الأقوى منه ولعدم اتصاله بالقائد جوهر فى مصر لنجدته ولمعاونته فى توطيد الحكم الفاطمى بالشام .

رحب الشاميون بالقرامطة وذلك لأنهم كانوا من السنيين المتطرفين فى عدائهم للشيعة والعلويين . وأدرك الحسن بن أحمد أنه من المناسب أن يسير إلى الرملة ليقضى على ما بقى للفواطم من سلطان بالبلاد الشامية ، فاستولى عليها بسهولة لفرار حاكمها إلى يافا ، وسرعان ما استولى على كثير من مدن الشام

---

(١) أصحاب دعوة انتشرت فى بعض البلاد الإسلامية عام ٩٠١ م بزعامة أحد الاسماعيليين ،زعزعت العالم الاسلامى ثم انتهى أمرها حينما اصطدمت بالحملات الصليبية واستقرت الدعوة باليمن وقتاً قصيراً ومع ذلك فقد استقرت مبادئها فى بعض أنحائها إلى وقت قريب

وأصبح فتح مصر ميسوراً ، فزحف جيشه إليها فى أواخر سنة ٣٦٠/٩٧٠. فهاجم مدينة القلزم ودخلها وأسروا حاميتها ولم يلبث أن تابع سيره فى الأراضى المصرية فى أوائل سنة ٣٦١/٩٧١ فاستولى على عين شمس ثم تقدم إلى القاهرة[1]

استعد القائد جوهر لصد زحف القرامطة فأعد جيشاً قوامه المغاربة والمصريون، كما خصّ القاهرة بخندق حفره أهلها (الخطط، ج ٢ ص ١٣٧-١٣٨). فلما هدد القرامطة هذه المدينة فى ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ (٩٧١م) ، أبدى الجنود المصريون شجاعة فائقة ، فصمدوا ودافعوا بحرارة ، ومن ثم تقهقر الحسن ابن أحمد بجنده ورحل إلى الإحساء بعد أن قبض جوهر على كثير من الأسرى.

انتهز جوهر الصقلى فرصة انسحاب القرامطة فأنفذ جيشاً إلى يافا فتمكن من إعادتها إلى الفواطم ، على أن الحسن بن أحمد ما لبث أن وجه اهتمامه إلى استرداد نفوذه ببلاد الشام ، ثم أخذ فى التأهب للسير ثانية إلى مصر ، فأعد حملة بحرية أرسلها إلى تنيس وسواحل مصر ، كما أعد جيشاً ضم إليه عدداً كبيراً من العرب (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٥٠) .

ولما وصل المعز لدين الله الفاطمى من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ واتخذ القاهرة قاعدة لخلافته ، وجه عنايته إلى مناهضة نفود القرامطة حتى يتيسر له توطيد أركان دولته فى مصر والشام ولجأ إلى الأساليب السياسية والتهديد ، لكنها لم تفلح مع الحسن بن أحمد .. الذى استمال إليه العباسيين وأمدوه بالعون .

زحف الزعيم القرمطى إلى مصر سنه ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) وتوغلت جنوده فى أراضى مصر كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة وعسكرت بالقرب من السور الشرقى والخندق الذى حفره القائد جوهر ولما علم المعز بنبأ وصوله هاله كثرة قواته ، فأشار عليه نصحاؤه بالسعى فى تفريق كلمتهم ، فعمد إلى استمالة حسان بن الجراح الطائى رئيس جند العرب الذين يعدون أقوى عناصر جيش الحسن بن أحمد ، واتفق معه على أن يدفع إليه مائة ألف دينار

---

(١) د . محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٢٣ — ١٣٤ ، القاهرة ١٩٦٧ .

على أن يتظاهر بالهزيمة أمام جند الفواطم . وكان هذا المبلغ كافياً لحمل بنى طيء على الإنصراف عن حليفهم الحسن بن أحمد . فلما نشب القتال بين الفريقين تقهقر حسان بن الجراح أمام قوات المعز ؛ فأدى ذلك إلى هزيمة الحسن بن أحمد وارتداده إلى الشام وأسر الفواطم نحو ١٥٠٠ من القرامطة .(١)

أدرك المعز رغم نجاحه فى صد هجمات القرامطة عن مصر أن ينفذ حملة بقيادة أبى محمود بن جعفر بن فلاح لمطاردة جيش القرامطة فى الشام حتى لا يجىء ثانية ، فلحقت بهم فى أطراف الشام (أذرعات) . أما الحسن فإنه بعد أن وصل إلى دمشق ، ترك أحد رجاله والياً عليها ورحل مع بعض رجاله إلى الإحساء واستطاع المعز بعد ذلك بدهائه وحسن سياسته أن يستعيد سلطان الفاطميين على بلاد الشام (٢) ومع ذلك فقد ظل الحكم الفاطمى فيها ضعيفاً ، مما مهد السبيل إلى دخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين (٣) بلاد الشام واستقرارهم بها وبذلك واجه الفواطم عنصراً جديداً فى مقاومة نفوذهم فى هذه البلاد .

(٢) الفاطميون والبيزنطيون :

واجه الفواطم منذ وطأت أقدامهم بلاد الشام صعوبات كثيرة من ناحية البيزنطيين ، فقد أخذ هؤلاء يهددون حدود سورية الشمالية بغاراتهم المتتالية . فزحفت قواتهم إلى أنطاكية سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩) ثم دخلوا حلب ، وأرغموا حاكمها على عقد صلح معهم . بيد أن القائد جعفر بن فلاح نجح فى استعادة بعض المدن من البيزنطيين، لكنه لم يوفق فى استعادة أنطاكية لإنشغال الفواطم بصد القرامطة والقضاء على ما بقى لهم من نفوذ فى الشام . وفى عام ٩٧٥م تقدم الامبراطور حنا زمسكيس من أنطاكية إلى حمص فبعلبك ، واضطرت دمشق إلى التسليم

---

(١) د . م جمال الدين سرور : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣١

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ، ص ٩٠ .

(٣) بدأ أفتكين عهده فى خدمة معز الدولة أحمد بن بويه وما زال يترقى فى المناصب حتى ولى قيادة جند الأتراك فى بغداد فى أيام عز الدولة بختيار أميربنى بويه بالعراق (٣٥٦ — ٣٦٣ هـ)

ودفع الجزية له ، كما سلمت له طبرية وقيسارية وبيروت وصيداء . ولما حاول الاستيلاء على طرابلس أوقعت حامية المدينة بمعاونة أسطول فاطمى الهزيمة بقواته ثم عادت جيوش بيزنطية إلى أنطاكية وعاد الإمبراطور إلى القسطنطينية حيث توفى (٩٧٦) .

استمر النزاع قائما بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية حتى عام ٩٨٧م حينما طلب الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦—١٠٢٥م) عقد الصلح بين الدولتين فاشترط الخليفة العزيز عدة شروط ، ومع ذلك فلم يكن للهدنة التى ارتبط بها الطرفان أى أثر فى وقف تيار الحرب الفاطميين والبيزنطيين . فالتقت قواهما على ضفاف نهر العاصى ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين (٣١ هـ - ٩٩١ م)، ثم عاد القائد الفاطمى منجو تكين إلى دمشق لنفاذ الأقوات . ومن ثم أرسلت اليه المؤن وأمر بأن يفتح حلب .

فلما رأى باسيل الثانى الخطر الذى يهدد بلاده ، عول على السير إلى حلب فاستولى على حصن شيزر ثم فتح حمص وأخذ يتابع سيره حتى وصل طرابلس، ولما تعذر عليه فتحها عاد إلى القسطنطينية سنة ٣٥٨ هـ (٩٩٥م) بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام . ثم فشلت استعدادات الفاطميين البحرية والبرية لاستعادة نفوذهم فى الشام وتوفى الخليفة العزيز بالله (٣٨٦ هـ ٩٩٦م) .

وفى أيام الحاكم بأمر الله ؛ أرسل برجوان الذى كان يلى إذ ذاك الوصاية على هذا الخليفة ، حملة كبيرة بقيادة جيش بن الصمصامة الكتامى، كما أرسل بعض سفن الأسطول المصرى إلى مياه صور . فحوصرت المدينة من البر والبحر ونشبت بين الفريقين معارك شديدة إنتهى الأمر فيها بسقوط صور فى أيدى القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين وحليفهم الأمير علاقة الذى أرسل إلى القاهرة حيث قتل ، وواصل جيش ابن الصمصامة سيره إلى أفاميا ، وهناك التقى بالبيزنطيين فتغلب عليهم وأخذ يطاردهم حتى أبواب أنطاكية ، وفى أعقاب تلك الحوادث تم إبرام هدنة فمعاهدة صداقة بين مصر والدولة البيزنطية ولكن سرعان ما قطعت العلاقة مرة أخرى بين الدولتين .

ولم يلبث البيزنطيون أن نقضوا هذا الصلح بعد أربع سنوات (٤٢٢ هـ / ١٠٣١م) وانضموا إلى بعض أمراء العرب بالشام الذين كانوا يعادون الفواطم، واستطاع هؤلاء أن يستولوا على قلعة الرملة ويأسروا كثيراً من أهلها .

تحسنت العلاقات بين الفواطم والبيزنطيين فى أوائل أيام المستنصر بالله واستمرت بعض الأعوام فانتعشت الأحوال الاقتصادية فى مصر . ولما تولت الحكم الامبراطورة تيودورا ساءت العلاقة ثانية وعول الخليفة المستنصر على محاربتها . فجهز حملة تحت قيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، وما لبث هذا القائد أن نزل بالقرب من أفاميا ثم تجول فى أعمال أنطاكية ، فأنفذت الامبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة وأسرهو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥ م) وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضى أبى عبد الله القضاعى بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين ، فلم تحفل الامبراطورة بوجوده ، على حين رحبت برسول السلطان طغرلبك السلجوقى(١) .

وفى أعقاب ذلك ازداد التوتر بين الفواطم والبيزنطيين وعاد العداء سيرته الأولى ، وظل كذلك حتى وجه الصليبيون حملاتهم إلى الشام ، وأسسوا بها أمارتى أنطاكية وبيت المقدس ، وصاروا يشتبكون من وقت لآخر فى معارك مع القوى الإسلامية بتلك البلاد وبخاصة فى أيام نور الدين محمود أمير حلب .

ولما أخذت الأخطار تواجه الفرنج ببيت المقدس من جراء ازدياد نفوذ نور الدين محمود بالشام وطموحه إلى بسط نفوذه على مصر ، بعث أمورى ملك بيت المقدس يستنجد بملوك أوروبا لوقف الخطر الذى يهدد الإمارات اللاتينية بالشام ، لكنهم شغلوا عنه . ولذلك لم ير بداً من الاستعانة بالامبراطور البيزنطى مانويل الذى رحب بمعاونته واتفق معه على المسير بحرا إلى مصر ، وأنفذ إليه أسطولا يعاونه حملة من الفرسان والمشاة مزودة بالمؤن والعتاد(٢) .

وتوجهت هذه الحملة إلى دمياط حيث أحاطت بها براً وبحراً فى صفر سنة ٥٦٥هـ

---

(١) د . محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق . ص ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٨٢ — ٨٤

(١١٦٩ م) ، وكان الامبراطور البيزنطى يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى التوسع ، فتصبح مصر من بين الأقطار الواقعة فى محيط نفوذه . فلما بلغ صلاح الدين وزير الخليفة الفاطمى العاضد بالله وكان بمصر مسير قوات الفرنج والبيزنطيين إلى دمياط ، عول على النهوض لصدها ، فأرسل جنده عن طريق النيل وبعث إلى نور الدين يطلب الامداد ، فأجاب طلبه ، كما حرص الخليفة على مده بالمال .

ظل الصليبيون والبيزنطيون يحاصرون دمياط حوالى خمسين يوما ولم يقدموا على التوغل فى داخل البلاد المصرية ، وأخيرا قرروا العودة بجيوشهم إلى بلادهم، بسبب ما بلغهم عن شروع نور الدين محمود فى الإغارة على الإمارات اللاتينية بالشام ، فضلا عن وقوع خلاف بين قادتهم ، وبذلك عجزت الحملة الصليبية الأولى التى عاونها البيزنطيون عن تحقيق أطماعها فى مصر .

(٣) الفاطميون والصليبيون

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على نشر نفوذهم فى الشام إلى عدم استقرار الأمور فى هذه البلاد وضعف الجبهة الإسلامية أمام الغزو الصليبى ، فقد زحف الصليبيون على أنطاكية بقيادة بوهيمند النورمندى فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ورأوا أن يستغلوا الفرقة بين الأمراء المسلمين فى الشام ، فأرسلوا إلى أميرى حلب ودمشق يطلبون منهما عدم التعرض لهم ، كما ادعوا بأنهم لا يقصدون غير البلاد التى كانت بيد البيزنطيين ولما وقف رضوان أمير حلب على رغبة الصليبيين فى إثارة النزاع بين القوى الإسلامية لتيسر لهم تحقيق هدفهم ، سارع إلى نجدة أمير أنطاكية وانضم إليه سقمان بن أرتق وقوات من شيزر (شمال حماة) وحماه وحمص . غير أن المحاولات التى بذلها أمراء المسلمين بالشام لإنقاذ أنطاكية فشلت وسقطت المدينة الهامة فى يد الصليبيين سنة ٤٩١ هـ (٣ يونيو ١٠٩٨) ولما وصل إلى الحكومة الفاطمية فى القاهرة نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية رأت أن تبذل

جهدها لمنع زحفهم على القدس ، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨) ، سفارة إلى الصليبيين للتفاوض معهم فى عقد اتفاق يتضمن أن ينفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية فى أداء شعائرهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وإلا يدخلوها بسيوفهم .

لم تنجح هذه السفارة وكان من أثرها أن وقف الصليبيون على مدى الخلاف السائد بين الفواطم والسلاجقة بالشام . ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على انطاكية على إرسال حملة لفتح القدس . وقد استولى الصليبيون فى أثناء سيرهم إلى هذه المدينة على معرة النعمان كما عمل أمير شيزر على تأمين طريقهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه درءاً لخطرهم[1] .

بيت المقدس

كان القدس فى الوقت الذى تقدم فيه الصليبيون لمهاجمتها خاضعا للفواطم وعلى حكمها نائب من قبلهم يدعى افتخار الدولة . وفى يوم الثلاثاء ٧ مايو ١٠٩٩ بلغ جودفرى الصليبى المدينة المقدسة فاشتدت عزائم رجاله . لقد فوجىء افتخار الدولة بتقدم جموع الصليبيين وأدرك ضعفه عن مقاومتها وأخرج النصارى من المدينة وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان .

أما الصليبيون فقد قسموا أنفسهم أقساما حتى يكون حصارهم للمدينة من جميع منافذها[2] فلا يتمكنون المسلمون من الاتصال بالخارج، وشرعوا فى الهجوم على القسم الجنوبى من القدس، فانهارت الأسوار الأولى أمام هجومهم العنيف ولكنهم قاسوا كثيراً من نقص الذخيرة وقلة الماء وحرارة الطقس وشدة المحصورين فى دفاعهم عن بلدهم المقدسة . وأدرك الصليبيون أنهم يواجهون خصما يرى أن فى فقد بيت المقدس فقدانا لهيبته السياسية وانتهاكا لحرماته

---

(١) د . محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية . ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٢) د . حسن حبشى : نور الدين والصليبيون . ص ١٣٥ — ١٣٩

الدينية ، ومن أجل ذلك قرروا بناء آلات الحصار والقتال ونصبوا الأبراج وأسندوها إلى السور ، وتشاء ظروفهم الحسنة ، أنه وصل إلى ثغر يافا يوم ١٧ يونيو ١٠٩٩ بعض أساطيل جنوية حملت إلى الهاجمين ماهم فى حاجة إليه من الذخيرة والأخشاب والعمال .

وفى مساء الأربعاء ١٣ يونيو ١٠٩٩ (٤٩٢ هـ) ، شرع الصليبيون فى الهجوم ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعا قويا رغم استعداداتهم وأخذ المدافعون يرمونهم بالنار الإغريقية حتى إذا كان صبح الجمعة بلغ القتال ذروته . واستمر القتال عنيفاً على هذا المنوال بضع ساعات ، انفلت بعدها جودفرى دى بويون بجماعة من الفدائيين استطاعوا أن يجدوا لهم منفذا من ناحية لم يهتم المسلمون بتحصينها فدخلوا منها ، وفتحوا أبوابها للفرنج الذين اندفعوا كالسيل ، فالتفت المسلمون إلى الوراء وإذا بهم يرون أنفسهم وقد احدق المغير بهم من كل جانب ، فلم يجدوا وسيلة إلا الالتجاء إلى الحرم الشريف والمسجد الأقصى ليعتصموا بها . فتعقبهم الصليبيون بقيادة تانكريد وجود فرى ووضعوا السيوف فيهم ، وسالت الدماء حتى خاضوا فيها إلى ركبهم مما أخذ على الفرنج فيما بعد . واستحال المسجد الأقصى إلى بركة من الدماء[١] ورن صدى هذا الحادث البشع ، وقامت من دمشق إلى بغداد وفادة برياسة زين الدين أبى سعد الهروى مستغيثة بالخليفة العباسى والسلطان السلجوقى . ولم تجد هذه الصرخات صدى ، وقنع المسلمون بالتحسر . ولم يلبث أن استسلم افتخار الدولة لكونت تولوز بعد أن أمن جماعته على أنفسهم ، وتعهدوا له بالمضى إلى مصر . وبهذا الاستسلام فى بيت المقدس بدأ صراع استمر سنوات طويلة حتى وجد القائد الملهم فى شخص السلطان الناصر صلاح الدين فاسترد المدينة المقدسة .

---

(١) ذكر ابن الاثير (جـ ١٠ ص ١٩٤) أن عد الضحايا بلغ قرابة ٧٠٠٠٠ وقدره مصدر أرمنى (ماثيو الاديس ص ٢٢٦) بـ ٦٥٠٠٠ ويذكر وليم الصورى (جـ١ ص ٣٧٠ — ٧٢) أن النظر كان يقع على أكوام من الرؤوس والأيدى والأقدام فى الطرق وفى الميادين العامة .

نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالأولى واحتلال القدس

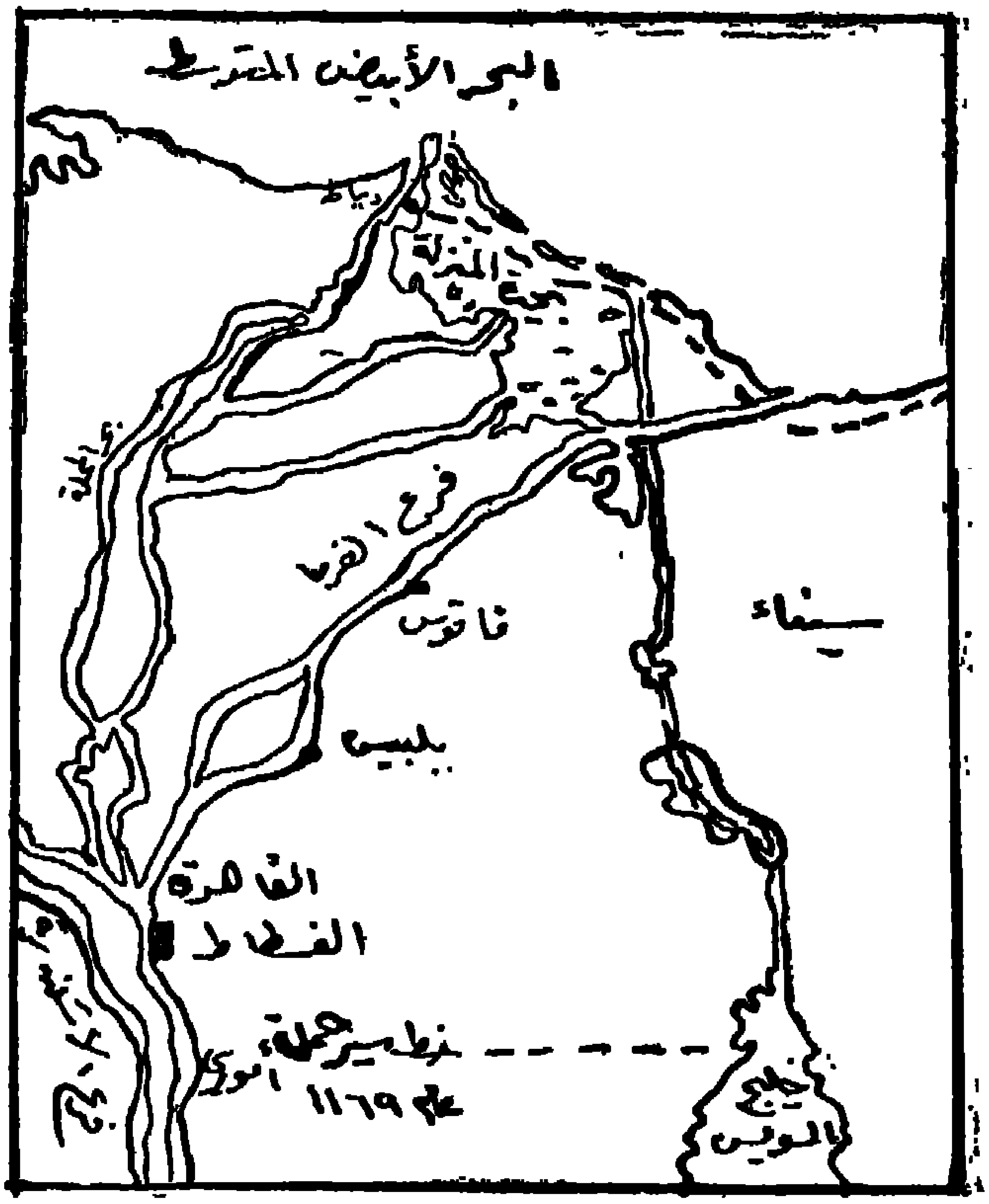

حملتا نور الدين والصليبيين فى مصر سنة ١١٦٤ م

أمام هذه الخسارة الفادحة ، تحركت قوات مصر (أغسطس ١٠٩٩)، ولم يخف التحرك عن سمع الصليبيين، فتردد صداه فى القدس وسمع به جودفروى، وسرعان ما استدعى الإمداد من نابلس، وكان المصريون قد وصلوا إلى عسقلان على البحر.

معركة عسقلان (١٢ أغسطس ١٠٩٩)

تجمعت قوات الصليبيين فى قلعة «يبنا» (ابلين) ثم اتجهت جنوبا قاصدة عسقلان، ولم يكن لدى القوات المصرية بقيادة الأفضل معلومات بتحرك الصليبيين ، ولم تكن كذلك تتوقع زحفها بمثل هـذه السرعة ، فلا عجب إذا هى فوجئت ولم تجد الوقت الكافى للمبادرة ، وانتهز الصليبيون الفرصة ، فلم يدعوا لها زمناً للتأهب، وكركونت فلاندر على حامل العلم المصرى فقتله ، وانطلق فى إثره الصليبيون فدخلوا المعسكر الفاطمى ونهبوه وتمت الهزيمة وهرب الأفضل فى خواصه إلى مصر . أما البقيـة فهرب بعضها إلى أحد الأحراش فأضرم الصليبيون فيها النار فأتت عليها وعلى من بها . وأصبح ميسراً للصليبيين التقدم إلى حيث أرادوا ، ولكن القدر لم يمهل جود فروى ، فما لبث أن مات سنة ١١٠٠م ، وتولى مكانه أخوه بلدوين . وبهذا تهيأ لمدينة بيت المقدس أن تشغل فى العالم المسيحى الشرقى مكانه الرياسة الدينية والسياسية فى حين اهتز الشرق الإسلامى هزة عنيفة لم يتخلص من أثرها حتى ظهر صلاح الدين بن أيوب على المسرح السيامى والعسكرى .

ونشبت بعد ذلك عدة معارك ظفر فيها الصليبيون على الفواطم ، نذكر منها:

معركة قيسارية	١٧ مايو ١١٠١
« الرملة	٧ سبتمبر ١١٠١
« جبيل	٢٣ أبريل ١١٠٤
« عكا	٢٦ مايو ١١٠٤
« طرابلس	١٢ يوليو ١١٠٩
« بيروت	١٣ مايو ١١١٠
« صيداء	٤ ديسمبر ١١١٠

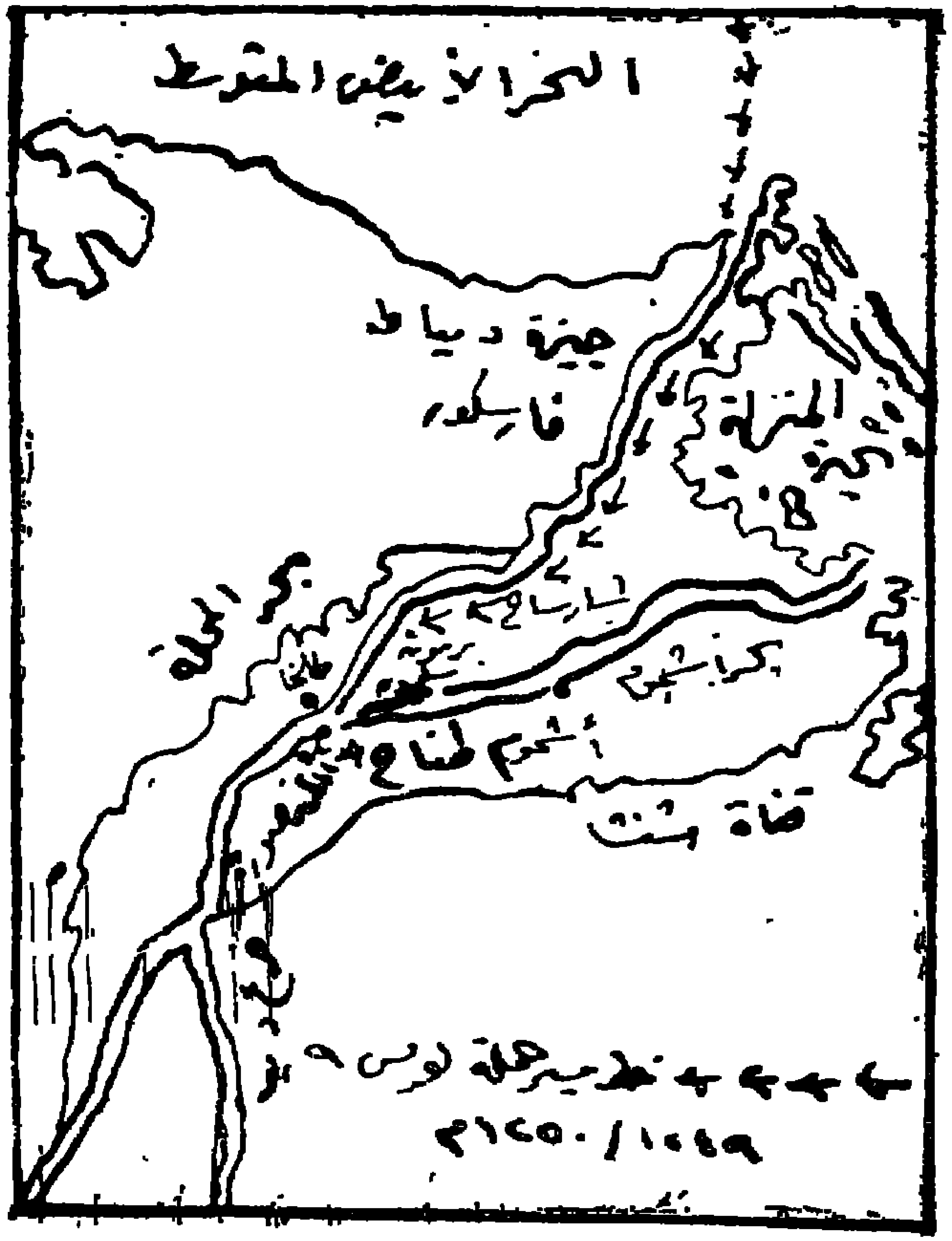

حملتا نور الدين والصليبيين ضد الفواطم فى مصر سنة ١١٦٧

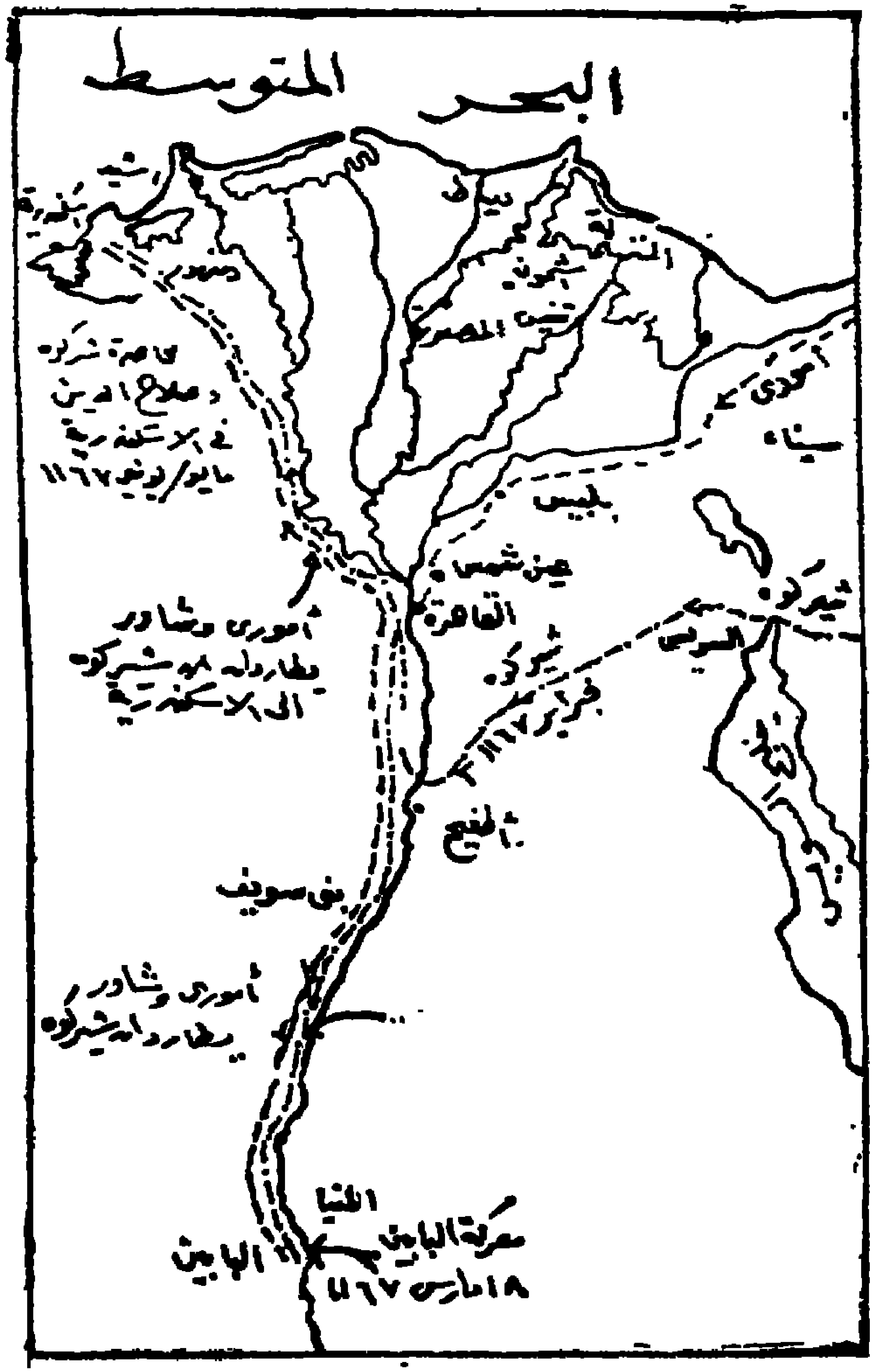

العمليات العسكرية فى مصر ومعركة البابين (يناير - أغسطس ١١٦٧)

الصليبيون فى مصر

ولعل أول محاولة صليبية لاحتـلال مصر ، هى التى قام بها الملك بلدوين الأول ، فإنه فى عام ١١١٦ م نهض بحملته التى وصـل بها إلى أيلة على البحر الأحمر ، وبنى قلعة الـكرك واستولى على جزيرة فرعون ، وكان هدفه السيطرة على طريق القوافل بين مصر وسورية . وفى مارس ١١١٨ فاجأ بلدوين مدينة الفرما ، وأصاب منها غنيمة وافرة، ثم حرق المدينة، ثم أشعل النار فى قلعه جزيرة تنيس. ولما شعر بالمرض أمر رجاله بالانسحاب إلى الشرق وهو محمول على محفة، فوصل إلى العريش حيث وافته المنية (ت ١١١٨)[1] .

اغتنم بلدوين الثالث فى عام ١١٦١ فرصة ضعف الفواطم ، فدفعوا له بعض المال ، وكان هذا تمهيدا لما سيقع فيما بعد من الأحداث الـكثير، وكان أولها تلك الحملة التى أعدها الملك أمورى لغزو مصر سنة ١١٦٣ ، متذرعا بأن مصر منعت عنه المال الذى كانت ترسله منذ عام ١١٦١ ، وأعلن أن حملته ليست إلا لإرغام مصر على العودة إلى الأداء . ولذلك خرج أمورى بجيشه لأول سبتمبر عام ١١٦٣ فالتقى بالجيش الفاطمى بقيادة ضرغام ، فهزمه عند أطراف مديرية الشرقية ، ثم تابع سيره إلى بلبيس فحاصرها ، ولم يرتد عنها إلا بعد ما فتح ضرغام سـدود النيل وفاضت المياه . ثم اتصل أمورى بلويس السابع ملك فرنسا ، طالباً منه النجدة لإتمام فتح مصر . وفى مصر نشب النزاع بين شاور وضرغام ، فهرب الأول إلى دمشق (أكتوبر ١١٦٣) ، وتوسـل إلى السلطان نور الدين زنـكى أن ينفذ حملة إلى مصر ، فتمهل ، ثم أنفذ معه حملته بقيادة أسد الدين شيركوه .

---

(١) فى أعقاب تلك الفترة جمعت الصدفة (١١٣٢) بين الأتابك عماد الدين زنـكى وأخوين كرديين هما نجم الدين أيوب وأسـد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صـلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر والشام (حملة لويس على مصر وهزيمته فى المنصورة لمحمد مصطفى زيادة ص ٨ — ٩) .

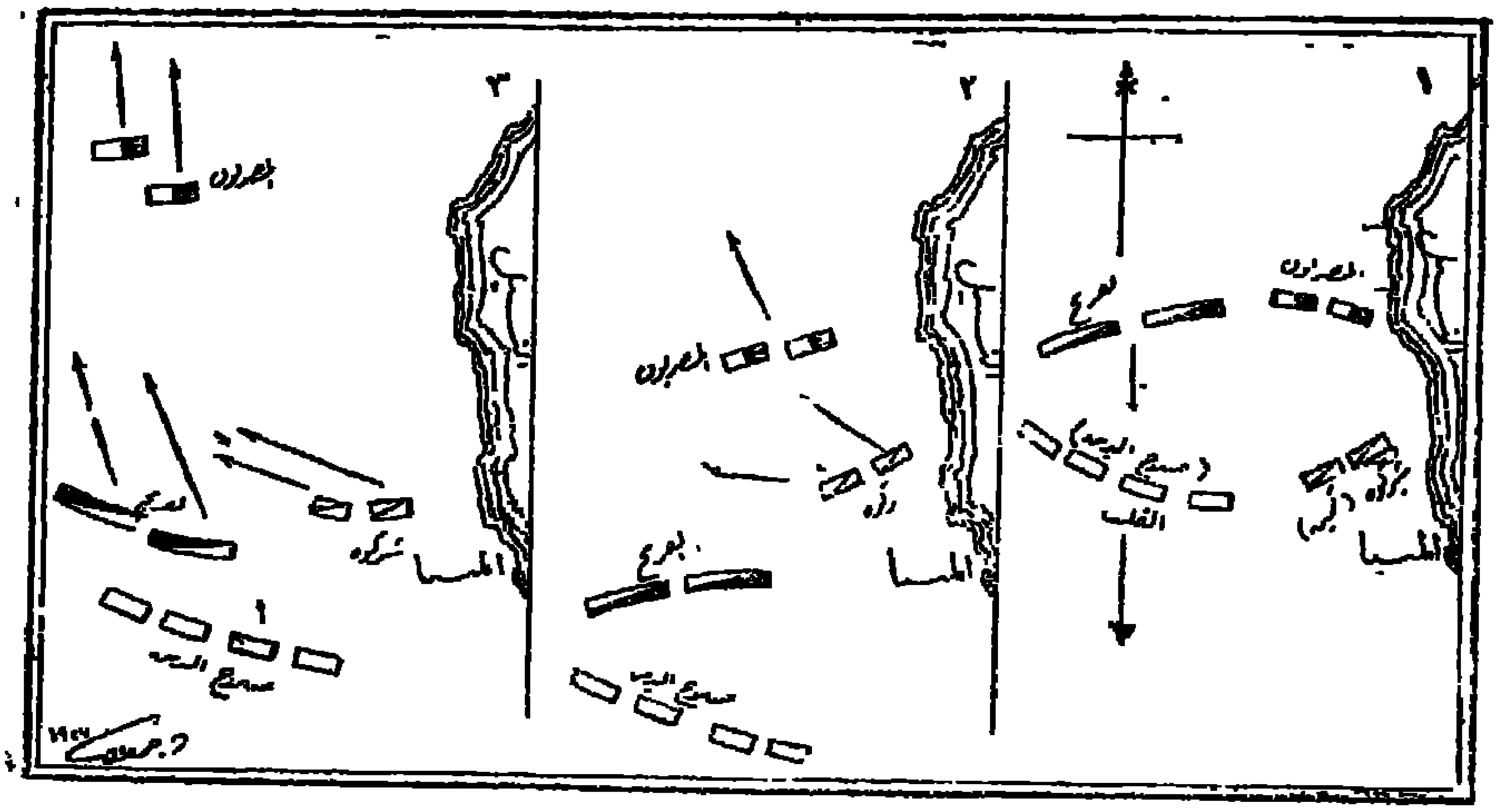

مراحل معركة البابين بالمنيا (مارس — أبريل ١١٦٧)

حملتا نور الدين والصليبيين ضد الفواطم فى مصر سنة ١١٦٨ م

معركة بلبيس (١١٦٤)

حملة نور الدين الأولى بقيادة شيركوه

أدرك ضرغام أن وصول جيش نور الدين إلى مصر سيكون فيه ضياع نفوذه بل وهلاكه ، ولذلك اتصل بأمورى ووعده بدفع جزية سنوية إذا قدم على رأس حملة إلى مصر ، فأسرع فى إعداد جيش لمساعدة ضرغام ، غير أن نجدته وصلت متأخرة ، فقد كان جيش شيركوه قد جاوز سيناء ، وهزم الجيش الفاطمى فى تل بسطة بالقرب من الزقازيق فى مايو ١١٦٤ ، وحاول ضرغام الفرار فمات مقتولا . وخلا الجو لمنافسه شاور الذى دخل القاهرة منتصراً فى مايو ١١٦٤ ، وعاد إلى الوزارة . ووقف شيركوه خارج أسوار القاهرة منتظراً أن يفى شاور بوعده ، ولكن هذا لم يرسل إليه أكثر من ٣٠٠٠٠ دينار ، وطالت المفاوضات ، وبدا أنه لم يعد أمام شيركوه سوى استخدام القوة . فتقهقر إلى بلبيس لتنظيم صفوفه ، ثم وضع يده على إقليم الشرقية ، وصار يغير على القاهرة من وقت لآخر .

ولما أدرك شاور ما يستعد له شيركوه ، اتصل بأمورى ، فلبى النداء ، وجاء إلى مصر وحاصر بقواته جيش أسد الدين شيركوه (يوليو ١١٦٤) فى بلبيس ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر . وقد حاول شاور أن يخرج الجيشان معاً من مصر حتى ساعدته الظروف . فقد انتهز نور الدين فرصة رحيل أمورى بجيشه عن سورية ، وأخذ يهاجم أملاك الفرنجة ، فاستولى على كثير من حصونهم وأعلامهم التى أرسلها إلى شيركوه فى بلبيس ونشرها أمام أنظار الصليبيين المحاصرين ، فعرفوا ما حل بأملاكهم . ومن ثم تهادن شيركوه وأمورى بعد أن دفع شاور لشيركوه ٣٠٠٠٠ دينار أخرى ، وخرج الفريقان عن مصر فى نوفمبر ١١٦٤ ،

حملة نور الدين الثانية بقيادة شيركوه (١١٦٧)

أدرك شيركوه أهمية مصر، ووقف على أحوالها ، فألح على السلطان نور الدين

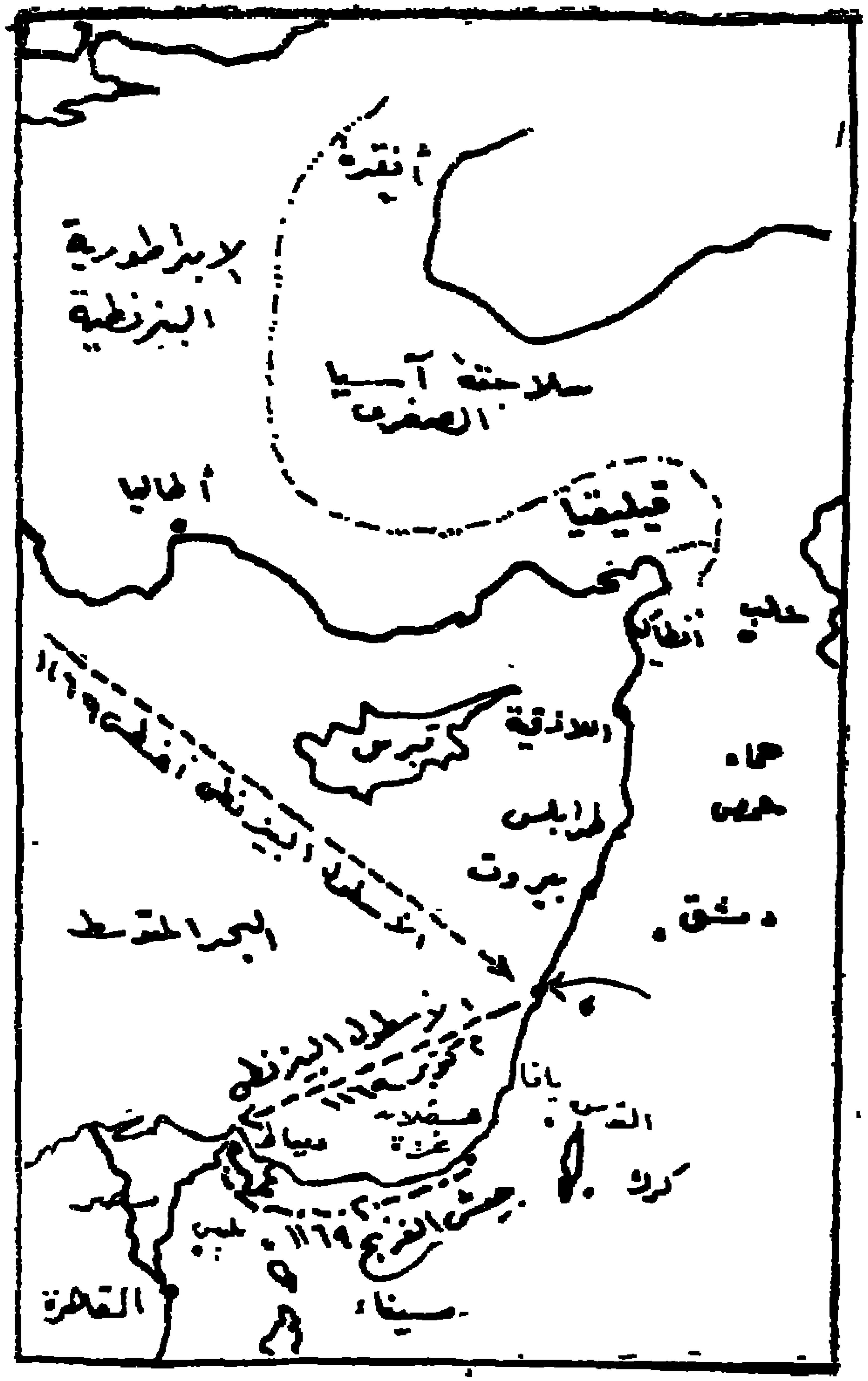

حملة الفرنج والبيزنطيين على دمياط (أكتوبر ـ ديسمبر ١١٦٩)

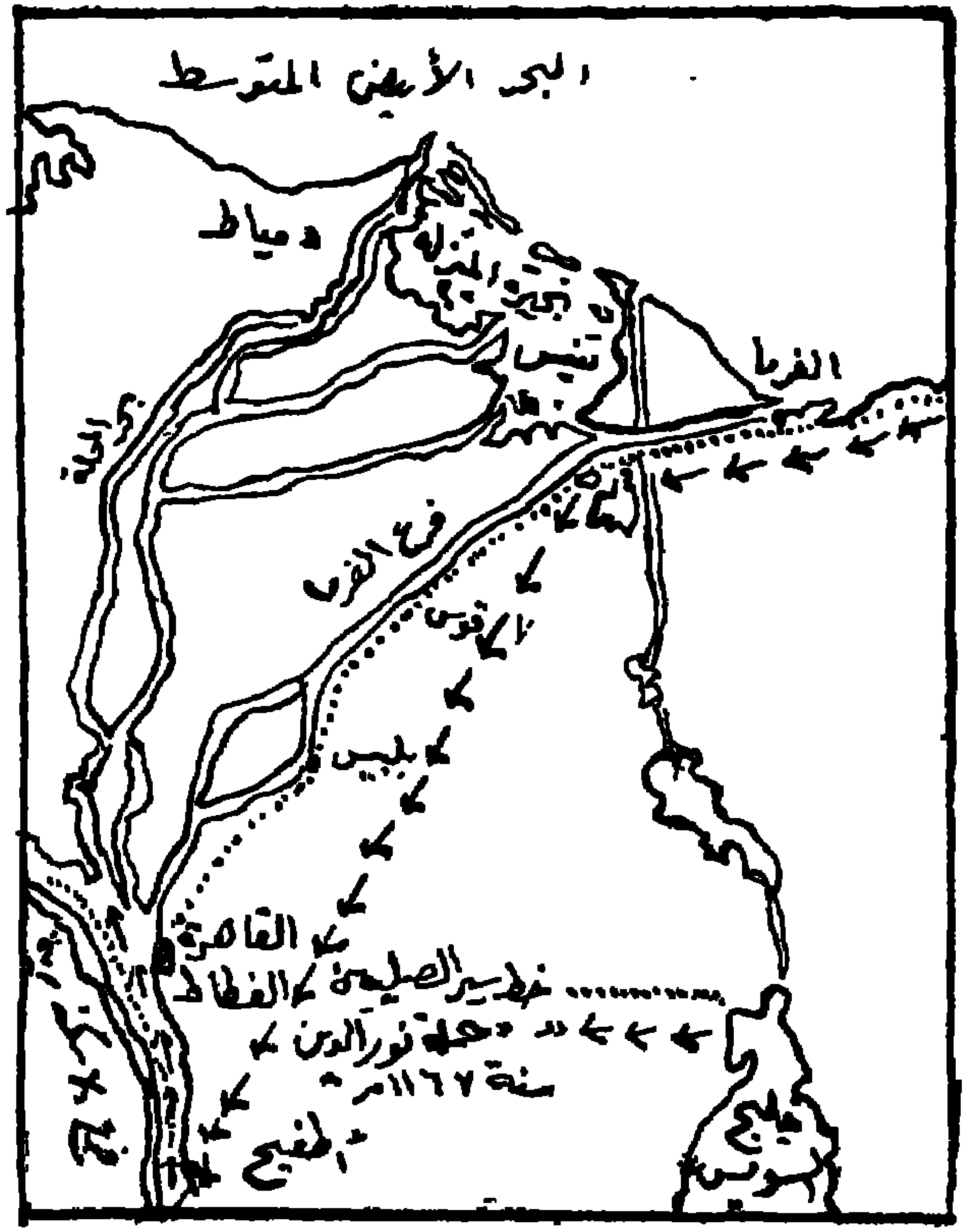

خط مسيرة الصليبيين ضد مصر سنة ١١٦٩

نور الدين لإعداد حملة ثانية ، فجهز جيشاً خرج به من دمشق فى يناير ١١٦٧ . فلما علم أمورى بذلك ، أسرع ليصل بحماته قبل وصول شيركوه .

وبعد عدة متاعب اجتاز شيركوه صحراء سينا من وسطها وتجنب الطريق إلى بلبيس ، وتقدم حتى أصبح على مقربة من الفسطاط وأحجم عن مهاجمتها . ثم علم بما تم بين شاور والصليبيين ، فقصد اطفيح على الشاطىء الشرقى للنيل وعلى مسافة أربعين ميلا جنوبى الفسطاط .

عرف شاور وحليفه أمورى ذلك فاقتفيا أثر شيركوه . ولذلك اجتاز هذا النيل ، وعسكر بقواته مكان الجيزة الحالى . وظل الجيشان يواجه أحدهما الآخر عدة أشهر . وحاول الصليبيون عبور النيل ثم أحجموا وساروا شمالا ، وعبروا النيل فى الظلام شمال القاهرة ، ثم عادوا إلى الجنوب . وكان شيركوه قد أدرك خطتهم ، فاندفع جنوباً حتى وصل ملوى ، حيث أدرك شاور وأمورى وكادت تنشب المعركة بين الجيشين عند « البابين » .

معركة البابين

كان شيركوه قد أرسل رجاله للكشف عن أحوال جيش الأعداء ، فلما وقف عليها بعض رجاله ، أشاروا عليه بالعودة إلى الشام . وبالرغم عن روح اليأس التى سيطرت على جيشه ، فإن جندياً ، هو شرف الدين برغش ، استطاع أن يحول اليأس فى قلوب الجند إلى أمل ، إذ قام فى الجند قائلا :

« من يخشى القتال والجراح والأسر ، فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحاً أو مع النساء فى بيته . والله لئن عدتم إلى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ، ليأخذن أقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجمع ما أخذتموه إلى يومنا هذا . ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار يتصرف فيها الكفار [1] » .

وافق شيركوه على هذه الكلمة ، وتبعه صلاح الدين ، ثم كثر الموافقون على القتال حتى اجتمعت الكلمة على لقاء العدو .

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ ص١٤٣ — وابن الأثير ج ١١ ص ١٤٥ — ١٤٦ .

قسم شيركوه جيشه إلى قلب وجناحين ، وأمر صلاح الدين على القلب ، وأسر اليه أن يتراجع بانتظام عند نشوب المعركة ، بينما قاد هو الميمنة[١] فلما التحم الجيشان فى ١٨ أبريل ١١٦٧م ، تراجع صلاح الدين واندفع الصليبيون خلفهم ، وعندئذ هجم شيركوه على ميسرة الأعداء ، فبدد شملهم وأجبرهم على الهرب ، فلما شاهد الصليبيون أن حلفاءهم قد فروا ، ذعروا وتبعوهم هاربين نحو الشمال ، بعد أن شاهدوا شيركوه يقوم بحركة لتطويقهم . وهكذا انتصر شيركوه وصلاح الدين على شاور وأمورى . فكان هذا أعجب ما يؤرخ . أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل [٢] ، فضلا عما أصابته من الغنيمة وما فقدته من القتلى والأسرى ، ثم تبعت ذلك معركة أخرى فى الاسكندرية .

واتفق أخيراً على وقف المعارك وتبادل الأسرى ورفع الحصار الصليبى عن الاسكندرية ومغادرة شيركوه وأمورى مصر . وسرعان ماغادر صلاح الدين الثغر والتقى بأمورى واعجب كل منهما بخصمه . وغادر شيركوه مصر بعد ما اتفق عليه مع شاور لدفع نفقات الحملة ، ثم عاد إلى دمشق فى ٥ سبتمبر ١١٦٧ ، وق. دفعته رغبته فى العودة إلى مصر مرة ثالثة .

أما الصليبيون فلم يهملوا خطة أخرى لغزو مصر الفاطمية ،فقد اتفق أمانويل دى كومنين أمبراطور بيزنطية وأمورى على إرسال حملة مشتركة لاحتلال مصر وأن يخرج الجيشان البيزنطى والصليبى بقيادة أمورى لفتح مصر فى عام ١١٦٩ ولكن تحت إلحاح الظروف قرر أمورى وحده أن يغزو مصر ، فتظاهر أولا بأنه يقصد حمص ثم اتجه فجأة إلى الجنوب حتى وصل إلى دير البلح ، ولما بلغ شاور ذلك أرسل أحد قادته ، وإسمه بدران إلى أمورى ليستفهم منه عن سبب حملته ، فما كان من أمورى الا أن استمال بدران اليه ؟ فلما لم يعد هذا الى شاور أرسل رسولا آخر ، فطمأنه أمورى ، وزعم أنه يريد التوسط بين

---

(١) على بيومى . قيام الدولة الايوبية فى مصر ، ص ١٢٠

(٢) ابن الاثير . الكامل جـ ١١ ، ص ١٤٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٣٩

المصريين وجماعة من المحاربين الأوربيين يعتزمون غزو مصر ! وعند ذلك أدرك شاور خفية الأمر واستعد للقاء المعتدين ، بيد أن أمورى كان قد وصل إلى بلبيس (نوفمبر ١١٦٨) وحاصرها عدة أيام . فاستنجد الخليفة العاضد الفاطمى بنور الدين لإنقاذ مصر ، فأسرع باستدعاء شيركوه ليقود حملة جديدة .

حملة نور الدين الثالثة بقيادة شيركوه (١١٦٨)

بعد أن استولى أمورى على بلبيس، قصد القاهرة فبلغها فى يوم ١٣ نوفمبر ١١٦٨ ، ونزل بالقرب من باب البرقية (يحتمل أنه عسكر عند بركة الحبش). وفى ذلك الحين أمر شاور بإحراق الفسطاط، فقاسى أهلها المحن وفقدوا ممتلكاتهم وهلك كثيرون منهم . وظلت النيران مشتعلة فى الفسطاط أربعة وخمسين يوما، بينما واصل الشعب مقاومة الجيش الصليبى بقوة وبأس . وأمام تلك الصعاب اضطر أمورى إلى الرحيل عن مصر فى ١٨ يناير ١١٦٩ . وظن شاور أنه يستطيع التخلص من شيركوه بدوره ، فأخذ يدبر المكائد والحيل ، بيد أن أسد الدين شيركوه كان على علم بها . ولم يمض وقت طويل حتى قتل شاور (١٨ يناير ١١٦٩) ودخل شيركوه القاهرة ، ثم خلع العاضد عليه منصب الوزارة ، بيد أنه توفى فى الثالث والعشرين من مارس ١١٦٩ ، وخلا الجو لابن أخيه صلاح الدين الذى استدعاه الخليفة وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وهو اللقب الذى حمله شيركوه نفسه من قبل .

وبالرغم عن الجفاء الذى بدأ يسود العلاقات بين الملك نور الدين وصلاح الدين ، فقد كان لانتصار قوات الشام فى مصر وبقائها فى البلاد تحت إمرة صلاح الدين بمثابة حلقة جديدة للتوحيد بين جهود مصر والشام فى صد الصليبيين. فقد حصرت الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب بين قوات نور الدين وصلاح الدين ، كما أصبحت سواحل الشام وهى ما زالت فى أيدى الصليبيين مهددة بإغارات السفن الإسلامية، كما أنه قطعت بين الصليبيين وبين أوربا سبل الاتصال إلى حد ما .

حملة أمورى وبيزنطية ضد مصر (١١٦٩ م)

أدرك الصليبيون خطورة موقفهم بين طرفى الكماشة الإسلامية، ورأى أمورى الأخطار التى تواجه مملكة بيت المقدس، ولذلك عوّل على إيفاد سفارة مؤلفة من بطريرك بيت المقدس وهرنسيون مطران قيصرية فى أوائل عام ١١٦٩ يحملون الرسائل إلى فردريك ولويس السابع ملك فرنسا، وهنرى الثانى ملك إنجلترا، وإلى مرجريت الملكة الوصية على عرش صقلية، وكونتات الفلاندر وبلوى وترويس. وكادت السفينة التى تحملهم تغرق فى البحر وهى فى طريقها، ولكنها استطاعت العودة من حيث أتت، وأرسل أمورى سفارة ثانية إلى روما فوصلتها فى يوليو ١١٦٩ حيث استقبلهم البابا ومنحهم عدة خطابات للتوصية إلى جميع رجال الكنيسة فى أوربا، ولكن لم يكن لها أى صدى، وعادوا إلى فلسطين بخفى حنين.

أما سفارة أمورى إلى امبراطورية بيزنطية فقد أتت ببعض المزايا. فقد أدرك الامبراطور إيمانويل أن ميزان القوى فى الشرق قد ارتبك بعد أن رضخت كفة المسلمين، ولذلك رأى أن يقدم المعونة إلى أمورى ويساعده بحملة بحرية قوامها أسطول كبير.. كل هذا لاستعاضة مصر من قبضة المسلمين.

وكانت الظروف مؤاتية للقيام بهذه الحملة الصليبية، لكن كان أمام نور الدين مشاكل شتى. فقد جلب موت قره أرسلان أمير ديار بكر الأرتقى عام ١١٦٨ بعض المتاعب تتصل بوراثة الإمارة، أضف إلى هذا الثورة الكبرى التى أشعلها غازى بن حسن حاكم منبج، ولم تصف ذيولها إلا بعد أشهر.

أما فى مصر، فقد شبت ثورة السود ضد صلاح الدين وهو فى أول عهده بالوزارة، واتصل زعيمها «المؤتمن» بالفرنج فى فلسطين يعدهم بالمؤازرة إذا أعدوا حملة أخرى ضد مصر، ولكن فضح رجال صلاح الدين تلك المؤامرة.

ألح أمورى على إمبراطور بيزنطية بالمبادرة بإيفاد النجدة .. وقد كان .. ففى ١٠ يوليو ١١٦٩ أقلع أسطول بيزنطى من القسطنطينية بقيادة اندرونيك كونستفانوس واتجه الجزء الكبير منه إلى قبرص حيث تزود بالمؤن وانضمت

إليه هناك ستون سفينة بيزنطية أخرى ، وكان هذا أكبر أسطول قدر للصليبيين أن يشهدوه ، واستطاع هذا الأسطول أن يأسر سفينتين مصريتين . وفى الوقت ذاته اتجهت بعض السفن إلى عكا تحمل المال والعتاد الحربى ، وطلب إلى أمورى أن يعيد هـذه السفن وأسطوله إلى قبرص ثانية محملة برجاله لاستئناف مسيرة الأسطول إلى مصر ، ولـكن أمورى أجابه أنه غير مستعد الآن ، وكان جيشه فى حالة تفـكك على أثر فشل حملته الأخيرة على مصر .

وفى سبتمبر استطاع أمورى حشد أسطوله فى عكا . وفى منتصف أكتوبر سنة ١١٦٩ أقلعت السفن مارة بصور وعسقلان التى غادرتها يوم ١٦ أكتوبر ، وبلغت الفرما فى اليوم التاسع من مبارحتها عسقلان (٢٥ أكتوبر) ، وهناك أبصرت الأسطول البيزنطى ينتظرها ، ومضت الحملة والأسطول معاً إلى دمياط التى لم تـكن محصنة وأمضى البيزنطيون وحلفاؤهم ثلاثة أيام فى نصب خيامهم أمام دمياط مما أتاح للمدافعين عن المدينة الاستعداد للقتال .

وقبل وصول الحملة إلى دمياط ، كان صلاح الدين قد أمن قواته فى القاهرة وتم له الانتقام من زعيم الثوار المؤتمن بقتله (٢٠ أغسطس ١١٦٩) ، وطرد جميع رجال القصر الفاطمى الذين لم يدينوا له بالولاء ، كما أنه تخلص من زهرة الجيش الفاطمى فأحرق ثـكناتهم فى الفسطاط ، وتم هذا كله بفضل فخر الدين شقيق صلاح الدين .

توقع صلاح الدين أن يتخذ أمورى طريق البر المعروف بين الفرما وبلبيس ولذلك حشد قواته أمام بلبيس . فلما بلغه وصول أسطول الأعداء إلى دمياط أخذ على غرة ، ورأى أن يبقى فى القاهرة للقضاء على أية ثورة أخرى قد يشعلها الفواطم ، وأسرع فى إرسال النجدات إلى دمياط . ثم كتب رسالة إلى نور الدين فى الشام يطلب منه الإسراع فى نجدته .

أما حامية دمياط فقد ألقت السلاسل الحديدية أمام الثغر ، فحجزت سفن العـدو عن اقتحام النيل لرد وصول الإمدادات إلى الحامية ، وهبت الرياح الشديدة فلم تحرك السفن ساكناً وكان هـذا فى صالح المصريين ضد المغيرين

على البلاد . وهكذا ضاعت فرصة المفاجأة التى كانت فى صالحهم فى بادىء الموقف ، وكانوا يستطيعون إقتحام أسوار دمياط واقامة أبراج الحصار العظيمة حولها . . وفى أثناء تلك الفوضى أصابت احدى منجنيقاتهم الحى المسيحى فى دمياط ، وأصيبت كنيسة العذراء بأضرار ، والجدير بالذكر أن هذه الكنيسة هى مسجد أبى المعاطى ،وكان الصليبيون اتخذوا منه كنيسة .

وصلت إمدادات نور الدين إلى دمياط ، كما أرسل صلاح الدين جنوده عن طريق النيل وزودوهم بالسلاح والذخيرة ، وبعث السفن تحت قيادة أخيه تقى الدين عمر وقريبه شهاب الدين محمود؛وبذلك استطاعت دمياط الباسلة مقاومة غزاتها الذين أمضوا عدة شهور فى التأهب لمهاجمتها وهم فى حالة لاتوصف من الفوضى .. بلغتها هذه النجدات حتى أصبحت دمياط فى حال تمكنها من دفع المعتدين . وأسرع المصريون فى بناء برج لرمى المنجنيق ، فتكاتف المسلمون والقبط على رد العدو بقوة وبأس .

وكانت تزداد الصعاب على الفرنج يوما بعديوم ، فقد هطلت الأمطار ليلا ونهارا وتحولت خيام العدو ومعسكراتهم الى برك المياه والوحل حتى اضطروا لحفر الحفر حولها لتجتمع فيها مياه الأمطار . ولم تلبث أن دب بين المعتدين أنفسهم ما أضعف عزائم جندهم . وهو نقص الطعام يوما بعد يوم لأن الأسطول البيزنطى لم يجد معه غير مؤنة ثلاثة أشهر استنفذ معظمها فى المدة التى انقضت منذ إقلاعه من بلاده حتى مغادرته عسقلان ، فضلا عن تعذر الحصول على شىء من دمياط وما جاورها كما اغتنمت جماعات من المصريين والبدو الفرصة وكانت تغير بين آن وآخر على خيام العدو فتسلب ماتصل أيديها إليه .

أدت تلك الظروف مجتمعة إلى تسرب القلق إلى نفوس الصليبيين والبيزنطيين ، وسرعان ما أحس القائد البيزنطى بشدة فتك الجوع بجنده ، وأدرك أنهم لن يستطيعوا الصبر طويلا لمواصلة القتال المرير فى مثل تلك الأحوال القاسية ، وأشار القائد على أمورى بمهاجمة دمياط دفعة واحدة حتى تقع فى أيديهم فينطلقوا بقواتهم نحو القاهرة ، غير أن أمورى لم يوافقه على خطته ، متعللا

بأنها قد تؤدى إلى هزيمة الجيش ، فلم يوافقه كونستفانوس على رأيه ، وعقد بعد منتصف إحدى الليالى مجلساً من قادة جيشه واستعرض معهم الموقف وأمرهم بالهجوم على المدينة والاضطلاع بالهجوم دون الصليبيين . فكان ذلك أول تصدع فى الحلف البيزنطى الصليبى .

بدت أخيراً فكرة التفاوض . ومن المرجح أن أمورى كان البادىء بها ليستطيع العودة إلى فلسطين لمواجهة السلطان نور الدين الذى اغتنم فرصة خلو الامارات اللاتينية بالشام ، فأخذ يغير على حصن الكرك وغيره ويوقع الرعب فى قلوب عساكرها .

وانتهت الحملة بالفشل وعقدت الهدنة بين المتحاربين ، وأخذوا فى التزاور .. ثم انسحب الأسطول البيزنطى من المياه المصرية ورجع أمورى على رأس فلول قواته إلى بلاده بعد أن أحرقوا آلات الحصار التى جلبوها معهم فى يوم ١٢ ديسمبر لكى لاتقع فى أيدى المصريين ، ووصلت مقدمة الجيش الصليبى عسقلان فى ٢٤ ديسمبر ١١٦٩ . أما الأسطول فقد هبت عليه رياح شديدة فأتلفت معظم سفائنه . .

هكذا انتهت نكبة دولتين : الامبراطورية البيزنطية والممالك الصليبية . وامتنع الصليبيون مؤقتاً عن التدخل فى شؤون مصر، ولم يهاجموها إلا فى حملتين أخرتين فى أواخر أيام الأيوبيين ، فشجع هذا البطل صلاح الدين الأيوبى على تحويل مجرى الحرب ، فأخذ يشن الهجمات على الصليبيين فى مدنهم وحصونهم فى الشام ، وسنقرأ ذلك فى الفصل التالى .

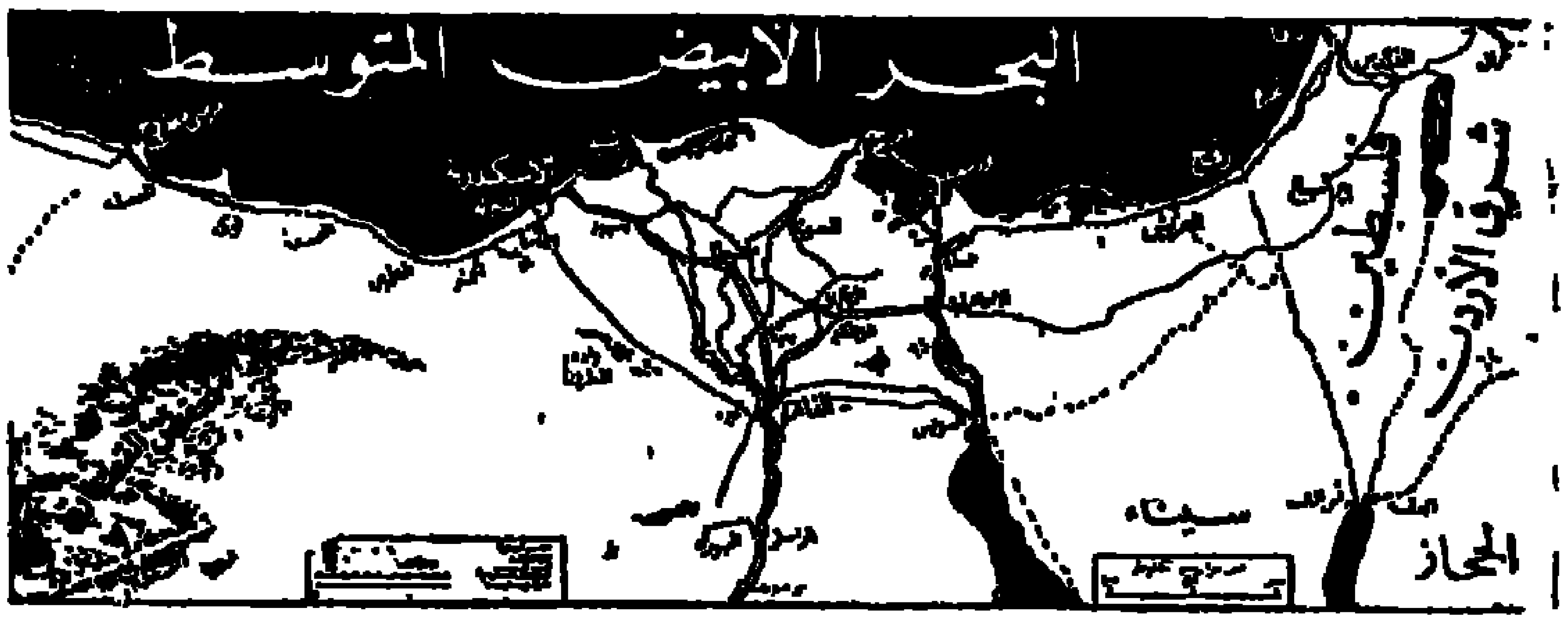

سيناء قلب العروبة

الفصل الخامس

الجيش في عصر الأيوبيين

(١١٧١ – ١٢٥٠م)

عصر صلاح الدين

لايتسع المقام فى التمهيد التاريخى الموجز — الإطالة فى الكلام عن أعمال صلاح الدين ، هذا البطل العظيم وأحفاده . فقد قضى هذا الملك معظم حياته خارج مصر يحارب الصليبيين لرفع شأو الإسلام والمسلمين . فبعد أن تم له توحيد صفوف العرب فى العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر ، وفى خلال الأربعة والعشرين عاماً ، وهى فترة نهوضه بالحكم ، لم يمض منها سوى ثمانية أعوام فى القاهرة . كان كثير الانتقال ، مجاهداً على رأس جيشه فى أراضى الجهاد : أرض الجزيرة ، والشام ، وفلسطين ، فقضى على الصليبيين بانتصاره الخالد عليهم فى معركة حطين (١١٨٧م) ، وأعاد بيت المقدس لأصحابه المسلمين بعد أن سمح للمسيحيين بأن يحجوا إليه ، وكفى أن نذكر له معارك صور وعكا والرملة ، إلى جانب بيت المقدس ، وحطين .

وقد عمل خلفاء صلاح الدين من بعده على الحفاظ بمكانة مصر وجمع كلمة المسلمين ، فواصلوا سياستهم القوية الحازمة ضد الصليبيين فأضعفوا شوكتهم ، ولم يفتروا عن دعم ملكهم . فكان الملك العادل من أكبر الناس حرصاً على وحدة المسلمين ، ولما خلفه إبنه الكامل محمد سار على هدى أبيه وجده ، فحفظ وحدة الدولة وزاد فى تحصين القاهرة ، فأتم بناء قلعة الجبل ، وفى أيامه غزا الصليبيون دمياط بقيادة الملك جان دى برين (١١٨٢م) ، فملكوها حتى إذا ما وصلت اليه الإمدادات،عرض على الصليبيين الصلح ، على أن يرد اليهم بيت المقدس نظير جلائهم من دمياط ، فرفضوا وزحفوا على القاهرة .

وانتهز المصريون فرصة فيضان النيل ، فأطلقوا الماء على معسكرات الصليبيين بالقرب من المنصورة ، ثم انقضوا عليهم من كل جانب، وهزموهم شر هزيمة ثم تعاهد الصليبيون على إخلاء دمياط والجلاء عن مصر .

وفى عام ١٢٤٤ م انتزع الملك الصالح نجم الدين من منافسه بيت المقدس ثم شيد قلعة الروضة بجزيرتها ، حيث حشد فيها الجند والسلاح .. وفى أخريات أيامه غز الصليبيون مرة أخرى مصر، بيد أن المصريين كانوا قد أدركوا حيلهم الحربية ومدى سيطرتهم على القتال ، فكان لهم النصر العظيم فى معركة المنصورة (١٢٥٠) التى سنتحدث عنها فى الصفحات التالية

لقد امتد سلطان مصر فى زمن الدولة الأيوبية على جزء كبير من البلدان العربية ، فدخل الشام وشمال العراق وبلاد الكرد فى حوزتها ، ولما توفى صلاح الدين (١١٩٣م) كانت مصر بحق زعيمة دولة ، امتدت من شمال دجلة إلى برقة بليبيا وإلى النوبة جنوباً ، وأقصى جنوب شبه الجزيرة العربية المطل على بحر العرب

فارسان أيوبيان

الجيش الأيوبى

نهض الأيوبيون منذ أن أسس صلاح الدين دولته الجديدة فى وادى النيل بدور فعال فى توجيه سياسة العالم العربى ، فقد عمل جادا فى توحيد الجبهة العربية ضد الغزاة الصليبيين ، ثم دعم خلفاؤه هذه السياسة الحكيمة لمدة قرن من من الزمان تقريبا . ويعود الفضل فى تنفيذ تلك الاستراتيجية إلى القوات المسلحة الأيوبية وقيادتها البارعة التى جعلت فى كل قطر عربى جبهة قتال متماسكة مستعدة لمجابهة ظروف القتال المحلية .

تألفت جيوش صلاح الدين من العناصر الرئيسية الآتية :

١ — الجيش المصرى (المرابط فى مصر) .

٢ — القوات الشامية والعراقية : تتألف من عسكر دمشق ، وحمص ، وحماة ، وحلب ، والموصل والجزيرة .

٣ — القوات المعاونة من الراكبين والمشاة : تتألف من التركمان ، والأكراد ، والعرب ومن أظهر هؤلاء بنو منقذ من شيزر .

تألفت جيوش صلاح الدين من قوات نظامية، وكان يطلق عليها العسكر ، وقوات احتياطية أو إقليمية وكان يطلق عليها الجند . وتستخدم لفظتا العسكر والجند فى معظم المصادر فى غير دقة ولا تحديد[1] . والعلاقة بين الجند الاحتياطى، والعسكر المركزية الثابتة مرتبطة بحقوق وواجبات أصحاب الإقطاعات المحلية نحو سيدهم[2] . فالجيش الثابت يخدم أفراده بصفة دائمة ويتقاضون راتبا منتظما، ويحيطون شخص السلطان لا يفارقونه أبداً ، ويكلفون أحيانا بالدفاع عن القلاع والحصون . والجند فى الواقع عسكر الأمراء ، ويطلق عليهم مماليك الأمراء أو أجناد الأمراء ، وعلى كل أمير ، إعداد ما يتطلبه إقطاعه ، فإذا نشبت الحرب ذهب الأمير بجنده إلى القتال ، وإذا انتهت الحرب عادوا إلى مراعيهم وخيامهم وكانوا لا يتناولون أجراً منتظماً ، بل يأخذون نصيبهم من الغنائم والأسلاب .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٩٣ ، ج ١٣ ص ٨٥ ، المقريزى : الخطط ج ١ قسم ١ ص ٤٨ .

(٢) د . نظير حسان سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٦ .

وكان الأكراد والترك يكونون العنصر الأساسى والرئيسى فى العسكرية الأيوبيـة ، يـكثر عددهم ويقل حسب قدرة السلطان الماليـة فى إعدادهم والإنفاق عليهم .

تلك هى أهم العناصر التى أسهمت فى تكوين جيش مصر على عهـد صلاح الدين، وقد قسمه إلى فرق ، تنسب كل فرقة منها إلى سلطان سابق، فيقال المماليك النورية نسبة إلى السلطان نور الدين محمود . أو تنسب الفرقة إلى أحـد القواد العظام السابقين، فيقال المماليك الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، انضموا إلى صلاح الدين بعد وفاته عام ١١٦٩، ومن أعيانهم الفقيه عيسى الهكارى الذى أسره الصليبيون فى موقعة الرملة سـنة ١١٧٨ وافتداه صلاح الدين بستين ألف دينار. ومنهم بهاء الدين قراقوش ناظر أشغال السلطان صلاح الدين يوسف .

أما مماليك صـلاح الدين ، فـكان لهم عدة أسماء ، منها المماليك الصلاحية نسبة إليه ، أو الناصرية ، نسبة إلى لقبه أو جند الحلقة . ومن كبار أمرائهم علم الدين كرجى ، وسيف الدين سنقر . وأيبك الساقى ، وركن الدين منكورش، وفارس الدين ميمون ، وأبو المنصور جهاركس الملقب فخر الدين . وتعتبر الفرق الثلاث النورية ، والأسدية، والصلاحية أهم قوات الجيش الثابتة ، يقومون بأهم الأعمال الحربية والغزوات، وأطلق على رؤسائهم لقب مقدمو المماليك السلطانية.

حارب جيش صـلاح الدين فى عدة معارك كبرى ، ولا شك أن حطين كانت أهمها ، (يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخرة عام ٥٨٣/٢٦ يونيو سنة ١١٨٧). ودخل صلاح الدين عـكا يوم الجمعـة أول جمادى الأولى سنة ٥٨٣ (٩ يوليو سنة ١١٨٧) . ثم كانت معركة استعادة بيت المقـدس ، ومعارك القائد لؤلؤ فى البحر الأحمر وفى الأراضى المقدسة ضد الصليبيين .

كان الأيوبيون فى خلال حكمهم لدولتهم الـكبرى ، أسرة جهاد بـكل معنى الـكلمة . فقد خاض الشعب العربى فى خلال ثمـانين سنة شتى المعارك والحروب المتعاقبة ،وانتهت بمعركة المنصورة الخالدة فى عام ١٢٥٠ . وكان عماد

النصر ، تلك الوحدة القوية بين مصر وسورية ، وأفراد القوات المسلحة من عرب وأكراد وتركمان . وقد مهد هؤلاء ولاسيما المماليك ، لإقامة دولة قوية أخذت على عاتقها الحفاظ على أرض الوطن ورد الصليبيين ، بل والمغول أيضا على أعقابهم ، وسنقرأ تلك الصفحات المجيدة فى الفصول التالية .

أمدنا اثنان من مؤرخينا الأجلاء بحقائق هامة عن الجيش الأيوبى ، هما الأستاذ الدكتور السيد الباز العرينى فيما كتبه عن الأيوبيين ولا سيما مصر فى عصر الأيوبيين ، والدكتور حسنين محمد ربيع فى مؤلفه « النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين . »

كان يتولى مصروفات الدولة الأيوبية فى مصر عدد من الدواوين المالية تدل أسماؤها على أنواع مصروفاتها فضلا عن إيراداتها ، وهذه الدواوين هى ديوان الخاص السلطانى،وديوان الجيش،وديوان الأسطول،وديوان الأجناس وديوان المواريث الحشرية وديوان الزكاة،وكانت هذه الدواوين معروفة فى زمن حكم الفواطم ، فأبقاها صلاح الدين على ما هى عليه ، وأضاف إليها ما استحدث من الدواوين. وكان ديوان الجيش مركز توزيع جميع الإقطاعات، فضلا عن شؤون الصرف العام على الجيش والتعبئة والسلاح والمؤن والحاميات والقلاع والحصون حسب النظام السائد .

وكان أهم أعمال الموظفين بهذا الديوان إثبات أسماء أرباب الإقطاعات على اختلاف طبقاتهم وجميع أفراد الجيش السلطانى وجيوش الأمراء وابتداء إمرتهم حسب السنين الهلالية ، وعمن انتقل إليه الإقطاع وعدد الجند الذين يقتنيهم فى إقطاعه ، وأمام كل اسم عبرة إقطاعه « رمزاً لا تصريحاً »(١). وأهم ناحية من نواحى ديوان الجيش هى تقويم الإقطاعات فى مصر بما يسمى العبرة، وكانت الوحدة النقدية فى ذلك هى الدينار الجيشى وهو دينار يسمى العبرة حقيقة على قول القلقشندى ، استعمله أصحاب ديوان الجيش فى تقدير عبرة مختلف

---

(١) د. حسنين محمد ربيع: النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين، ص ٦٢ . مطبعة جامعة القاهرة.

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الإنشا ، جـ ٣ ص ٤٤٢ .

الأقطاعات ، فجعلوا لكل أقطاع عبرة دنانير جيشية تكثر أو تقل حسب مرتبة صاحب الأقطاع وقيمة وظيفته فى الدولة ومكانة طبقته فى المجتمع [١] فكان الدينار الجيشى للأجناد والأتراك والأكراد والتركمان فى عهد صلاح الدين يساوى ديناراً ذهبياً كاملا ، ولكتائب العربان الكنانية والعساقلة من الجيش الأيوبى المصرى نصف دينار ، أما الغزاة فدينارهم الجيشى ربع دينار ، بينما تقاضى العربان ثمن دينار فقط [٢].

ويلقى الدكتور ربيع الضوء على ما كان عليه الجيش الأيوبى فى أول تكوينه بمصر فيقول : وفى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وصلاح الدين لا يزال نائباً عن نور الدين فى مصر ، وديوان الجيش لا يزال متبعاً نظم الأعطية الفاطمية ، أقيم عرض عسكرى كبير فى القاهرة يوم ٨ المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١سبتمبر ١١٧١) . وشهد ذلك العرض رسل البيزنطيين والصليبيين ، واستمر يوماً وشطراً من الليل ، وكان عدد الجيش النظامى الذى شهد العرض ١٤٧ طلبا [٣] والنائب ٢٠ طلباً ، وبلغ عدد الحاضرين ١٤ ألف فارس ، وغالبهم من الطواشية [٤] الذين تقاضى الواحد منهم راتباً من ٧٠٠ — ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ دينار ، وله برك [٥] فضلا عن غلام يحمل سلاحه فى الحرب . أما بقية أعداد الجيش فهم من القراغلامية [٦] يضاف إليهم العربان الملحقون بالجيش ، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس ، غير أن من حضر العرض منهم لم يزد على ١٣٠٠ .

ثم قام صلاح الدين بتعميم نظام الإقطاع الحربى ، فصار أمراء الأجناد

(١) القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الإنشا ، جـ ٣ ص ٤٤٧

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٩ . انظر حسنين ربيع : ص ٦٤ — ٦٤

(٣) الطلب بلغة الغز (المماليك) وحدة تتألف من أمير (قائد) له علم معقود وبوق مضروب. وعدد من الفرسان يتفاوت عددهم بين ٢٠٠ و ٦٠٠ و ٧٠ فارسا (المقريزى : المواعظ والاعتبار — جـ ١ ص ٨٦)

(٤) يقصد بالطواشى الجندى من الفئة الاولى من العساكر — العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ، ص ١٥٤ حاشية ١

(٥) البرك هو متاع الفارس وعدته وما بحوزته من الخيل والبغال والجمال (المقريزى : جـ ١ ص ٨٦)

(٦) القراغلام هو الجندى العادى ، العرينى : المرجع السابق ص ١٥٤ ، حاشية ٢

أصحاب الإقطاعات هم المكلفون بالإنفاق على كتائبهم التى تدخل فى الجيش العام زمن الحروب .

وفى سنة ٥٧٧ ﻫ (١١٨١) بلغت عدة الجيش الأيوبى فى مصر ٨٦٤٠ فارساً ، وصلت النفقة عليهم مبلغاً كبيراً قدرته المراجع ٣٦٧٠٥٠٠ دينار يضاف إلى المبلغ جامكيات الأمراء المحاولين ورواتبهم . ثم زادت نفقات الجيش الأيوبى بعد ذلك حتى بلغت سنة ٥٨٥ ﻫ (١١٨٩) وذلك قبل وفاة صلاح الدين بثلاثة أعوام – نقلا عن القاضى الفاضل ، مبلغ ٤٠٦٣٠١٩ دينار (١)

ثم انخفض الجيش الأيوبى فى مصر إلى ٨٥٠٠ فارس ، وانخفضت معه نفقات الجيش وذلك بسبب انتهاء أيام الجهاد الصلاحى ضد الصليبيين، وانتقال كثير من الأمراء الأيوبيين إلى جيش الأفضل على فى دمشق، والظاهر فى حلب، والعادل بالبلاد الفراتية ، فضلا عن عدم قيام العزيز عثمان بأى جهاد ضد الصليبيين.

ثم ارتفعت نفقات الجيش الأيوبى أواسط زمن السلطان الكامل وحروبه ضد الحملة الصليبية المعروفة باسم حملة حنادى بريين ضد دمياط، حتى إذا انتهت تلك الحملة بجلائها عن دمياط انخفضت النفقات العسكرية مرة أخرى ، فصارت عام ٦٣١ ﻫ (١٢٣٣) مبلغ ٦٠٠ ألف دينار ، وبلغ راتب الجندى العادى عشرين ديناراً مصرياً ، ولكل من كبار الجند راتب تراوح بين ٤٠ – ٥٠ ديناراً (٢) – كما جاء فى مخطوط ابن أيبك .

ثم زادت نفقات الجيش الأيوبى فى عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب بسبب خشيته من حملة صليبية تأتى إلى مصر عن طريق البر واستخدامه شراذم الخوارزمية واستخدامهم لحماية الأطراف المصرية وغيرها من البلاد الشامية التى ظلت على ولائها للسلطان الصالح نجم الدين ، ثم استكثر هذا السلطان فئة جديدة عرفت باسم المماليك البحرية الصالحية وهم من الترك ، فأعطاهم الصالح

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٨٧.

(٢) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٧ ، ورقة ٩٢ — ٩٣ عن النظم المالية فى مصر ، ص ٦٧ .

الأقطاعات الوافرة والرواتب والجوامك الدائمة لإخلاصهم له . ولم ينس أن يوصى ابنه تورانشاه فى وصيته بقوله : « وتتوصى بالمماليك غاية الوصية فهم الذين كنت أعتمد عليهم وأثق بهم ، وهم ظهرى وساعدى ، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم ، وتوعدهم بكل خير .. فتكرمهم وتحفظ جانبهم فهذه وصيتى إليك فاعمل بما فيها ، ولا تخالف وصيتى » (١) .

وكان من مصروفات ديوان الجيش أيضاً مجموعة من المدن العسكرية الأيوبية وهى العادلية والمنصورة والصالحية . فشيد السلطان العادل سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧) مدينة العادلية جنوبى دمياط وشحنها بالمقاتلين استعداداً لقدوم الصليبيين إلى مصر من ناحية دمياط ، فأصبحت من ذلك الحين مدينة جهاد عسكر فيها السلطان الكامل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، ليعبر عساكره منها إلى دمياط لمنع الصليبيين من دخولها (المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢١٦)

وشيد السلطان الكامل مدينة المنصورة سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩) ، عندما استولى الصليبيون على دمياط ، فعسكر بجنوده مكان تلك المدينة وشيد فيها قصراً وأمر من معه من الأمراء والعساكر ببناء الدور والأسواق . وأحاط المدينه بسور على النيل حماه بالآلات الحربية والستائر .

واهتم السلطان الصالح نجم الدين بمدينة المنصورة فبنى الأبنية بها وشرع عساكره فى تجديد أبنيتها وإصلاح سورها وتوافد إليها الجند والعساكر والعربان فعمرت المنصورة وأصبحت رباطا ضد الصليبيين .

وشيد السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدينة الصالحية سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦) فى أول الصحراء التى تفصل بين مصر والشام لتكون نقطة أمامية للدفاع عن الأطراف المصرية وأنشأ بها قصوراً وجامعاً وسوقاً وغدا للصالحية أهمية خاصة للطريق البرى الذى يربط القاهرة ودمشق ويسلكه المسافرون .

وكما اختص ديوان الجيش بالصرف على شؤون القوات الحربية البرية وما يلحقها من الحصون والقلاع والمدن العسكرية الجديدة ، إختص

(١) النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، ج ٢٢ ، ورقة ٩٢ — ٩٣ عن النظم المالية فى مصر ، ٦٧ .

ديوان الأسطول بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن حربية وجند وبحارة وسلاح ومؤونة ، بالاضافة إلى دور الصناعة التى قامت بأعمال الصيانة اللازمة للأسطول . وخصص صلاح الدين لديوان الأسطول متحصلات إقليم الفيوم والحبس الجيوشى وخراج السنط وحصيلة النطرون التى بلغت حينذاك ثمانية آلاف دينار، وذلك فضلا عن متحصلات ديوان الزكاة وقدره أكثر من ٥٠٫٠٠٠ دينار وأجرة المراكب الديوانية . . الخ . وفى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١) عين صلاح الدين العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، فعين العادل صفى الدين بن شكر نائباً فى ذلك الديوان [1] والجدير بالذكر أن دينار الأسطول كان مثل الدينار الجيشى. وكان بمصر فى أيام صلاح الدين ثلاثة من دور الصناعة فى مصر والاسكندرية ودمياط .

وفى أواخر أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب شهدت البلاد إهتماماً بالأسطول الأيوبى ورجاله ، بعد أن نزلت الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على سواحل مصر دون أن تلقى مقاومة مذكورة من السفن المصرية ومما يدل على عناية الصالح نجم الدين أيوب بشؤون الأسطول دون غيره من السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين ؛ أنه كتب فى وصيته لابنه تورانشاه يقول ما نصه: «فالأسطول أحد جناحى الاسلام فينبغى أن يكونوا شباعاً ورجال الأسطول إذا أطاق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبا؛ جاءوا من كل فج عميق » [2]

نقل العتاد على ظهر الجمال

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ و ١٩٤
(٢) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩

٢ ـ السلاح فى العصر الأيوبى

إعتاد مؤرخو الأسلحة الإسلامية أن يصنفوا السلاح العربى كما يأتى :

١ — أسلحة هجومية .

٢ — أسلحة دفاعية (للوقاية) .

٣ — آلات الحصار .

٤ — النار اليونانية والبارود والنفط .

٥ — الأسلحة النارية : الثقيلة والخفيفة .

الأسلحة الهجومية

الرمح والحربة

يعتبر الرمح من أهم أسلحة العرب وقدأجادوا استخدام الرمح على ظهور الجياد.ولرأس الرمح أشكال شتى ؛ تختلف شكلا بين المشعب والعريض والرفيع والمموج وغير ذلك،واختلف أيضاً طول الرماح وكان يطلق على الرماح القصيرة مربعات وعلى الرماح الطويلة ـ الطوال . ويسمى الرمح أيضاً القناة ، ويقال لحامل الرمح رماح .

أما الحربة فهى الرمح القصير، وكان عند العرب منها أنواع شتى . وقد كتب خبراء العرب القدامى عنها رسائل كثيرة فى كيفية استخدامها .

الدبوس (العمد)

الدبوس آلة من حديد له أضلاع يقاتل به لابسو البيضة (الخوذة) ويتضاربون بعد التضارب بالسيوف والرماح،ويضعه الفارس تحت رجله ، عرف القاموس المحيط ـ الدبوس بأنه هراوة مدملكة الرأس فى طرفها كتلة صغيرة وكان يستعمل فى تهشيم الخوذة المعدنية وقد عرف أولا بالعمد (Mace) .

الطبر (بلطة أو فأس)

آلة قتال تشبه الفأس وله رأس نصف مستدير ويركب فى قضيب من

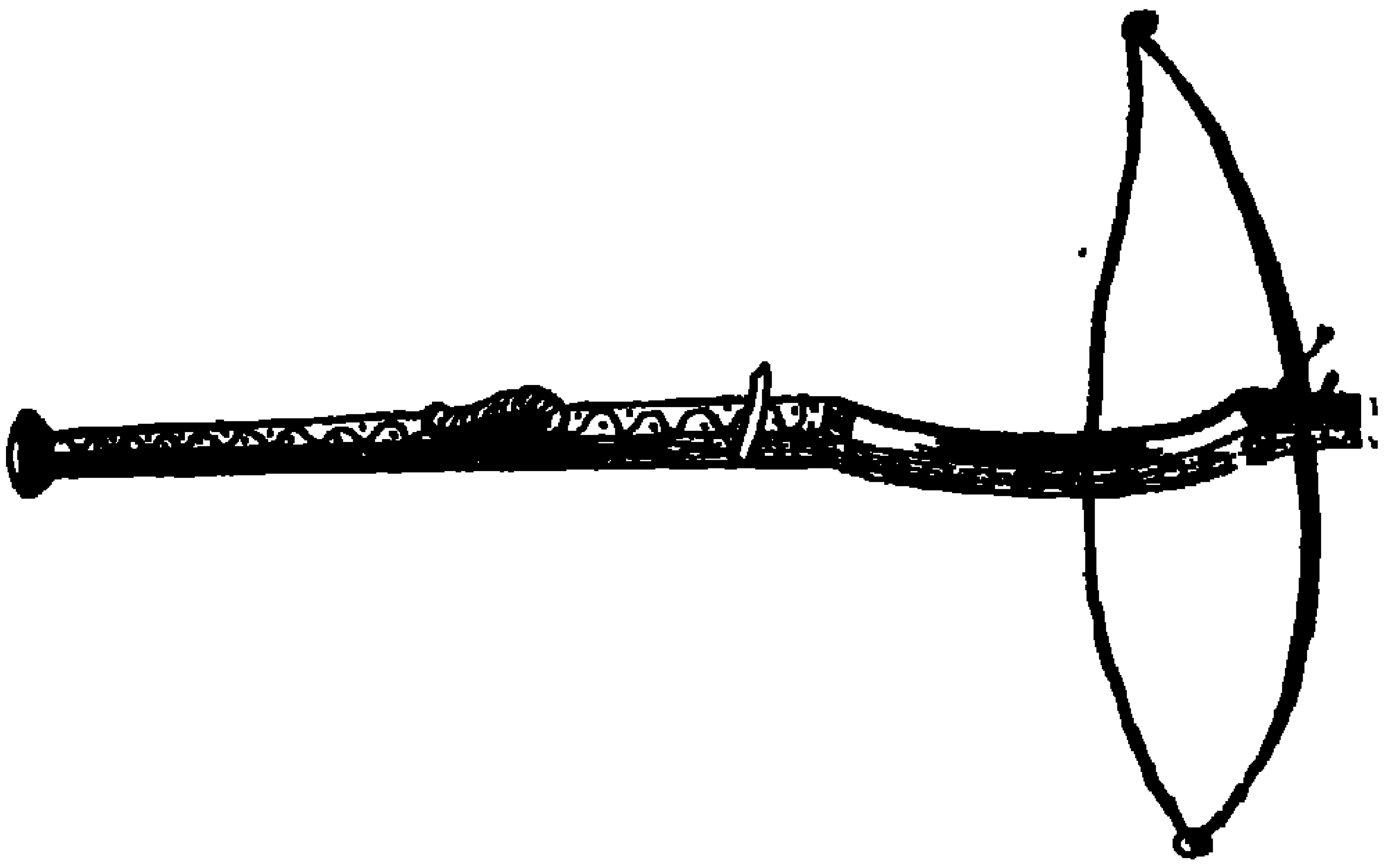

قوس يد (أربلست)

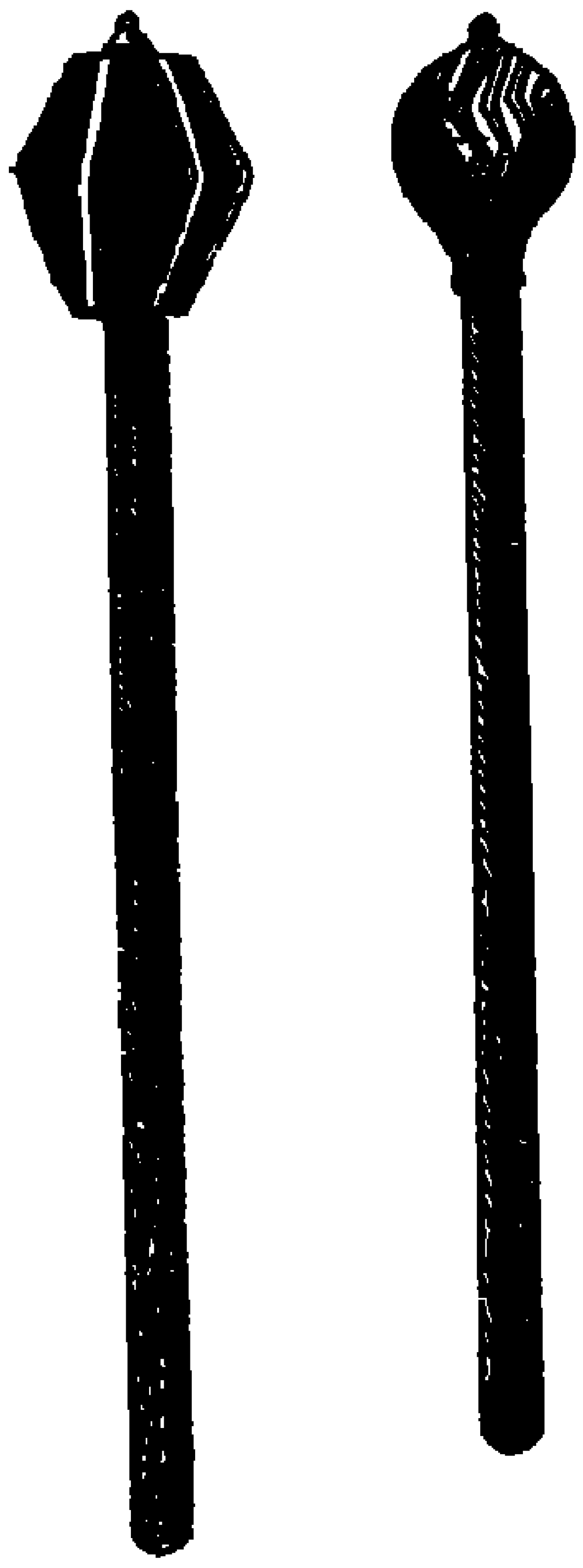

دبوسان معدنيان

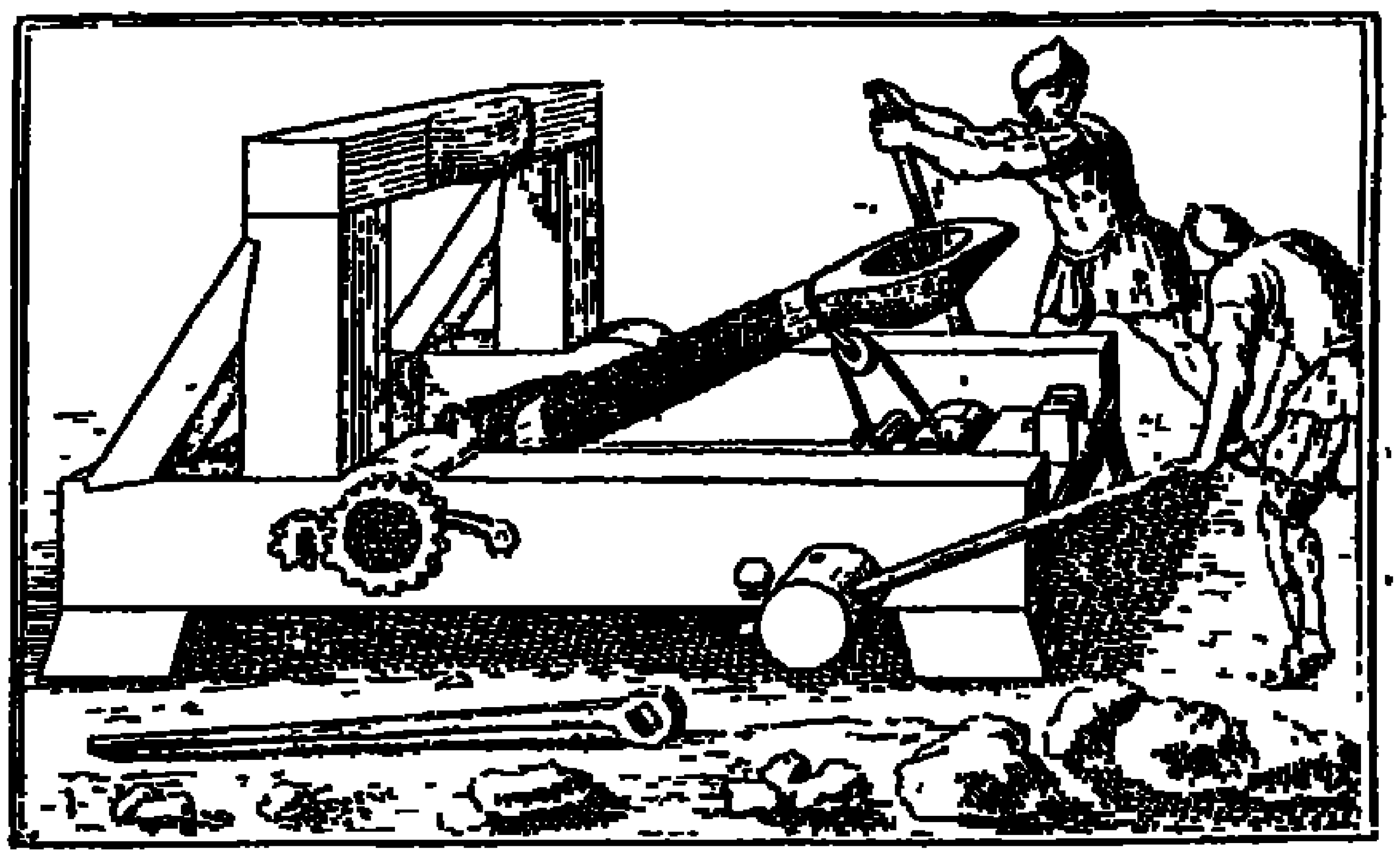

منجنيق صغير

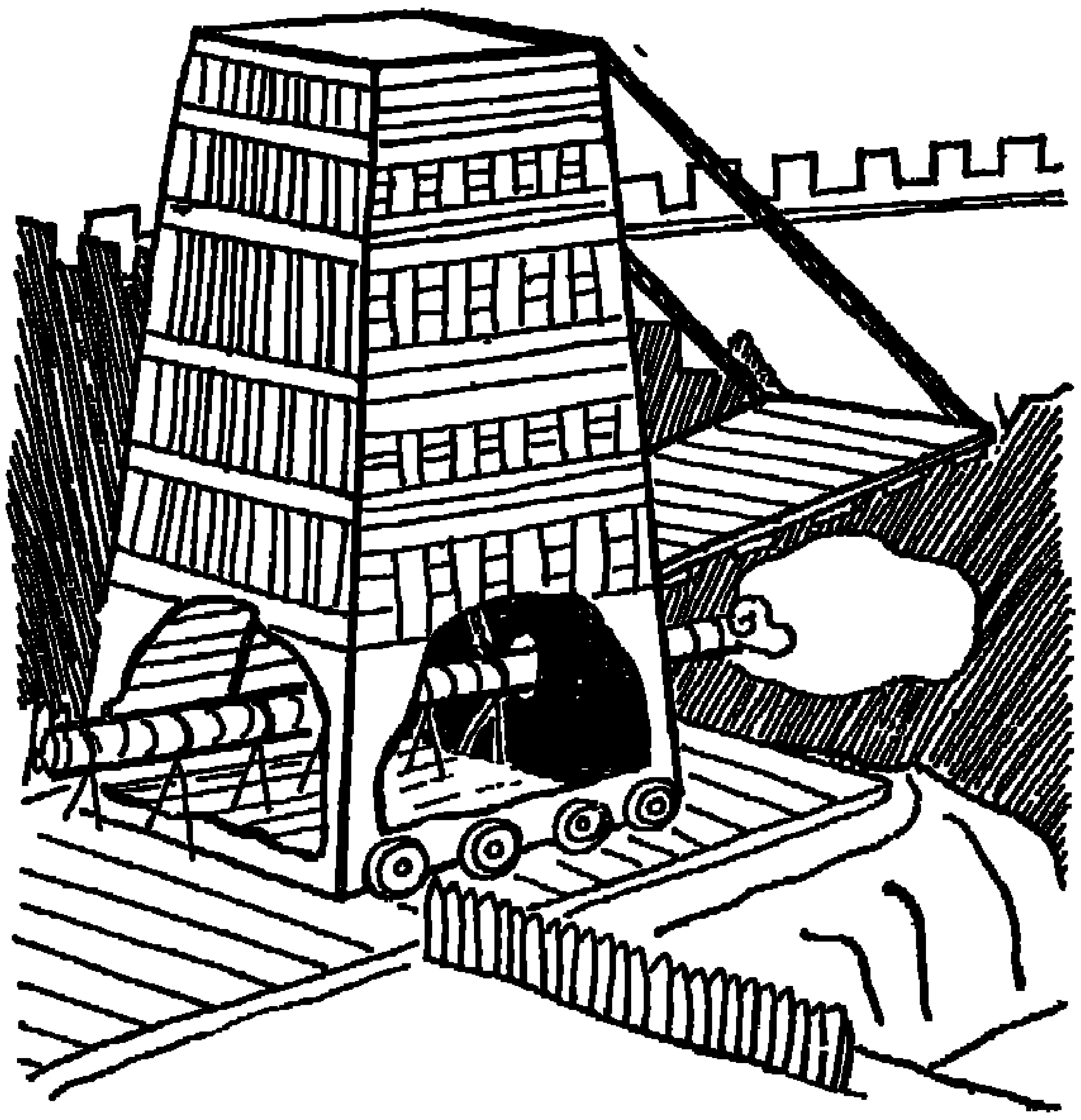

دبابة العصور الوسطى مزودة برأس الكبش

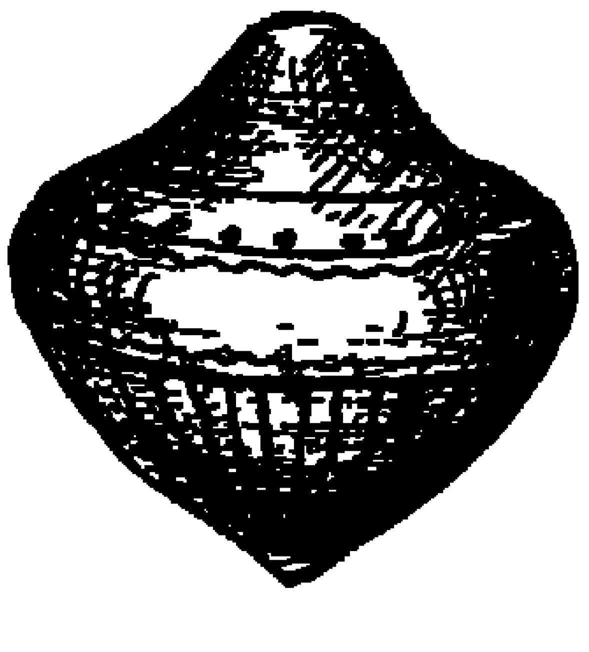

قنبلة يدوية

حديد أوخشب متين ويحفر عليه النقوش الإسلامية أو العبارات الدينية . وكان يسمى حملتها الطبر دراية (البلطجية) . وحينما يركب السلطان يكون هؤلاء حوله عن يمينه ويساره مستعدين لضرب من يجرأ على التقدم نحوه دون إذن وهم عشرة وأميرهم يسمى أمير طبر . وبمتحف فينا لتاريخ الفنون طبر للسلطان قايتباى .

الجنبية

مدية ما زالت تستعمل فى الخليج العربى وجنوب شبه الجزيرة العربية ، كذلك لأنها تثبت فى حزام وتوضع فى الجنب ولها أشكال منوعة وأجودها يصنع فى اليمن وإيران والهند . انتقل استخدامها إلى بعض أنحاء المغرب وألبانيا.

الخنجر

يعرف بالصلت وهو السكين الكبيرة أو المدية ، استعمل فى معظم البلاد الإسلامية وفى البلقان بعد أن تملكه العثمانيون . وفى تركيا يطلق عليه يطجان وللخنجر مقبض يصنع فى الغالب من العاج أو القرن .

القوس والسهم

القوس من أقدم أسلحة القتال، استخدم أولا فى الصيد فى الشرق قبل الغرب وكان منه نوعان على الأقل عند العرب ، قوس يد وقوس قدم ، وكانت تصنع من خشب النبع . وأقسام القوس هى : البدن والوتر ، وكان يصنع من خيوط مفتولة أو شراك جلد . وقد صنع المسلمون فى العصور الوسطى من القسى آلات مركبة واصطنعوا أيضا لرمى السهام ضروبا من المجانيق توضع فى الواحدة منها عدة سهام وترمى منها بالقسى .

والسهم من آلات الرمى بالقوس وكانت تصنع من النبع والشوحط وهو مستدير أو مصفح إذا كان عريضاً وله أنواع شتى منها :

المريخ : وهو سهم طويل وله أربع آذان .

الصيخ : هو المصلب بالنار .

الحظوة : وهو سهم طوله ذراع ، والرهب وهو السهم العظيم .

وأقسام السهم — النصل وهو الحديدة الجارحة فى رأس السهم ، والعود مابين النصل والعقب ، والعقب وهو القسم الذى يوضع فيه الريش ، والعزف موضع الوتر من السهم ، والسهم المصنوع من الغاب يعرف بالنبل ويطلق عليه الفرس والترك النشاب وواحدته نشابة ويصنع من الخشب .

المقلاع

أبسط أنواع الآلات القاذفة ولذلك يمكن إلحاقها بالقسى . يستمان فيها بقوة الطرد المركزية وذلك بجعل القذف فى طرفها بين حبلين يجمعان فى يد القاذف من الطرف الثانى فيديرها ثم يخلى أحد الطرفين فينبعث المقذوف بعيدا. ويسمى المقلاع محذفة وقد عرف منذ القدم عند المصريين وسواهم . أما العرب فكان المقلاع عندهم لعب الأطفال .

السيف

نختتم الأسلحة الهجومية بالسيف أمير الأسلحة البيضاء وأنبلها ، عرفته الأمم القديمة والعرب منذ جاهليتهم . اشتهرت مدن شتى بصناعة السيوف فى العالم الإسلامى ولا سيما اليمن ودمشق والقاهرة ودمشق وطليطلة وسرغسطة (الأندلس) ، شاع السيف المستقيم فى أنحاء العالم إلى حوالى القرن الثالث عشر ثم بدأ استعمال السيف المقوس ذى النصل الواحد . وكانت تنقش على نصل السيوف آيات قرآنية أو عبارات تشيد بصولة السيف ، كما تحفر على بعضها الزخارف الطريفة .

كان الفيلسوف العربى الكندى أقدم من كتب رسالة فى أجناس السيوف وأشكالها وطريقة صنعها . وقد اشتهرت فارس بسيوفها فى العصور الوسطى وذاع اسم أسد الله الاصفهانى صانع السيوف ، وتعرض كثير من أعماله فى المتاحف حتى اليوم

وكان السيف العربى يصنع من الحديد (سيف أنيث) ، أو من الصلب (سيف فولاذ) ، وكان السيف إلى اليوم أفخر الهدايا التى يمنحها السلطان إلى المقربين إليه أو يقدمها لملك أو سلطان مثله .

---

(١) عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الإسلامى القاهرة . ١٩٥٧ ،

تطورت على مر الزمن صناعة السيف عند الشعوب الاسلامية، فسقوا السيوف وأعدوا منها الرهف الباتر، وكانت لهم سقايات شتى بمختلف المواد ومن أجودها السقاية بالبورق والملح وملح البول والزرنيخ والنورة على نسب ذكروها فى بعض المؤلفات . وتبدو علامات السقية على نصال السيوف ، وبها تميز وقد عرفت باسم « الجوهر »

وتتخذ للسيوف — الأغماد المصنوعة من الخشب المغطاة بالجلد الثمين ، وللسيف حمائل تكون على أوساط الجند .

الأسلحة الدفاعية

الخوذة (البيضة) والمغفر

أهم آلات الدفاع المعدنية ، تلبس لوقاية الرأس . والمغفر (الغفارة) يغطى الوجه كله فلا يظهر منه إلا العينان ويدلى بعضه وراء الظهر مشدداً بالخوذة ويسمى رفرف الدرع وقد تمتد على الأذرع . وقد وصلت الينا طائفة من الخوذات المصرية التى تنسب إلى سلاطين وأمراء المماليك البحرية والشراكسة ، نذكر منها على سبيل المثال خوذة نقش عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمتحف پورت دى هال ببروكسل (بلجيكا) وعليها نقش إسمه ، وللسلطان برسباى (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) خوذة نقش إسمه عليها بمتحف اللوفر بباريس .

تجفاف

آلة أخرى كان يلبسها الفارس ويتقى بها كأنها درع وترادف كلمة بركستوان التى يستعملها المماليك .

الترس

أهم أسلحة الدفاع منذ القدم وهو صفحة من الفولاذ مستديرة أحياناً وتحمل فى اليد ويتلقى بها المقاتل ضربة السيف ونحوه .

كان للترس عند العرب أسماء شتى ، منها الجحفة والدرقة والمجن وكان

يصنع من الخشب المغطى بالجلد . والترس العربى مستدير الشكل و بسيط. ومنها المسطح والمستطيل المحفر الوسط والمقبب ، فالمقبب المنحنى الأطراف ولكل منها فائدة وقد تفنن المسلمون فى صنع التراس ونقشوا عليها الآيات القرآنية والحكم والعبارات الطريفة ، وتميزت تراس كل بلد بشكل خاص ومنها الترس الدمشقى والعراقى والغرناطى . ومما يتخذ للوقاية : الستور والطوارق .

الطاوقة

تشبه العباءة وكان يستخدمها المقاتل للوقاية . ذكرها النويرى وأمر السلطان بالطوارق والجفاتى قصفت وجعل الرماة وراءها وقد استعمل الصليبيون الطوارق .

الدرع

فى الأصل ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس فى الحرب . والزرد الدرع المزردة ، سميت به للينها وتتداخل حلقاتها بعضها فى بعض . . والزرد إسم جامع للدروع لسائر الحلق لأنه مسرد وتثبت طرفا كل حلقة بالمسمار - ويلبس الدرع على ثوب من النسيج المبطن يشبه الوسادة ، وقد وصلت صناعة الدروع إلى أوجها عند العرب فى أثناء الحروب الصليبية فى القرنين ١١ و ١٢ و ١٣، ونقلت صناعة الدروع الأنيقة إلى أوروبا بوساطة الصليبيين .

وأحسن أنواع الدروع ما كان يصنع من حلقات الصلب :

قوم إذا لبسوا الحد يد تنمروا حلقاً وقداً

وتؤلف الدروع الكاملة (المركبة) من : الجوشن وهو الجزء الذى يقى الصدر ، والبيضة أو الخوذة ، والمغفر وهى الأجزاء التى تقى الرأس ، ثم أجزاء أخرى لوقاية الساعدين والساقين والكفين ولكل منها إسم خاص . ويشاهد إلى اليوم عدد وفير من الدروع الاسلامية وأجزائها .

ويطلق على الدروع كلمة لبوس، وكلمة لأمة وهى الدرع والصفائح المعدنية

التى يرتديها المقاتل وتجمع على لؤم على غير قياس ويقال استلأم أى لبس اللأمة .

القفع

جنة من الخشب يدخل تحتها المشاة ويمشون بها فى الجبهة حتى يقتربوا من جدران الحصون وقد استخدمها العرب وغيرهم حتى نهاية العصور الوسطى .

آلات الحصار وأسلحتها

برج الحصار

كانت تصنع الأبراج من الخشب المتين وتغطى بالحديد والجلد وكان الغرض منه الاقتراب من حصون العدو والأسوار لاقتحامها ولقذف السهام أو الأحجار أو غيرها من القذائف . وفى معظم الأحيان كان البرج يجر على عجلات خشبية أو حديدية أو يدفع على أسطوانات . وكان البرج يتألف من عدة أدوار (طوابق) يعلو بعضها بعضاً ويوصل اليها بدرج من الداخل وينتهى البرج بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على جدار الحصن أو السور ليجرى عليها المقاتلون عند إقتحامهم العدو .

الدبابة

آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها المقاتلون ؛ فيدبون إلى الأسوار لينقبوها وهى شبه برج متحرك ؛ له أحياناً أربعة طوابق : أولها من الخشب وما بها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ؛ ورابعها من النحاس الأصفر . ويتحرك هذا البرج على عجلات تصعد إلى طبقاته الجنود لنقب الحصون وتسلق الأسوار . وكانت الدبابات تسبق المشاة حتى تقترب إلى مسافات قصيرة من مواقع العدو أو حصونه ، وهناك تؤثر تأثيرها المطلوب وهى تقذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال . وكان القادة يخصصون بعض الجنود للسير أمام وخلف الدبابة لتسوية طريقها وإزالة الموانع التى يضعها العدو فى طريق المحاربين بها . وقد ورد ذكرها مراراً فى كتب مؤرخى العرب .

العرادة

آلة أصغر من المنجنيق ، تلقى بها الأحجار على مسافات طويلة ، وفى العصور الأخيرة أطلقت كلمة عرادة على عربة المدفع . والعروسك هو المنجنيق الصغير .

الكبش

آلة من الخشب والحديد ، يجرونها بنوع من الحبال تدق الحائط فيتهدم وأصل الكبش ، دبابة له رأس فى مقدمه مثل رأس الكبش ، ويتصل هذا الرأس فى داخل الدبابة بعمود غليظ متعلق بحبال تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها . ويتعاون الجنود الذين يتحصنون فى داخل الدبابة وجنود آخرون استتروا بدروع الدبابة ، ووقفوا خلفها ليتعاون كل هؤلاء على ضرب السور بها حتى يخرقوه . فيتسللون إلى داخل البرج أو القلعة .

المنجنيق

إستخدم المنجنيق فى حصار الطائف في زمن النبي. والمنجنيق أنواع أهمها :

١ - لرمى السهام إذ توضع فى المنجنيق الواحد عدة منها وترمى عنها بالأقواس إلى مسافات بعيدة وبقوة خارقة وكانت تصنع بأحجام ضخمة

٢ - لرمى الحجارة لهدم الحصون بالحجارة الضخمة .

٣ - لرمى قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النار اليونانية

٤ - لرمى العقارب أو سلاسل الرماء وغيرها من الرمم المعفنة .

ويعتبر العصر الذهبى لاستخدام المنجنيق- القرون ١٢ -١٣ - ١٤ . قبل إستخدام المدفعية .

الحسك (الأسلاك الشائكة)

الحسك فى العربية نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم وورقه كورق الرجلة . والحسك من أدوات الحرب عند قدامى الإغريق والفرس والروم والعرب .

يتألف من قطعة حديد ذات شعب تطرح فى جبهته القتال حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها . وكان لحسك الخشب ثم الحديد شأن خطير فى الحروب القديمة ، عرف العرب حسك الحديد فى صدر الاسلام واستخدموه فى معركة « جلولاء سنة ١٦ هـ (٦٣٧م) حينما غلبوا الفرس . وذكر الرحالة العربى ابن حوقل الذى إنتهى من رحلته سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) أن المسلمين اتخذوا حسك الحديد فى فتح « أنيوا » إحدى مدن الصعيد كان بينها وبين أسوان مرحلة فى سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٦م) وتغلبوا على زعيم قبائل البجة .

النار اليونانية والنفط والبارود

النار اليونانية والنفط

ننتقل بعد لك إلى إستخدام النار اليونانية فقد أخذها العرب عن الروم البيزنطيين ويرجع إختراعها إلى كالينوس البعلبكى الذى نقلها إلى القسطنطينية وبقيت مواد تركيبها مجهولة مدة طويلة حتى اطلع عليها العرب . وهى مزيج من الكبريت وبعض الصموغ والدهون يطلقون بها من أسطوانة نحاسية ، ويقذفون منها السائل مشتعلا أو يطلقونه على هيئة كرات مشتعلة،واستخدموها فى معارك بحرية شتى وفى معركة المنصورة .

النفط والنفاطة

استخدم القدماء المواد الملتهبة كنوع من القذائف كالسهام الملتهبة والصواريخ ثم جاءت النار الاغريقية فاستخدمت على نطاق واسع .

يسمى رامى النفط نفاطاً وكان يلبس ثوباً خاصاً إسمه لباس النفاطين لكيلا يصيب نفسه بأذى . وقد قيل أن مخترع هذا الثوب إسمه محمد بن يزيد ، إرتداه عندما اقتحم نيران مدينة هيرقلية بعد وقوعها فى قبضة جيش هارون الرشيد . والنفاطة هى الآلة التى تقذف النفط ورد ذكرها فى كتاب عماد الدين الأصفهانى فى موضعين . أولها : « رجمت بشهب النفاطات شياطين الداوية المردة » وعن طريق النفط استعملت الألغام فى البر .

القنبلة

أصلها كلمة تركية « قانوبور » نقلها العرب منهم ، ونطقوها قنبر ، ثم قنبرة . كانت تطلق على حشوة المدفع ، ثم توسعوا بها وأطلقوها على كرته الحديدية . وتستخدم اليوم كلمة قذيفة . والقنابر أنواع عدة منها ، قنابل النحاس وقنابل الحجر ، وتتخذ من حجر مستدير ، ويجعل فيه خزائن تملأ بلزاق من النفط والمصطكى وغيرها . وقنابل الزجاج وتملأ من دهن يتركب من نفط مصعد وكبريت وكندس ، وغيره ، ثم ترمى هذه القوارير بالمنجنيق فتلطخ المكان الذى تقع فيه ، ويؤتى بعد ذلك حجر عليه نفط مطبوخ تشعل فيه النار ، ويرمى حيث تقع القوارير ، فيلتهب المكان . وقنابل اليد التى تحشى بالنفط والصبر وبذر القرطم المقشور وغيره ويجعل لها فتيلة ، فيشعلها الضارب ثم يرمى بها فيكسرها ، وهناك القنابل المضيئة ، والقنابل الخانقة المملوءة بالكلس المطفى يتصاعد غباره إلى أنوف الجند ، وعيونهم فيعجزون عن القتال (١)

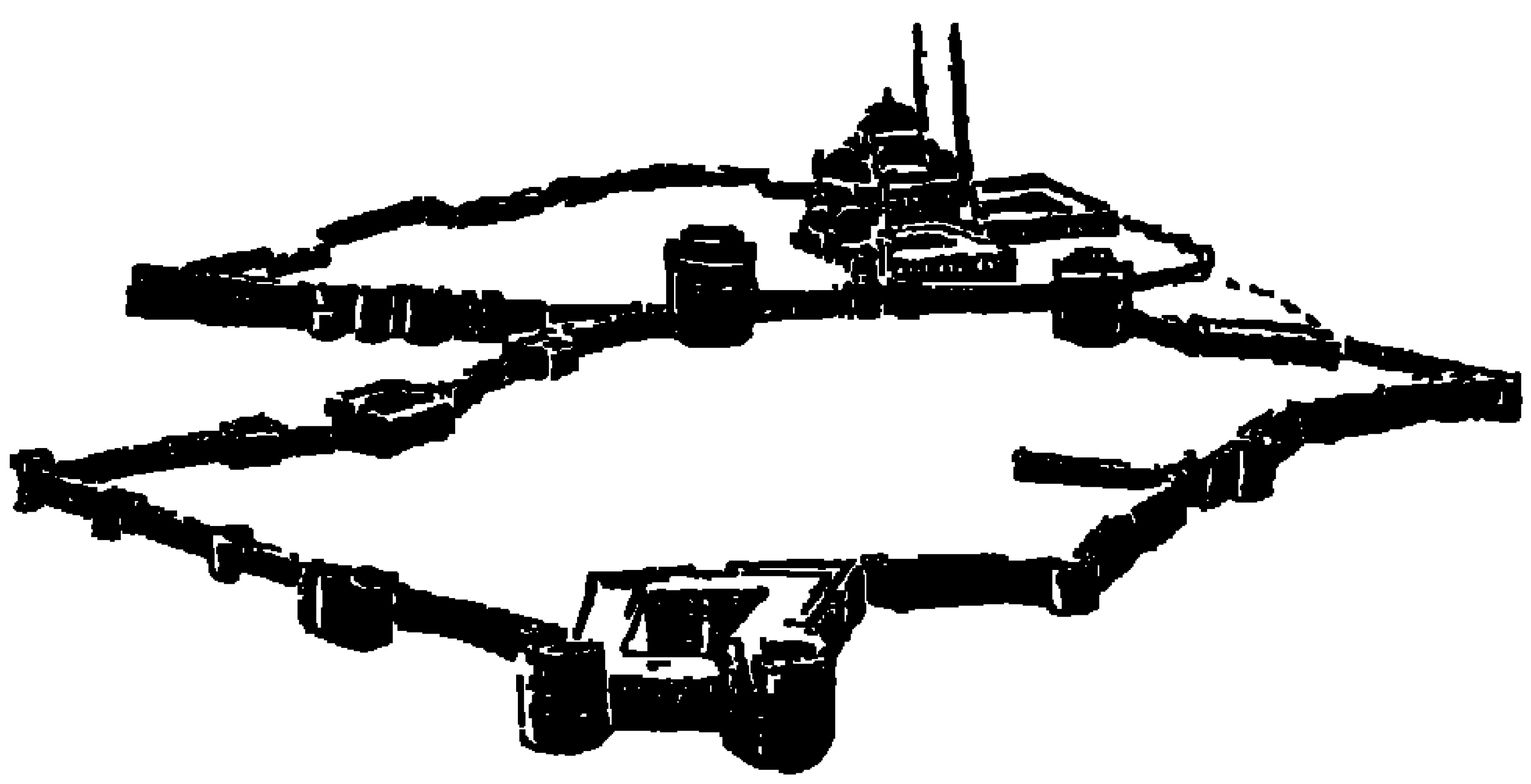

الإطار الخارجى لقلعة الجبل

(١) « عبد القادر المغربى : مجلة مجمع اللغة العربية » ، القاهرة

٣ — السياسة الدفاعية في العصر الأيوبي

٢ — قلعة صلاح الدين

تعرضت أيام صلاح الدين الأيوبى الأولى فى مصر إلى مؤامرات خطيرة ، دبرتها البقايا الفاطمية بالقاهرة بالاتفاق مع وليم الثانى ملك صقلية وأمورى ملك بيت المقدس ، وسنان رئيس الحشيشية . علم صلاح الدين بتلك المؤامرة أوائل سنة ١١٨٤ (٥٦٩ هـ) ، وكان المفروض أن تنفذ فى العام السابق أثناء حصار صلاح الدين لقلعتى الكرك والشوبك ، فيقطع الصليبيون عليه طريق الرجعة عند ثغر أيلة . ثم أرجئت تلك المؤامرة وتنفيذها بسبب عودة صلاح الدين فى سرعة . فأفسد على المتآمرين خطتهم وشنق الزعيم عمارة اليمنى وثمانية من رءوس المؤامرة بالقاهرة يوم ٦ أبريل سنة ١١٧٤ (١٢ رمضان سنة ٥٦٩هـ) قبل وفاة السلطان نور الدين محمود بشهر واحد، وهزم الاسكندريون أسطول صقلية.

ولم يكد ينته صلاح الدين من تلك المؤامرة حتى شبت فتنة شعبية فى الصعيد فى سبتمبر سنة ١١٧٤ (٧ صفر سنة ٥٧٠) دبرها كنز الدولة الأمير السودانى والى أسوان وعباس بن شادى والى قوص وهما من المخلصين للفواطم والراغبين فى إعادة حكمهم فى مصر ، فجرد لهما صلاح الدين حملة من الجند بقيادة أخيه العادل سيف الدين ومعه من الأمراء حسام الدين أبى الهيجاء السمين وعز الدين موسك ، وعدة من الأمراء وصحبه فى تلك الحملة مهذب بن مماتى واستطاع العادل أن يهزم عباس بن شادى ويقتله وأن يهدم الفتنة بهزيمة كنز الدولة وقتله . وفى ١٥ مايو سنة ١١٧٤ (١١ شوال سنة ٥٦٩) توفى نور الدين وهو يتأهب لغزو مصر ومحاسبة صلاح الدين، فخلا الجو لصلاح الدين واستطاع العادل أن يخمد الفتنة نهائياً فى سبتمبر سنة ١١٧٦ (٥٧٢ هـ) وتعقب العادل الثائرين إلى أقصى حدود مصر ، وقتل من أهل قفط قرابة ثلاثة آلاف [١] .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٧٦ طبعة مصر .
أنظر أيضاً : Stanley Lane - Poole : Saladin. 1. 101.

دفعت الفتن الدامية صلاح الدين إلى التفكير فى بناء قلعة يأوى إليها رجاله إذا دهمهم خطر الفواطم داخل البلاد ، أو هاجم أنصارهم ثغوره بمصر والشام . ولا شك ، أنه ببنائه القلعة كان مسترشدا بما شهد منذ حداثته فى سـوريا من قلاع البيزنطيين والعرب والصليبيين — وحيث أحيطت كل مدينة هامة بسور خارجى و بنوا داخلها قلعة تأويهم وجنودهم وأهلهم .

عاد صلاح الدين إلى القاهرة يوم ٢٢سبتمبر سنة ١١٧٦ ، وأعطى الأوامر ببناء القلعة (٥٧٢ هـ ـ ١١٧٦) ودعم أسوار القاهرة ومصر، وعهد بذلك إلى الأمير بهاء الدين قراقوش وزيره . فبدأ بالقلعة ثم سور القاهرة فالخندق الذى يحوطه .

شكل القلعة الأصلى عبارة عن معقلين كبيرين ، المعقل الشمالى على شكل مستطيل تقريباً ، شيد فى سوره أبراج مستديرة حصينة خارجة عن السور الملتصقة به و بارزة عنه ومتباعد بعضها عن بعض بمسافات مقدرة بالنسبة إلى مرامى الأسلحة ويفصله عن المعقل (المربع) الجنوبى جدار سميك وأبراج ضخمة ويخرج هذا المربع من الشمال مكوناً معه زاويه قائمة . وتخطيط هذا المربع ليس منتظماً .

لم يتم بناء القلعة وتتخذ مقراً للملك إلا فى عهد ابن أخى صلاح الدين — الملك الـكامل (٦٠٤هـ — ١٢٠٧ م) وهو الذى أكمل بناءها . ومما يذكر أن صلاح الدين ترك كتابة تاريخية منقوشة على باب المدرج وهو الباب الرئيسى للقلعة حتى أيام محمد على — فى غربى القلعة وهذه الـكتابة مؤرخة سنة ٥٧٩ هـ ويشير هذا التاريخ إلى نهاية أعمال صلاح الدين فى قلعته ، وينبغى أن نذكر أن هذه الأعمال لم تـكن خاتمة عمارتها ، فقد أضيفت إليها أجزاء كثيرة بعد ذلك التاريخ، ويمكن القول بأن الجزء الأكبر من مبانى القلعة تم فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) .

أما بئر القلعة فمن المحتمل أنها تمت فى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وكان

حول السور الشرقى من القلعة خندق لاتزال معالمه ظاهرة ، فإن الصخر محفور إلى عمق عظيم بحيث يضاعف ارتفاع الحائط.

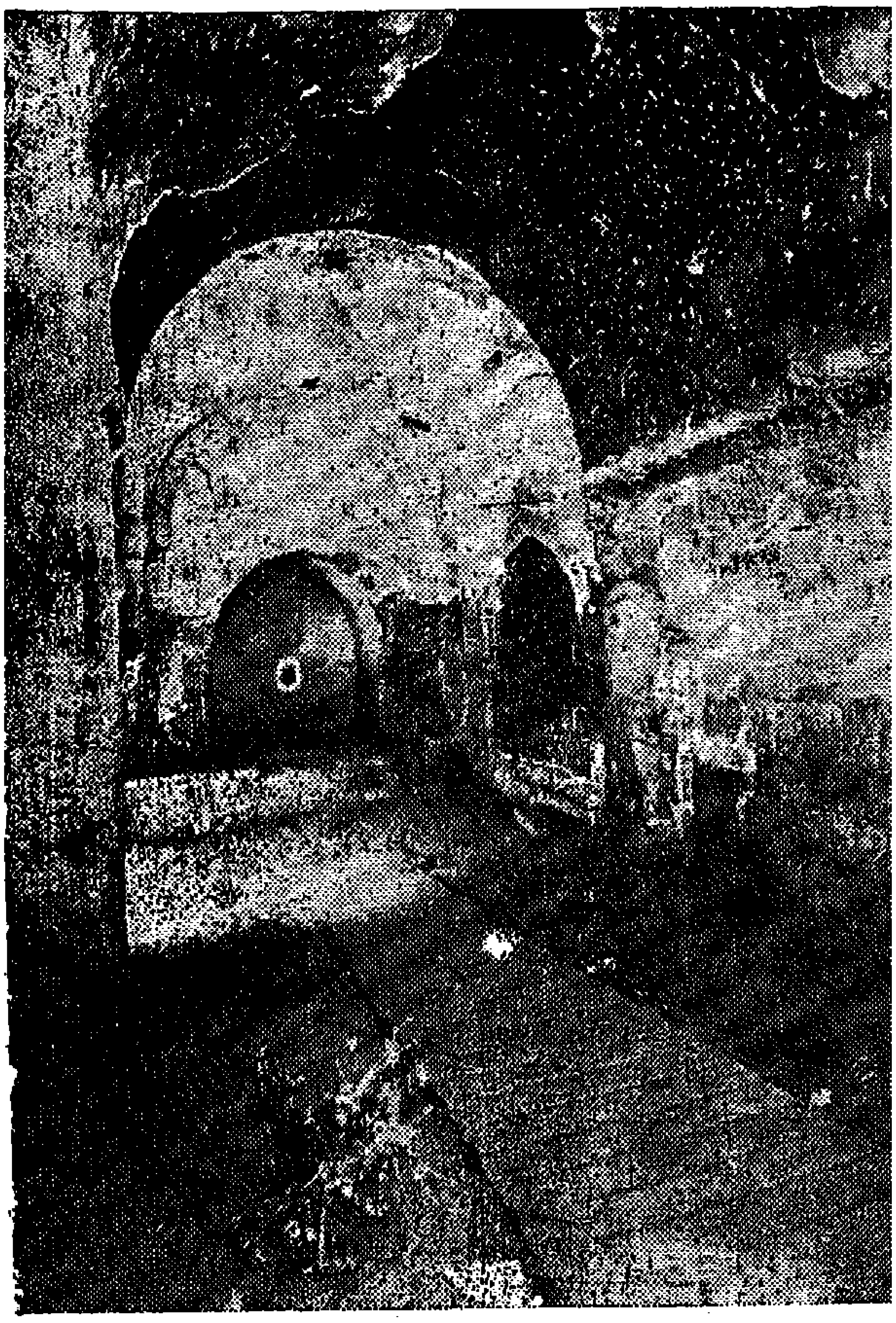
باب المدرج بقلعة الجبل

كان للدخول إلى القلعة فى أيام الأيوبيين بابان أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج وبداخله مجلس والى القلعة ، والباب الثانى باب القرافة وبينهما مساحة فسيحة . ولكن المؤرخ القلقشندى صاحب صبح الأعشى الذى انتهى من كتابه فى عام ٨١٤ هـ يختلف مع المقريزى فى عدد أبواب القلعة ، فقد أوضح أنه كان للقلعة ثلاثة أبواب ، أحدهما من جهة القرافة وجبل المقطم وهو أقلها استعمالا ، والثانى باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة وكان هذا الباب لايفتح إلا لدى وصول من يستحق الدخول أو الخروج منه ، فيفتح له ثم يغلق ، والثالث هو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائر الناس ويرقى إليه فى درجات متناسبة . وهناك باب القلة

الداخلى وهو ينتصف السور الذى يفصل بين قسمى القلعة . وإذا عبر الزائر باب القلة وسار فى الاتجاه الشرقى مع السور وصل إلى برج المقطم الذى يعتبر حلقة الاتصال بين الجزء الشمالى من القلعة والجزء الجنوبى منها . ويتفرع من برج المقطم خطان من التحصينات ، يتجه أحدهما جنوباً لسور الجزء الجنوبى من القلعة وبه ثلاثة أبراج ، على حين يتجه الخط الثانى شرقاً لسور الجزء الشمالى من القلعة ولا يزال برج المقطم حافظاً لمظهره الضخم وبه صهريج ماء كبير [١].

وعلى مسافة ٩٠ متراً شرقى برج المقطم يقابل الزائر برج كركيلان ، ويتخلل السور بين هذين البرجين الكبيرين فى تلك المسافة برجان صغيران هما برج الصفة وبرج العلوة ، ثم يبرز من السور على بعد ١٥ متراً شرقى كركيلان ، برج نصف مستدير هو برج الطرفة ، ومنه يمتد ستار طوله ٢٥ متراً إلى برج المطر وهذا البرج عبارة عن برجين ملاصقين ، وشكل كل منهما شكل الدائرة . ويخرج من برج المطر ستار طوله ٥٩ متراً ينتهى عند برج المبلط المقام عند برج المبلط المقام عند الزاوية الجنوبية الشرقية ، وهو نهاية السور الجنوبى من من الجزء الشمالى من القلعة . وبرج المبلط أقراب أجزاء القلعة مسافة بالمقطم حيث تبلغ المسافة بينهما ٣٥٠ متراً .

يبدأ السور الشرقى من برج المبلط فى اتجاه ١٧٥ متراً على استقامة واحدة ويتخلله برجان نصفا مستديران يسمى أحدهما برج المقوصر والثانى برج الإمام ، ويقسمان إلى ثلاثة أجزاء طولها ٥٥ و ٥٣ و ٤٣ متراً على الترتيب وتتكون الأبراج من طابقين لكل غرفة من غرفها ثلاث مزاغل . وإذا ترك الزائر برج الإمام وصل إلى برج مستدير على مسافة ٦٦ متراً وعلى مسافة ٢٢ متراً منه يقع برج الحداد ، وهذان البرجان الأخيران يتسلطان على الطريق بين القلعة والمقطم

---

(١) نسب الاستاذ كريسويل بناء برج المقطم وغيره من الأبراج المتعددة الاضلاع والملاصقة للبوابة الداخلية ، وكذلك البرج الواقع فوق الباب الوسطانى وبرج الزاوية الشمالية الغربية وأجزاء من السور الموصل بين برج المقطم وبينهما ، ليس إلى صلاح الدين بل إلى الحكام الاتراك الذين عاشوا خلال القرن السادس عشر أو بعده

ويمتد السور الشمالى للقلعة من برج الحداد إلى برج الزاوية الشمالية الغربية وطوله ٥٦٠ متراً من الشرق إلى الغرب، ويقطعه على بعد ٢١ متراً غربى برج الحداد — برج الصحراء الذى يعلوه اليوم صهريج ماء . ويظهر شكل برج الصحراء من الخارج كبرج نصف دائرى بينما يبدو من الداخل على شكل مستطيل . ويصعب على المهندس الخبير أن يتعرف على الأجزاء الأيوبية (ولا سيما الصلاحية) فى الجزء الباقى من السور الشمالى بما فية الزاوية الشمالية الغربية، وكذلك السور الغربى الذى يتخلله باب المدرج وذلك لكثرة مابهما من التعديلات والإضافات التى أدخلت عليهما فى العصور اللاحقة لعصر صلاح الدين (١) .

أما المربع الثانى وهو الجنوبى من القلعة، فيمتد من برج المقطم جنوباً ويلتف حول مايعرف اليوم بقصر الجوهرة ودار الضرب وجامعى محمد على والناصر محمد بن قلاوون وبعض مخازن الأسلحة القديمة، ويفصل المربع الجنوبى عن الشمالى سور غليظ يتوسط باب القلعة .

وعلى أيام دولتى المماليك فى مصر والولاة العثمانيين وفى أيام أسرة محمد على أضيف إلى القلعة كثير من المبانى الضخمة كالمساجد والقصور ودار الضرب وغيرها من الأبراج والأبواب، ونذكر منها على سبيل المثال باب العزب الذى يطل على ميدان صلاح الدين .

---

(١) تنسب إلى الملك السلطان العادل شقيق صلاح الدين — الأبراج الثلاثة الكائنة بالسور الجنوبى وهى برج الصفة وبرج كركيلان وبرج العلوة والزيادة التى أضيفت لباب القرافة (الامام والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد، والجزء الداخلى ببرج الصحراء والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور وقد تمت أعمال الملك العادل عام ٦٠٤هـ (١٢١٦/٧م) . كريسويل أبحاث أثرية فى قلعة القاهرة ١٩٢٤ (فى اللغة الانجليزية)

٢ — دعم أسوار القاهرة فى أيام صلاح الدين

ذكر عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين مايلى :

« كان السلطان ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها ، فقال إن أفردت لكل واحدة سوراً احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء » . وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم .

ابتدأ السلطان عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠ - ٧١ م ، فانتدب الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة . وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة ، سوراً واحداً فزاد فى سور القاهرة ، الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ؟ ومن قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك ، وكان أمله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ، ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل .

السور الغربى

وشرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) فى بناء السور الغربى للقاهرة ، على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محازاة سور بدر الجمالى وسور جوهر ، وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى امتدت من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى الشمالى ، واتجهت نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين ، لكنه أوقف العمل ورأى أن يزيد فى سور القاهرة الشمالى ويمده إلى الغرب إلى شاطىء النيل الشرقى إلى ميناء المقس .

السور الشمالى

شيد صلاح الدين قطعة من السور الشمالى غربى البرج المستدير القائم على بعد ١٠٣ أمتار غربى باب الفتوح ، وتمتد هذه القطعة عند برج كثير الأضلاع، ثم تنحرف إلى الجنوب الغربى ، وتتجه ثانية نحو الغرب إلى أن تلتقى تقريباً بشارع الخليج المصرى ، وقد أزيلت قطعة منها عندما شق شارع الجيش ، وتستمر هذه القطعة من السور إلى ما بين سكة الفجالة وشارع الطبالة حيث مازالت توجد بقايا قاعدة برج مستدير ، كما بقيت أجزاء متناثرة من هذه السور وبرج يشهد على ذلك اسم شارع البرج عند ملتقى شارع الظاهر وشارع الفجالة . وامتد السور الشمالى إلى جهة الشرق ، حيث موقع برج الظفر . ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور للبرج المذكور .

السور الشرقى

يمتد هذا السور من باب الوزير إلى درب المحروق ، ومن درب المحروق، يمتد نحو الشمال إلى برج الظفر . وبه الباب الجديد وباب البرقية وباب القراطين (الباب المحروق) ولا يزال باقياً إلى اليوم أجزاء كثيرة من السور الشرقى ، منها الجزء الذى يمتد جنوبى برج الظفر بطول أربعمائة متر ويقع فى هذا الجزء الباب الجديد ، وتمتد قطعة أخرى إلى قبيل باب البرقية ، وتختفى أجزاء كثيرة تحت كيمان التراب . ومن السور المذكور القطعة التى تبدأ من برج درب المحروق ، وتسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ متراً إلى أن تنقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير ، وهذا الجزء هو أطول الأجزاء الباقية من السور الشرقى وحائط أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الخانقاه النظامية (وقد خربت اليوم) وبين بقايا لجامع السبع سلاطين (خرب) وطول هذا الجزء ١٢٥ متراً ، ويقترب من نهايته الجنوبية بسور القلعة .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

وأما الباقى من السور الشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر ، فلم يتهيأ للسلطان صلاح الدين أن يقوم به .

السور الجنوبى

لما مد صلاح الدين سور القاهرة الغربى إلى غربى السور الفاطمى ، جعل باب سعادة (الثانى) فى نهايته الجنوبية وشيد قطعة جديدة من السور الجنوبى للقاهرة تصل إلى باب الفرج (الثانى) ، ثم التحمت بسور بدر الجمالى وباب زويـلة .

أما سور الفسطاط الذى يبدأ من الطرف الجنوبى الغربى لقلعة الجبل إلى الفسطاط ، فلم يصل به إلى النيل ، وقد بقيت منه عدة أبراج لم يكشف عنها جيداً من الناحية الأثرية ، واحتوى هذا السور على كثير من الأماكن المعقودة السقوف لتسهيل عمل المدافعين عن المدينة . ولا يزال واحد منها قائماً على بعد سبعين متراً جنوبى القرافة ، وقد فتح الظاهر بيبرس فتحة فى حائط مجرى الماء ، وذلك ليسهل على أهل القاهرة الخروج بموتاهم إلى القاهرة (جبانة المماليك وسيدى جلال والإمام الشافعى) .

الأبواب الصلاحية

ننتقل إلى الكلام على الأبواب التى شيدت فى عصر صلاح الدين الأيوبى بالترتيب التالى :

١ ـ أبواب السور الغربى من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤ هـ - ١١٦٩م) :

ا — باب القنطرة الثانى ويقع على الحافة الشرقيه للخليج وعرف بهذا الإسم لوقوعه تجاه القنطرة التى كان القائد جوهر الصقلى قد شيدها على الخليج الـكبير فى سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٢ ـ ٧٣ م . (الخطط المقريزية جـ ٢ ص ١٤٧) .

ب — باب الخوخة وقد شيد فى مواجهة باب الخوخة الفاطمى ، ولا تعرف الظروف التى اختفى فيها هذا الباب ، وكان يقع على

مقربة منه مسجد باب الخوخة الذى يعرف اليوم بجامع القاضى يحيى زين الدين .

جـ — باب سعادة وقد عرف باب سعادة الأول (الفاطمى) لنسبته إلى أحد قادة المعز لدين الله الفاطمى سعاد بن حيان .

٢ — أبواب السور الشمالى (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) :

ا — باب البحر ، وكان يعرف بباب المقس ، لوقوعه فى قرية المقس ، التى كان يقال لها المقسم أو باب البحر ، لأنه كان يشرف على النيل . ثم عرف باسم باب الحديد إذ كانت عليه بوابة من الحديد ونسب إليه باب الحديد ، وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور ، وقد هدم حوالى عام ١٨٤٧

ب — باب الشعرية ، وكان يقع بين باب البحر والخليج الكبير فى السور الشمالى وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط المقريزية جـ ١ ص ٣٨٣) ، وقد رسم هذا الباب على خريطة القاهرة التى وضعها جران بك مدير التنظيم فى عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشعرية التى تعرف اليوم بسوق الجراية ، وقد أزيل هذا الباب فى عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وعرف فى القرن الماضى باسم الباب العدوى لوقوعه تجاه جامع العدوى .

٣ — أبواب السور الشرقى (٥١٢ هـ - ١١٧٦ م)

ا — الباب الجديد ، هو أحد أبواب السور الشرقى الصلاحى ، وقد عرف بهذا الاسم ، لأنه كان أول باب أنشىء فى سور القاهرة من ناحيته الشمالية بعد باب النصر ، وله بدنتان كبيرتان وقد كشفه الأستاذ كريزويل الأثرى المعروف .

ب — باب البرقية ، ذكره المقريزى (جـ ١ ص ٣٨٠) وكما تكلم عنه القلقشندى (صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٤) وقد بقى مدة طويلة

مختفياً تحت الأنقاض ، حتى اكتشفه المرحوم علي بهجت مدير دار الآثار العربية، ولا يزال هذا الباب موجوداً بأكمله ومحتفظاً بشكله الأصلي من الأساس إلى الشرفات ، وقد نسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمي ، وعرف أيضاً بباب الغريب

ج — الباب المحروق ، وقد بقي منه برجاه ، ذكره المقريزي (ج ١ ص ٣٨٣) ؛ والقلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) وقد عرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق المواشي والغنم ، وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط، وهو البرسيم .

٤ — أبواب السور الجنوبي للقاهرة (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م)

ا — باب الفرج الثاني ، ولا يعلم متى خرب .

٥ - أبواب سور الفسطاط (٥٧٢ هـ — ١١٦٩ م)

ا — باب القرافة ، سبق الكلام عنه ومازالت بعض أجزائه باقية .

ب — باب الصفاء ، خربه الظاهر بيبرس .

ج — باب الفسطاط ، مازالت بعض مداميك أبراجه الجانبية باقية

٣ — قلعة صلاح الدين بسيناء

قبل الكلام عن إنشاء هذه القلعة نسأل أنفسنا هذا السؤال :

ما الذى أوحى إلى صلاح الدين لبناء تلك القلعة فى قلب سيناء ؟

كان « ريجنالد دى شاتيلون » أمير الكرك من ألد أعداء صلاح الدين بين الصليبيين ، وقد أراد الشروع فى فتح بلاد العرب للاستيلاء على مدينة النبى والكعبة ، ولكى يحقق أغراضه اتصل ببدو سيناء بالرشوة . فاستطاع بمعاونتهم أن ينقل قطع أسطوله عبر الصحراء من الكرك إلى خليج العقبة ، ثم استولى على الميناء المصرية عيذاب أمام جدة . وجعلها مقر قرصنته البحرية ثم حاصر مدينة أيلة (العقبة) بحراً ومنع كل اتصال خارجى بها فأمر الملك العادل الذى خلفه السلطان صلاح الدين بالقاهرة الحاجب حسام الدين لؤلؤ بالسفر إلى القلزم حيث أعد أسطولا صنعت سفائنه فى مصر والإسكندرية وسار إلى إيلة وظفر ببعض سفن الفرنج وحرقها وأسر من فيها ، وسار إلى عيذاب وتبع مراكب الفرنج واستولى عليها . وأطلق من فيها من التجار الأسرى ورد عليهم ما أخذ لهم وصعد البر وأدرك من فر من الفرنج وأسرهم وساق منهم إثنين إلى منى ونحرهما فيها ثم عاد بالأسرى إلى القاهرة فى شهر ذى الحجة وضربت أعناقهم .

ولا شك أن تلك الحملة كانت جرأة عجيبة أقدم عليها أمير الكرك بينما كان صلاح الدين مشغولا بحروبه فى فلسطين . وكان هذا العمل درساً استفاد منه السلطان ولم يتركه يمر دون فائدة .

فمن ناحية الإنتقام من أمير الكرك فقد هاجمه فى عقر داره انتقم منه أشد انتقام . ولكن ما العمل مع رجال البدو من أهل سيناء ، وكيف يتغلب عليهم .

رأى أن يشيد هذا المعقل الحصين فى قلب ديارهم لكى يستطيع بجنوده البواسل تأديب البدو ويقضى على مؤامراتهم اللعينة ، فأمر بتشييد قلعته المنيعة والتى أمر بالبدء فى بنائها حوالى عام (١١٨٣ م أو ١١٨٤م) وكان انتهاؤه

منهـا فى عام ١١٨٧ وهو ما يتفق مع التاريخ الهجرى المنقوش أعلى الباب

وفى ذلك الحين نقل صلاح الدين مقر حكمه من القاهرة إلى دمشق، وخلف شقيقه العادل نائبا عنه فى حكم مصر ، فقام العادل بتشييد القلعة . فلما مات صلاح الدين وتولى العادل الحكم عام (١١٩٣م) زاد العناية بالحدود الشرقية ومراقبة البدو فزار سيناء عام ١٢٠٢ م بعد أن أمر ببناء مسجد وصهريج ، كما احتفظ بحامية تحمى البلاد .

موقع القلعة : رأس الجندى تل صغير يعلو ٢١٥٠ قدماً فوق سطح البحر ويرتفع ٥٠٠ قدم فوق السهل المستوى المجاور له . وهو ذو شكل فريد وموقع حاكم يجعلانه هيئة طبيعية ظاهرة على بعد ثلاثين كيلومترا . وهو غرض شهير هام للرحالة الذين يجوبون فى تلك الناحية الصحراوية بعيدين عن العمران ، وتعتبر رأس الجندى أكمة منفصلة عن جبال راحة الكلسية التى تؤلف حاجزا منيعاً بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس .

ويقع رأس الجندى على رأس وادى البروك أحد الأفرع الرئيسية لوادى العريش الذى يشغل سهلا فسيحاً يمتد إلى جميع المنطقة الوسطى لسيناء الشمالية . وإلى جنوب وادى الصدر الذى يخترق سلسلة جبل راحة إلى خليج السويس

وفى وادى صدر وعلى بعد خمسة كيلو مترات من القلعة التى سنتحدث عنها تقع عين صدر الطبيعية ذات المياه العذبة التى تمتاز بها . وموقع القلعة لا يبعد أكثر من عشرين كيلو متراً عن طريق الحج القديم الذى يبتدىء من السويس وينتهى إلى العقبة ماراً بنخل . وكان هذا الطريق هو الوحيد بين خليج السويس إلى شمالى سيناء وبلاد العرب .

ولذلك اشتمل هذا التل الصغير على أهم العناصر التى يتطلبها الموقع العسكرى، أولهما القرب من المياه الوفيرة وثانيهما الإشراف التام على الطرق الهامة وسهولة المواصلات

وصف القلعـــة

نستطيع أن نصف الموقع الطبيعى الذى تحتله القلعة إذا اقتربنا قليلا من رأس الجندى ، فهذا التل على شكل مخروطى له قمة مسطحة وجوانب صخرية حادة جداً.

والجزء الأصلى من التل كبقيه جبل راحة وطبيعة طباشيرية التكوين ولا يمكن تسلق جوانبه الشرقية والغربيه وإن تيسر الصعود على منحدره الشمالى أو الشمالى الغربى .

فإذا اتخذنا طريقنا مجتازين دربا ضيقاً ملتوياً واتبعنا بعض أجزاء الدرب القديم نحو المنحدر الشمالى والشمال، لوصلنا فى النهاية إلى قمة التل ووجدنا أنفسنا أمام جدار يتراوح سمكه بين مترين وثلاثة، مبنى بالحجارة الجافة ووراؤه خندق كان يمتلىء بالمياه يبلغ اتساعه خمسة أو ستة أمتار ويدور هذا الخندق حول الأكمة من ناحيتها الشمالية والشمالية الغربية فيزيد فى منعتها ووقايتها .

إذا عبرنا الخندق صعدنا فوق كتل من الحجارة المبعثرة بدلا عن درجات السلم التى وجدت فى الأيام السالفة والتى استبقى الزمن بضعة منها لا تزال راقدة فى محالها الأصلية . وإذا صعدنا عشرة أمتار أخرى لوصلنا إلى الجدار الأصلى وباب القلعة .

ولنقف لحظة هنا أمام هذا الباب لنقرأ نصاً هاماً من الكتابة منقوشاً على عقد الباب المسطح . ففى وسط النصف العلوى للعقد نشاهد اللوحة المنقوشة وعلى جانبيها رسم السيف والدرع اللذان اتخذها السلطان صلاح الدين شعاراً لدولته . وعلى الجزء الأسفل فى المربع الأوسط نشاهد النجمة المسدسة الأضلاع التى كانت على مايظهر شارة صلاح الدين المفضلة والتى نراها على عملته ، وعلى مبان أخرى شيدت فى عهده . وبقية اللوحات التى من الحجر الجيرى حسنة الشكل ومزررة ببعضها على الطريقة الإسلامية المستعملة إلى اليوم .

ونقرأ فى النص المنقوش بحروف ناتئة اسم منشىء القلعة وتاريخها وهذا نصه .

« بسم الله الرحمن الرحيم » صلى الله على محمد . خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين والملك يوسف بن . . . العادل الناصرى فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (أغسطس ١١٨٧ م)

وتخطيط قلعة صلاح الدين مستطيل الشكل يتجه فى اتجاهين شمال بشرق إلى جنوب بغرب وطرفها الجنوبى الغربى ينتهى بشكل نصف مسدس الأضلاع ويتراوح ضلع القلعة ما بين مائة وخمسين ومائة متراً طولا . وأوسع عرض لها يبلغ مائة متر، وسمك سور القلعة الخارجى يبلغ مترين مازال جزؤه الأسفل باقياً . أما زوايا القلعة (أركانها) فقد قويت بدعامات مربعة أو مستديرة وكانت لكل برج دعامة تسنده

وقد ضمت أسوار القلعة غرفاً صغيرة لرجال مسلحتها (حاميتها) وبعضها كانت تستخدم كمطابخ أو حمامات للغسيل . وقد كان فى صحن القلعة عدة مبان شيدت لأغراض مختلفة على مستويات عدة من الأرض الطبيعية لكنها تهدمت ولم تخلف سوى الإنقاض ، ومن هذه المبانى .

١ — ردهة مسطحها ٥٫٠٠ × ٦٫٠٠ أمتار وعمقها خمسة أمتار وهى تحت مستوى الأرض الطبيعية ومن المحتمل أنها كانت مخزناً للمؤونة أو مكاناً للاجتماع فى أثناء الشتاء .

٢ — مسجد دون سقف،وفى جداره الشرقى محراب. وعليها كتابة منقوشة للبسملة .

٣ — صهريج تحت الأرض يحتوى على خزان حجمه ٦٫٠٠ × ١٠٫٠٠ × ٥٫٥٠ متر مازالت جدرانه تحتفظ بطبقة من الملاط الجيد وله فتحتان،إحداهما لإدخال المياه منها ومتصلة بمجرى (سرداب) لتصريف المياه إلى داخل القلعة والأخرى مستديرة وضيقة لاشك أنها كانت تستعمل لسحب المياه منها . وقد كانت فوق الفتحة الأولى كتابة منقوشة بقيت منها البسملة وكلمة صهريج «وإسم» صلاح الدنيا والدين. ويتفق أسلوب الكتابة مع الكتابة الأخرى التى ذكرناها على باب القلعة .

٤ — وأكمل أجزاء القلعة التى مازالت محتفظة بحالتها القديمة هو بناء المسجد وفى أسفل صهريج المياه لتحتفظ ببرودتها فى تلك المنطقة الصحراوية فى

الصيف . والصهريج مشيد على الطريقة المشيد بها الصهريج السابق الذكر ولا يشتمل على كتابات منقوشة .

ومسطح المسجد ١٢٫٠٠ × ٦٫٩٩ من الأمتار وبجانبه الغربى باب له درجتان أو ثلاثة . والقبلة التى فى جداره الشرقى مزخرفة وقد كتبت عليها « البسملة » على أرضية من الملاط القرنفلى اللون ، وللمسجد فى جداره الشمالى نافذتان ، واحدة فى جداره الجنوبى . وكانت هناك فى الزاوية الجنوبية الغربية مناور صغيرة كما يستدل من الأساس المربع . وترى آثار بعض الدرج فى الداخل وهى تحدد مكان المنبر على يمين المحراب . وكانت فوق عتبة الباب الخارجى للمسجد لوحة عليها الكتابة الآتية :

« بناء استعمله الملك الناصر صلاح الدنيا والدين الملك العادل سيف الدين فى ذى القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وهذا يثبت أن تلك الإضافة عملت بعد انتهاء البناء الأصلى للقلعة بخمسة عشر عاماً فى أيام السلطان العادل .

٥ — ردهة مسطحها ١٥ متراً تحت مستوى الأرض الطبيعية لها سقف من العقود المقببة .

مياه القلعة

إن الذى اختار ذلك الموقع الحربى المنيع ليشيد فيه قلعة منيعة وليحتلها جنود السلطان لا بد أنه اختاره بعد بحث مشكلة المياه فى تلك البقعة الصحراوية .

فهناك على بعد خمسة كيلو مترات من قلعة صلاح الدين عين مياه اسمها عين صدر — فهى التى أمدت حامية القلعة بالمياه التى احتاجتها ، وهى مازالت إلى اليوم يلجأ إليها كل من يجتاز الصحراء ويمر بها . وكان بعد العين وصعوبة الحصول على مياهها قد جعل رؤساء الجند يفكرون فى طريقة أخرى لاستجلاب المياه فعمدوا إلى الانتفاع بمياه السيل المنهمرة بغزارة أثناء الشتاء فى وديان تلك الجهة واختاروا وادياً عميقاً يعبر قريباً من القلعة من ناحيتها الشماليه وشيدوا

سداً فيه يحجز مياه السيل ، وكان طول ذلك السد عشرين مترا وعلوه عشرة أمتار ويختلف سمكه من متر فى عاليه إلى خمسة أوستة أمتار فى أسفله . ولتقويته شيدت دعامتان فى منتصفه . وما زال هذا السد المنيع قائماً إلى اليوم يشهد بمتانة بنائه وتصميمه . وقد امتلأ الوادى فى خلف هذا السد ببقايا الرمال والأعشاب التى تحملها السيول الغزيرة .

وكانت مياه عين صدر ومياه السد تحمل على ظهور الجمال أو الخيول إلى سفح الأكمة التى شيدت فوق قمتها القلعة، ثم تحمل على ظهور الرجال إلى أعلا الحصن لتخزن فى الصهاريج . ولا شك أن هذا كان مجهودا شاقاً لرجال الحامية بجانب عملهم الدفاعى .

٤ — قلعة جزيرة الروضة

يصعب معرفة العهد الذى وجدت فيه جزيرة الروضة . ولكن أثبت بعض قدامى المؤرخين أنها لم تكن موجودة فى العصر الفرعونى . ولم تذكر جزيرة الروضة كموقع له أهمية حربية إلا فى عصر الفتح العربى . فقد كانت فى ذلك العهد ذات حصون ومنعة وكانت تزيد فى قوة حصن بابليون وخطره الحربى لأنها كانت وسط النهر تملك زمامه . . وقد لاذ بها زعماء الروم عند محاصرة الحصن وأقاموا داخل أسوارها المنيعة المحيطة بها من جميع جهاتها بين البساتين والحدائق الجميلة فى انتظار الفرج الذى لم يأت .. فطلب المقوقس الصلح . وقد دارت مفاوضات الصلح بين رسل القائد عمرو بن العاص وبين مندوبى المقوقس فى هذه الجزيرة أولا . فلما فشلت هذه المفاوضات غزا العرب تلك الجزيرة وهرب الروم منها . وبعد ذلك تم الصلح فى حصن بابليون كما هو معروف. وعندما دك عمرو أسوارها وحصونها بقيت مجردة عاطلة خاوية حتى أيام ابن طولون .

ففى إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ م — ٨٨٤) أعاد بناء أسوارها وحصونها (٨٧٦ م) وجعلها مقرا لخزائن أمواله واتخذ فيها القصور . وكان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقى من العراق ليتقلد الولاية على مصر . فلما

بلغ الأمر له استعد لحربه . فتثاقل موسى عن السير خوفاً من الهزيمة وعرضت عليه علة طالت به وكان بها موته ، فكفى ابن طولون أمره . ولم يزل ذلك الحصن على الجزيرة حتى احتواه النيل شيئاً بعد شيء ، وقد بقيت منه بقايا إلى أيام القرن الخامس عشر (١)

ومازال حصن الجزيرة عامراً أيام الأسرة الطولونية ، وأنشئت فيه دار صناعة السفن الحربية وكان فيها محل ديوان الجهاد ، فلما تقلد الأمير محمد بن طغج الأخشيد إمارة مصر (٩٣٤ — ٩٤٦ م) هزم جيش مصر الذى أعده ابن كيغلغ وأقبل فى سفينة إلى الفسطاط فاستولى عليها ثم أرسى بجزيرة دار الصناعة وحرقها ، ثم نقل محمد بن طغج دار الصناعة إلى ساحل الفسطاط وأنشأ موضعها فى الجزيرة بستاناً وداراً أسماها المختار ، وكان يفاخر بها أهل العراق

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٧٩ م) وسماه الروضة . وما برحت جزيرة الروضة متنزها ملكياً ومسكنا للناس إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل سلطنة مصر فى عام (٦٣٧هـ ١٢٤٠ م) فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وبقلعة جزيرة الفسطاط وبقلعة الجيزة كما ذكرها المؤرخ أبو الفداء (٢)

وها هو ذا ماذكره عن القلعة المؤرخ المقريزى(٣) المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) فى يوم الأربعاء خامس شعبان عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩م) شرع فى حفر أساس القلعة وابتدأ بنيانها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشرة ، وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة

---

(١) للقاضى ابن عمر وعثمان النابلسى كتاب عن هذا الحصن سماه « حصن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » مفقود الآن . ذكره المؤرخ المقريزى فى الخطط ونقل عنه (ج ١ ص ٣٢٦ طبعة بولاق) وذكره أيضا السيوطى فى كوكب الروضة

(٢) المختصر فى تاريخ البشر ص ١١٩

(٣) طبعة بولاق ج ١ من ص ١٨٣ الى ١٨٥

وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقيـــاس وأدخلها فى القلعة وأنفق فى عمارتهـا أموالا جمة وبنى فيهـا الدور والقصور وعمـــل لها ستين برجا وأقام بها جامعه وغرس بداخلهـا أنواعاً شتى من الأشجار ونقل إليها عمد الصوان من البرابى وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والأزواد والأقوات خشية من محاصرة الفرنج فإنهم كانوا حينئذ على عزم أن يقصدوا بلاد مصر وبالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة حتى قيل إنه استقام كل حجر فيها بدينار (٦٠ قرشاً) وكل طوبة بدرهم،وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل فصارت تزهو من كثرة زخرفتها وتحير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة وبديع رخامها . ويقال إنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه،وخرب الهودج والبستان المختار وهدم ثلاثة وثلاثين مسجداً عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى وإقامة الصلوات .

وكان النيل عندما عزم الملك الصالح على عمارة القلعة من الجانب الغربى فيما بين الروضه وبر الجيزة . وقد انطرد عن بر مصر ولا يحيط بالروضة إلا فى أيام الزيادة،فلم يزل يخرق السفن فى البر الغربى ويحفر فيها بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرمال حتى عاد ماء النيل إلى بر مصر واستقر هناك فأنشأ جسرا عظيما ممتدا من بر مصر إلى الروضة وجعل عرضه ثلاث قصبات . وكان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البر ويمشون فى طول هذا الجسر إلى القلعة ولا يمكن أحد من العبور عليه راكباً سوى السلطان فقط . ولما كملت تحول إليها وحرمه واتخذها دار ملك . وأسكن فيها معه مماليكه البحرية ، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك .

قال على بن سعيد المتوفى سنة (٦٧٣ هـ — ١٢٧٣ م) فى كتاب المغرب

فى حلى المغرب ، وقد ذكر الروضة . . بنى بها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك لم ترعينى أحسن منه . . . ولم انفصل عن مصر حتى كمل السور هذه القلعة . وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها . وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء . . . وإذا زاد النيل فصل مابينهما وبين الفسطاط . وفى أيام احتراق النيل يتصل برها ببر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ويبقى موضع الجسر فيه مراكب . وركبت مرة هذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محى الدين بن ندا وزير الجزيرة وصعدنا إلى جهة الصعيد ثم انحدرنا واستقبلنا هذه الجزيرة وأبراجها تتلألأ والنيل قد انقسم عنها .

وذكر المقريزى أيضاً أن مبانى القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية ، ومن مختصر بحوث المؤرخين يتبدى لنا أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فداناً واقعة فى الجزء الجنوبى من جزيرة الروضة ، ومكانها المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع الملك المظفر ومن المغرب بنهر النيل ، ومن الجنوب بسلاملك سراى حسن فؤاد المناسترلى باشا وبمقياس النيل ، ومن الشرق بسيالة جزيرة الروضة ، والسلاملك المذكور كان موقع الجامع الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٥ هـ — على النيل بجوار المقياس من الجهة الغربية ، وعرف بجامع المقياس ، وكانت بقايا هذا الجامع قائمة إلى سنة (١٢٦٧ هـ — ١٨١٨ م) . وفيها أزال حسن باشا تلك البقايا وبنى هذا السلاملك فى مكان جامع المقياس [١]

سكن الملك الصالح هذه الجزيرة مع مماليكه البحرية — وكانت عدتهم ألف مملوك — بعد انتقاله من قلعة الجبل . . وقد قال المؤرخ ابن واصل إن بناء تلك القلعة استنفذ ثلاث سنوات [٢] . ولم تزل قلعة الصالحية عامرة حتى انتهت دولة بنى أيوب . فلما ملك السلطان المعز عز الدين أيبك التركمانى

(١) النجوم الزاهرة — جـ٦ ص ٣٢٠ من تعليقات المرحوم محمد بك رمزى .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة — تعليق ص ٣٠١

مؤسس دولة المماليك البحرية بمصر أمر بهدم هذه القلعة ليعمر منها مدرسته المعزية التي كانت في رحبة الحناء بمدينة مصر . واقتدى ذوو الجاه فأخذوا كثيراً من سقوفها وشبابيكها وغيرها . وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

الظاهر بيبرس والقلعة

ثم تولى ملك مصر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فاهتم بعمارة قلعة الروضة وأمر الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولى إعادتها كما كانت فأصلح بعض ما تهدم فيها ورتب بها فرقة الجاندارمة . وردها إلى ما كانت عليه ووزع أبراجها على الأمراء وأعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفي ، والبرج الذي يليه للأمير عزالدين الحلي . والبرج الثالث من برج الزاوية للأمير عز الدين ارغان . وأعطى برج الزاوية الغربي للامير بدر الدين الشمسي . وفرقت بقية الأبراج على سائر الأمراء (قادة الحامية). وأمر أن تكون بيوتات جميع الأمراء واسطبلاتهم فيها وسلم المفاتيح لهم .

ولما آل الملك إلى السلطان الملك المنصور قلاون الألفي (٦٧٨هـ — ١١٨٩م) وشرع في بناء الماريستان والقبة والمدرسة المنصورية أخذ من قلعة الروضة ما احتاج إليه من عمد الصوان والرخام والأعتاب . كما أخذ منها فيما بعد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون مما مست إليه حاجته من عمدة الصوان في بناء الإيوان الكبير بدار العدل في قلعة الجبل والجامع الجديد الناصري .

وقد ذكر في كتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية (ج : ١ ص ٤٥٠ و ٤٦٥) أنه كان في الجزيرة على عهد الاحتلال بقايا قصر بالمقياس ملاصق من الشرق ومطل على الفرع الشرقي للنيل عرف بقصر السلطان الملك الصالح نجم الدين، ولم يك وقتئذ باقياً منه غير قاعة كبيرة تتصل بها عدة أماكن أكثرها خرب ، ولكن يظهر لنا أن الذي أدركه رجال الحملة الفرنسية لم يك من الأبنية الصلاحية القديمة، بل كان مما جدده السلطان الغوري من القاعات والمساكن

ومما يذكر عن هذا القصر نزول السلطان سليم العثمانى به مدة مقامه بمصر ـ فقد فضل الاقامة بالروضة. فانتقل اليها ونزل بالمقياس كما ذكر ابن إياس، مؤرخ عصره ·

ولما جاء الفرنسيون (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) حصنوا جزيرة الروضة ووضعوا عدة بطاريات مدفعية فى كل طرف من طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . كما حصنوا شاطىء النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية . وجعلوا فم الجراة طابية حصينة سميت طابية الجراة (أو السبع سواقى) واتخذوا من قصر إبراهيم بك (قصر العينى) مستشفى عسكرياً حصيناً يسع الف مريض وجريح .وألحقوا به البيت الذى كان بجواره . وقد عرف وقتئذ ببيت محمد كاشف الأرناؤطى وجعلوه مخزناً ومصنعاً لفرقة الهندسة . ثم حصنوا السور المحيط بها وركبوا عليه المدافع فصار حصناً منيعاً .

واليوم لم يتبق من كل ذلك سوى أطلال من الجدران البائدة .. وقامت الدور الجميلة تغمر معالمها وشقت الطرق فى حناياها وانتثرت البساتين تطوى قصتها ! .

قلاع أيوبية خارج مصر

عنى الأيوبيون ببناء الحصون والقلاع فى الأماكن الإستراتيجية فى سوريا وكان الروم والبيزنطيون والعرب من قبلهم قد بنوا قلاعاً كثيرة ، فانتفعوا بمعظمها وأصلحوا كثيراً منها كما شيدوا حصوناً جديدة وسنرى جهود الأيوبيين فى هذا المجال .

قلعة بصرى

وفى بصرى حيث قام مسرح رومانى كبير شيد فى القرن الثانى الميلادى أدرك الأيوبيون أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشييد عدد كبير من الأبراج حوله وتحمل هذه الأبراج عدداً طيبا من النقوش الكتابية للملك العادل تواريخها كالآتى : ـ

٥٩٩ هـ (١٢٠٢ ـ ٣ م) و ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) و ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) و ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) و ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) و ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) .

كما أن هناك نقش آخر باسم الملك الصالح تاريخه ٦٢٥ ﻫ (١٢٢٨ م) : وأحد تلك الأبراج يشبه من الداخل مافى قلعة الجبل ، يشتمل على قاعة كبيرة يعلوها قبو شيدت على نسق الأسلوب المتعامد

قلعـــة دمشق

إن قلعة دمشق كما هى عليه اليوم من أعمال الملك العادل الأيوبى ، بدأ عمارتها تاج الدولة تتش عام ٤٧١ ﻫ (١٠٧٨م) وجعلها دار الإمارة ، واهتم بتعميرها السلطان نور الدين ، ثم الملك العادل . وتمتد تواريخ نقوشها بين عامى ٦٠٥ ﻫ و ٦١٤ ﻫ (١٢٠٨ - ١٢١٧ م) ويقوم فى جانبيها الشرقى والشمالى مدخـلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنيـة على شكل زاوية قائمة (Bent - entrance) وتعلو جميع أبواب القلعة السقاطات الدفاعية

قلعة جبل طابور

حصن العادل قمة جبل طابور عام ٦٠٧ ﻫ (١٢١١م) ولم يبق إلا شىء قليل من حصونه اليوم ، وفى برج خرب نلاحظ فتحة للسهام (مزغل) على شكل حربة — يشبه فى تفاصيله المعمارية) المزاغل الموجودة فى قلعة الجبل التى تنسب إلى الملك العادل أيضاً

قلعة شيزر موطن أسرة ابن منقذ

٥ — مَعَارِكُ الجَيْشِ الأَيُّوبي

أيام السلطان صلاح الدين يوسف

ولى صلاح الدين الأيوبى حكم مصر إثر وفاة الخليفة العاضد بالله . وكان ذلك فى ٢٥ جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ (٢٣ مارس ١٦٩) . فأخذ منذ ذلك الحين ينظم شئون الحكم فى دولته الجديدة ، ويعيد تشكيل الجيش ، وأهم من ذلك كله أن يقوم بتوحيد كلمة الحكام العرب وذلك ليتهيأ له مواجهة الفرنج وفى سبيل ذلك تم له ما أراد فى سنوات قلائل ، ومن ثم انتقل من المرحلة السياسية إلى المرحلة العسكرية وهى مرحلة الجهاد التى أظهر فيها موهبته النادرة فى القيادة الحكيمة ، وأهم من ذلك كله أنه نقل المعارك بعيداً عن أرض مصر التى تمد الجيوش بحاجاتها ..

وفى المرحلة الأولى تقابلنا عدة معارك صغرى ، كان لابد منها ، وهى :

١ — إستيلاء صلاح الدين على ثغر أيلة (العقبة) : ٥٦٦ هـ — ١١٧٠ م

ثم وفاة السلطان نور الدين محمود : ١١ شوال ٥٦٦ هـ — ١١٧٠ م

٢ — دخول صلاح الدين دمشق : الاثنين أول ربيع الآخر ٥٧٠ هـ — ٣٠ أكتوبر ١١٧٤

٣ — استيلاء صلاح الدين على حمص : ٥٧١ هـ / ١١٧٤ - ١١٧٥

٤ — بداية حصار صلاح الدين حلب : ٢ جمادى الآخرة ٥٧٠ هـ — يناير ١١٧٥

٥ — الاستيلاء على حصن بزاغة : ٢٢ شوال ٥٧١ هـ - ١١٧٦

٦ — الاستيلاء على حصن منبج : ٢٩ شوال ٥٧١ هـ - ١١٧٦

٧ — الاستيلاء على حصن عزاز : ١١ ذى الحجة ٥٧١ هـ — ٢١ يوليو ١١٧٦

٨ — معركة تل السلطان : ٥٧٢ هـ — ٢٢ أبريل ١١٧٦ .

ثم عودة صلاح الدين إلى القاهرة : ربيع أول ٥٧٢ هـ — أكتوبر ١١٧٦

٩ — معركة الرملة ٥٧٣ هـ — أول ديسمبر ١١٧٧ .

ثم عودة صلاح الدين إلى دمشق : أواخر شوال ٥٧٣ هـ ـ أبريل ١١٧٨ .
١٠ — معركة مرج عيون : ٢ محرم ٥٧٥ هـ ـ يونيو ١١٧٩ .
عودة صلاح الدين إلى القاهرة : شعبان ٥٧٦ هـ ـ يناير ١١٨١ .
مغادرة صلاح الدين القاهرة : محرم ٥٧٨ هـ ـ مايو ١١٨٢ .
الأمير أرناط يصمم على مهاجمة الحجاز : ٥٧٨ هـ — مايو ١١٨٢ .
١١ — معارك لؤلؤ وهزيمة أرناط برا وبحرا : ٥٧٨ هـ ـ أوائل ١١٨٣ .
١٢ — صلاح الدين في حران : أوائل ذي القعدة ٥٧٨ هـ ـ مارس ١١٨٣ .
١٣ — إستيلاؤه على آمد : أوائل المحرم ٥٧٩ هـ ـ أبريل ١١٨٣ ،
١٤ — إستيلاؤه على تل خالد وعين تاب (من أعمال حلب) : المحرم ٥٧٩ هـ ـ ١١٨٣ .
١٥ — الاستيلاء على حلب : ٥٧٩ هـ ـ يونيو ١١٨٣
١٦ — خضوع الموصل لصلاح الدين : ٥٨١ هـ ـ مارس ١١٨٦
١٧ — الاستيلاء على قلعة تبنين (ابلين) : ١١ جمادى الأولى ـ ١٨ منه ٥٨٣ هـ — ١١٨٧
١٨ — معركة حطين : السبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ — ٤ يوليو ١١٨٧ .
١٩ — الاستيلاء على قلعة طبرية : ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ ـ يوليو ١١٨٧
٢٠ — الاستيلاء على بيت المقدس : الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ـ ٢ أكتوبر ١١٨٧
٢١ — الاستيلاء على عكا : ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ .

تحت أسوار قلعة الكرك بالاردن

٦ — البحر الأحمر فى سياسة صلاح الدين

كسب الصليبيون الجولة الأولى فى حملتهم على سورية . فثبتوا أقدامهم فى أنطاكية (١٩٠٨م)، واستولوا فى العام التالى على القدس، ونصب غودفرى دى بويون نفسه ملكا عليه ثم خلفه أخوه بلدوين (١١٠٠ م) بعد موته . وفى عهده تسلل الصليبيون عبر أراضى شرق الأردن، وبدأوا تشييد عدة حصون يحتمون فى داخلها، لتكون بمثابة قواعد يشنون منها الغارات ضد الجيوش العربية.

قلنا إنهم ربحوا الجولة الأولى ، لأن أمراء العرب فى شمال الجزيرة والشام وفلسطين بل ومصر، كانوا منقسمين على بعضهم، ولم تكن قد توحدت الكلمة فيما بينهم ، وأراد كل منهم أن يكون زعيما ، إلى أن قيض الله للمسلمين صلاح الدين الأيوبى .

توالت الهزائم على الشام واحتلت جيوش بلدوين مصر . وفى أثناء عودته منها مات (١١١٨ م) ، وخلفه ابن أخيه بلدوين الثانى الذى شن عدة غارات على قوات المسلمين ثم وقع أسيراً فى قبضتهم (١١٢٥) ثم أطلق سراحه فيما بعد .

وفى أيام بلدوين الأولى ، امتدت مملكة القدس من بيروت فى الشمال إلى العريش فى الجنوب ، وتجاوزت نهر الأردن نحو الصحراء ، وإلى جنوب البحر الميت فوضع بلدوين يده على مملكة إيدوم القديمة التى امتدت نحو ثغر إيلة المواجهة للعقبة ، على رأس الخليج المعروف باسمها اليوم . وكذلك استولى على شقة من الأرض شرق البحر الميت ، كانت تعرف قديماً باسم مؤاب ، وفيها مدينة البطراء الأثرية . ولقد أكسب احتلال تلك الصحارى الصليبيين منطقة استراتيجية هامة (تعرف اليوم باسم الأردن الجنوبى) ، وجعلتهم على اتصال بالبحر الأحمر ، ويسرت لسفنهم التسلل فى مياه البحر الأحمر وتهديد سفن الملاحة العربية ، فضلا عن إشراف الفرنج على طرق القوافل التجارية والحجاج بين دمشق ومصر إلى الحجاز .

ثبت الصليبيون أقدامهم فى تلك البقاع الهامة بما شيدوه من القلاع والحصون،ولا سيما فى الفترة الأولى من حكمهم (١١٠٠ — ١١٣١م) ، وكان من أهم تلك القلاع الصليبية التى شيدت إلى شرق وجنوب البحر الميت :

١ — قلعة مونتريال ، أو كرك مونت رويال (شيدت عام ١١١٥) ، بين طفيلة ومعان ، إلى الشمال الشرقي من بتراء ، بالقرب من الشوبك [1] ولا زالت تقوم إلى اليوم بعض آثارها .

٢ — قلعة وادى موسى ، وعرفت عند الصليبيين باسم قلعة « سيلة » ، وشيدت فى بتراء — وقد احتلها بلدوين الأول حوالى عام ١١١٦م ، وما زالت خرائبها قائمة إلى اليوم .

٣ — قلعة مؤاب ، أو الكرك وهى من أشهر الحصون الصليبية فى تلك المنطقة .

٤ — قلعة معان .

٥ — قلعة طفيلة .

٦ — قلعة جبل الشراة ، وغيرها .

رأينا الصليبيين يشيدون فى تلك المنطقة الحصون المنيعة للاشراف التام على الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر وثغر أيلة الذى احتلوه عام ١١١٦ ، وقلعة الجزيرة الصغيرة التى تواجه أيلة ، التى عرفت باسم جزيرة جراى ، ولكن ما لبثت أن استولى عليها صلاح الدين عام ١١٧٥ م لما أدرك أهميتها فى القضاء على سيطرة الصليبيين على مياه البحر الأحمر .

تلك هى صورة الأرض التى كان قد وصل إليها نفوذ الصليبيين ، وهذا يدلنا على مدى خطتهم لقطع أوصال البلاد العربية وإقامة دولة لهم بين الشعوب العربية لتجعل اتصالهم ووحدتهم أمراً مستحيلا أو متعذراً . وكان لأهمية تلك المنطقة من الناحية العسكرية أنهم جعلوها إمارة قائمة بذاتها يحكمها الأمير أرناط (ريجنالد عند الإنجليز) .

ولد هذا الأمير فى شاتيون ، وهى بلدة صغيرة فى وادى نهر السين ، حوالى عام ١١٢٧ م من أسرة نبيلة ، والتحق بحمله لويس السابع ولما يبلغ العشرين ، واشترك فى حصار عسقلان عام ١١٥٣ تحت إمرة بلدوين الثالث ، وعرف منذ

---

(١) عرفت أحيانا باسم قلعة الشوبك .

ذلك الحين بشجاعته وتهوره وحماسته . وتزوج من كونستانسة ، أرملة ريموند أمير أنطاكية الذى مات فى ميدان القتال .

كان الأمير أرناط متعجرفاً وقحاً ، كثيراً ما كان يسىء إلى منصبه مستخدماً وسائل العنف مع صحبه من العسكريين ورجال الدين أيضاً. ويذكر عنه المؤرخون حوادث عديدة تدل على سوء تصرفاته . وكان لا يقدر كلمة الوعد أو الشرف، وقد عرف عنه أنه قام بغزوة قبرس، دون موافقة رؤسائه، فاستولى على الجزيرة فى عام ١١١٥ ونهبها، وعذب أهلها واستباح النسوة وذبح مئات الأطفال.

ولما فرغ أرناط من تلك الغزوة عاد إلى الشام واستأنف حرب العصابات ضد السلطان نور الدين ، وقد حالفه الحظ حينا ، إلى أن وقع أسيراً فى قبضة مجد الدين بن الداية عامل نور الدين (١١٦٠) وظل سجيناً فى حلب إلى عام ١١٧٦ ، أى إلى ما بعد موت نور الدين ، دون أن يتحرك إمبراطور بيزنطية لإنقاذ الأمير الأرعن. وأخيراً أخلى سبيله بعد دفع فدية كبيرة (١٢٠٠٠٠ دينار)، وقيل إنه حاول تعلم اللغة العربية فى أثناء سجنه ، لكنه لم ينس لحظة الانتقام .

تقلد صلاح الدين زعامة العالم العربى، فوحد الكلمة بعد تفككها، وعمل على دعم قواته ليضرب بها الأعداء الذين وقف لهم بالمرصاد ، وكان أول ما بدأ به صلاح الدين إبعاد أسرة الفواطم عن حكم مصر ، ثم ضمه دمشق إلى دولته (١١٧٤) ، وبعلبك (١١٧٥) ، وحلب . ثم هزم فى موقعة الرملة (١١٧٧) ، فهادن أعداءه ، ولكن أرناط لم يعبأ بشروط المهادنة ، وكان قد أعيد ثانية لإمارة ما وراء الأردن لكى يحمى تلك المنطقة من الوقوع فى أيدى المسلمين .

كانت زوجة أرناط الأولى ، كونستانس ، ماتت فى أثناء اعتقاله ، فلما أطلق سراحه تزوج من الأميرة اينيث ابنة أمير نابلس الفرنجى .

تولى أرناط ولاية ما وراء الأردن، وكانت أكثر ما اشتملت عليه منطقة النقب الجنوبية ونافذتها كما قلنا وأيلة التى تطل على مياه خليج العقبة. أما الشمال فكانت عند تيزة جنوبى عمان ، ويستطيع منها التحفز على بلاد السلطان فى دمشق التى جعل منها قاعدة عسكرية هامة .

ولم يضيع أرناط وقته سدى ، فقد ألم بوسائل الحرب البحرية منذ غزوة قبرص واستيلائه عليها ، وأدرك أهمية وقوع أيلة فى قبضته إذ استعان ببناء أسطول صغير ، كما فعل الملك سليمان من قبل ليهدد الثغور المطلة على البحر الأحمر ، ولكى يدخل الفزع على الملاحين المسلمين .

عمل أرناط على الحصول على الخشب اللازم لصنع سفائنه ، فأمر بقطع غابات إقليم الكرك ، وحمله أتباعه إلى حصن الكرك (١٢٨١) ، كما عهد إلى رهبانه بصنع بعض السفن ، وأمر أهالى عسقلان من الفرنجة بصنع قوارب أخرى ، وهكذا توفر لديه خمس سفن حربية ، وإلى جانبها عدد لا بأس به من السفن الخفيفة ، ونقلها جميعا مفككة على جمال البدو إلى ساحل البحر الأحمر ، وطلاها بالقار ، وشحنها بالمقاتلين وعتاد الحرب .

قلنا إن أرناط كان فذا فى تمزيق المعاهدات ، ففى عام ١١٨١ قام بغارة عنيفة على رأس رجاله ، ووصل بهم إلى تيماء مفتاح المدينة فى قلب الحجاز ، واعتدى على قافلة يمتلكها تجار دمشق ، وعاد مثقلا بالغنائم وبعثات من الأسرى الرجال والنساء ، بعد مسيرة ٣٥٠ ميلا إلى قاعدته فى الكرك . وقد أشار أبو الفداء المؤرخ المعروف إلى تلك الغارة الخسيسة التى قام بها الإبليس الفرنسى . وكانت خطة أرناط فى الواقع تهدف إلى الاستيلاء على المدينة المنورة وكنوزها التى لاتقوم ، ولكن فروخ شاه ، ابن أخ صلاح الدين أمير حلب ، كان قد وصل فى الوقت المناسب ، وقذف رجال أرناط نحو الشمال ، ولم يتحقق حلم الشيطان .

كان من أثر هذه الغارة أن غضب ملك القدس ، على أرناط ، وأمره أن يعيد الأسرى والغنائم لأصحابها فى الحال . ولكن أرناط لم يعبأ بهذا الأمر ، ورفض إعادة أى شىء لأصحابه . وكان وقع هذه الغارة على صلاح الدين شديدا ، وبالرغم من حلمه الذى اشتهر به فقد اضطر إلى الانتقام ، وكتب رسالة إلى ملك بيت المقدس ، الذى أجاب عليه بخروج هذا الأمر على أوامره ، فلم يكن من صلاح الدين إلا أن أرسل رجاله للعبث بالأراضى المحيطة بقلعة مونتريال ، وأتلفوا مزارع الصليبيين ونخيلهم ، وأدرك أن يحارب بأسلوب خصمه . . حرب العصابات .

وفى عام ١١٨٢ تراءى لأرناط أن يحقق خطته الجريئة لغزو المسلمين فى مهد دينهم الأصيل ، والاستيلاء على المدينة ومكة ، وكان قد أعد كل شىء .

الحملة الجريئة :

لا تطيل المراجع العربية الكلام عن حملة أرناط هذه ، سواء فى البر أم فى البحر ، ولذلك نستمد أكثر ما نكتبه عنها مما سجله أرنول المؤرخ الفرنسى المعاصر لتلك الحادثة الفريدة فى الحملات الصليبية .

من الصعب الإلمام بعدد المقاتلين الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة ، ومن المحتمل أنهم كانوا حوالى ألف من الخيالة، ويساعدهم جماعات من البدو والملاحين. وكان المسلمون قد استولوا على جزيرة « جراى » المواجهة لأيلة فى شمال خليج العقبة مهددين هذا الثغر . ولكن أرناط قد استطاع أن يوقف سفينتين بالقرب من الجزيرة لتمنع أهلها من استقاء الماء .

الأسطول الصليبى :

يقول أرنول ، أن الأسطول الصليبى انقسم إلى قسمين : أحدهما كان بقيادة أرناط ومعه سفينتان حربيتان كبيرتان لحصار جزيرة جراى، مفتاح خليج العقبة، ليضطر رجال حاميتها إلى التسليم أو الموت من الجوع والعطش . أما القسم الثانى من الأسطول فاتخذت سفنه سبيلها فى البحر الأحمر للقرصنة ، فوصلت إلى ثغر عيذاب ، وعبث الصليبيون فيها كثيرا ، واستولوا على سفينة تأتى بالحجاج من جدة ، وعلى سفينتين أخريين كانتا مقبلتين بتجار وسلع من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ساحل عيذاب كانت معدة لتموين مكة والمدينة، وكانت عيذاب فى تلك الفترة قد انتقلت إليها أهمية طريق الحجاج عبر سينا والنقب إثر وقوعه فى أيدى الصليبيين ، واتخذ الحجاج طريق قنا — القصير — أو قنا — عيذاب، ومنها يسلكون البحر إلى رابغ أو جدة على الشاطىء المقابل .

استطاع أرناط بمسلكه المشين أن يدخل الرعب والفزع إلى سكان ثغور البحر الأحمر ، ولاسيما عيذاب ، وأن يستولى على مالا يقل عن ١٦ سفينة محملة بالسلع والرقيق . وهاجمت سفنه أيضاً هوارة ، ثغر المدينة ، التى تقع شمال ينبع ،

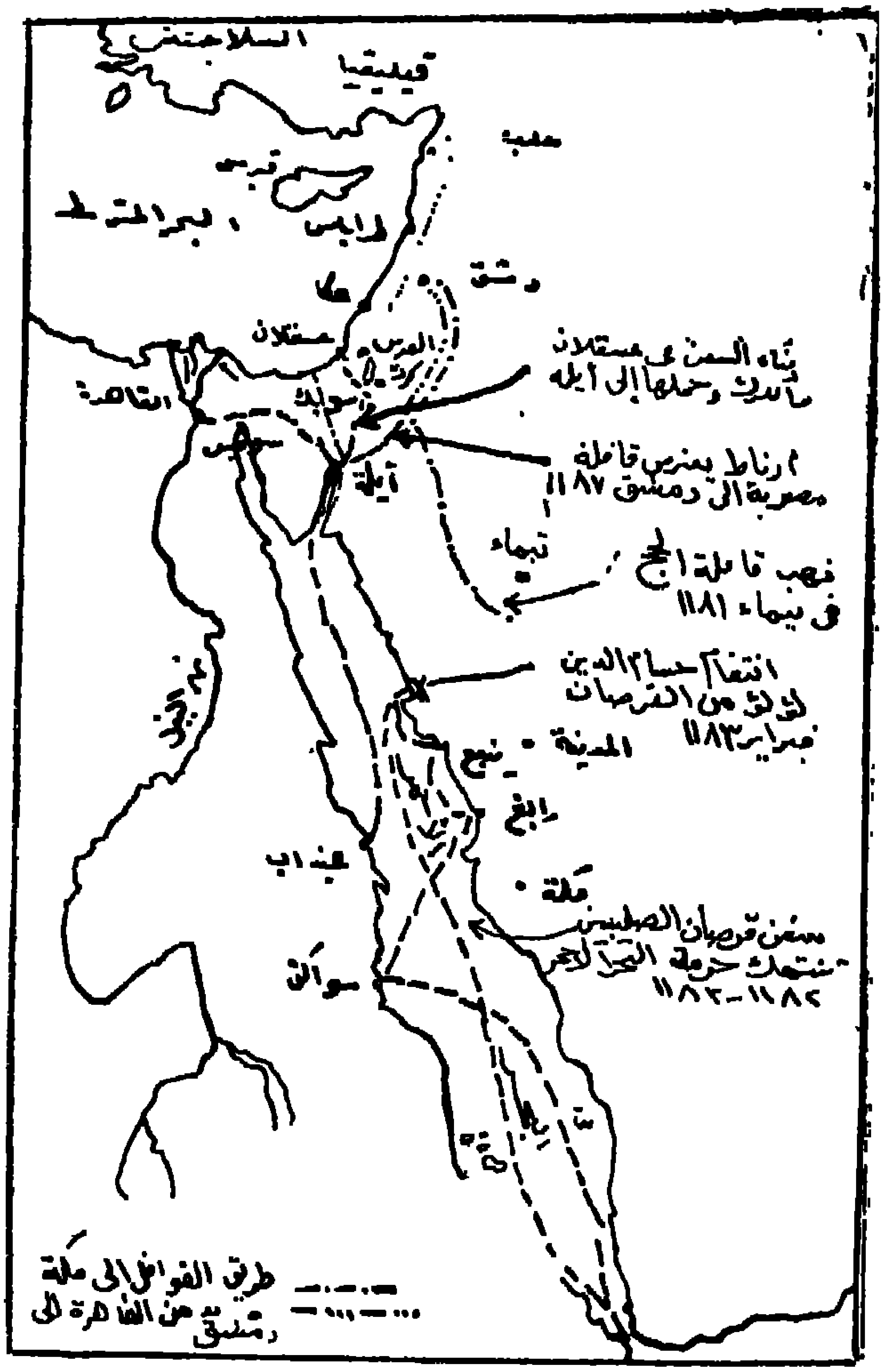

عمليات القائد لؤلؤ البحرية والبرية ضد الأمير أرناط

وكذلك رابغ شمال جدة . ويقول القاضى الفاضل أن سفن أرناط قد وصلت فى قرصنتها إلى عدن ، مفتاح المحيط الهندى .

ويبدو لنا أن الصليبيين كانت لهم سيادة البحر الأحمر فى خلال النصف الثانى من عام ١١٨٢ والنصف الأول من عام ١١٨٣ . ولاشك أنه كان لتلك الأحداث وقع سيء لدى المسلمين تدل عليه كتابات مؤرخيهم عن تلك الحقبة .

كان هذا شأن العمليات البحرية . أما فى البر فقد سارت قوات أرناط إلى تبوك ، لقطع خطوط الإمداد والمواصلات بين المسلمين فى أيلة الشام . واتجهت قوات أخرى عبر الصحراء نحو الجنوب تريد الوصول إلى المدينة المنورة، وكانوا يستمدون معونة البدو والطامعين فى النهب والسلب ، واستمروا فى تقدمهم حتى صاروا على مقربة من المدينة .

دوى الفزع والرعب فى قلوب العرب ، فما هم فاعلون؟ وليست تحت أيديهم قوات كافية لصد المعتدين . لم تكن لهم حيلة فى البر أو فى البحر . . وقبعوا فى ديارهم ينتظرون الفرج . . . ولكن مصر كانت بالمرصاد !

فعندما بلغت تلك الأخبار السيئة صلاح الدين وهو يجاهد على حصار الموصل. بعث إلى أخيه ونائبه فى القاهرة الملك العادل أبو بكر بن أيوب لإنشاء أسطول فى مصر ودمياط والأسكندرية ، ثم سافر إلى القلزم ، وعهد إلى قائد الأسطول الشيخ حسام الدين لؤلؤ أن يحمل السفن مفككة على الجمال إلى السويس . وفى هذا الثغر أشرف على تركيبها وتعميرها بالرجال الذين كان معظمهم من أهل المغرب الخبيرين بشئون القتال البحرى وبالملاحة . وهكذا كان البحر مفتاح النصر كما أن مصر دعامته الكبرى .

قسم القائد أسطوله إلى قسمين : قسم اتجه بمراكبه إلى جزيرة أيلة عن طريق رأس محمد جنوب سينا ، وانقضت على المرابطين فيها انقضاض الجوارح، وقذفتها بسهامهم وبنيرانهم القاتلة ، وأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر مقاتليها إلا من تعلق بهضبة واختفى فى كهف ، حتى هؤلاء ، كتب لهم الموت ، ولم ينج منهم إلا من وقع فى الأسر .

أما القسم الثانى من الأسطول فقصد أولاثغرعيذاب، وأطلق الأسرى من المسلمين ، ورد إليهم ما سلب منهم ، لكنهم لم يعتدوا على الصليبيين هناك . واستمرت العمليات البحرية فى البحر الأحمر قرابة شهرين،وأخيراً اتجهت السفن بقيادة لؤلؤ إلى رابغ ، وأدرك بعض الصليبيين معتصمين بساحل الحوراء ، وكان عددهم نحو الثلاثمائة رجل مسلح ، يعاونهم بعض البدو . فلما شاهدوا جنود لؤلؤ ولى البدو هاربين ، وأسرع الصليبيون فى الالتجاء إلى رأس جبل صعب المرتقى ، وركب عشرة من المسلمين وراءهم يقتنصونهم أسرى وقتلى ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا نهارا وليلا ، حتى لم يتركوا عنهم خبرا ، ولم يبقوا لهم أثرا ، وسيق الذين استسلموا أسرى، وقيد منهم مائة ستة وسبعون أسيراً . تم ذلك على مسافة يوم من المدينة .. وصادف ذلك النصر أشهر الحج، فسيق منهم أسيران إلى منى حيث ذبحوا ، أما الباقون فعاد بهم القائد لؤلؤ إلى مصر مصفدين بالقيود . وكان دخولهم القاهرة يوما مشهودا .

وتصادف دخولهم الاسكندرية (١٦ أبريل ١١٨٣) نزول الرحالة الأندلسى ابن جبير فيها ، فشاهد الأهالى مصفوفين على جانبى الطرقات لمشاهدة أولئك الأسرى وهم يركبون الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق . ثم أمر السلطان بقتلهم بأيدى الصوفية والفقهاء .

وقيل أن فى نفس العام الذى تم فيه هذا النصر المبين ، توفى القائد لؤلؤ، صانع معجزة النصر . مات فى مصر ، وقيل فى جمادى الآخرة من عام٥٩٦هـ/١١٩٩م.

وكان لهذا الفوز دوى فى العالم الإسلامى ، وتنافس الشعراء المعاصرون فى وصف هذا الظفر الكبير ، ومنهم أبو الحسين بن الذروى . قال :

مر يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدى فيه السرور الجماد
إذا أتى الحاجب الأجل بأسرى ... قرنتهم فى طيها الأصفاد
بجمال كأنهم جبال ... وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى ... هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادى ... وسواه من اللآلىء يصاد

وفيه قال الرضى بن أبى حصينة المصرى مخاطباً الفرنج :

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدر فى البحر لا يخشى من الغير
فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم فالدر مذ كان منسوبا إلى البحر

* * *

فمن كان هذا القائد الباسل . . لؤلؤ ؟

لم يكتب المؤرخون المسلمون شيئاً كثيرا عن نشأة حسام الدين لؤلؤ ، ولم نقف على إسمه بين أسماء الخالدين من المسلمين ، وذكر العماد المؤرخ عنه أن من دلائل سماحته ما شاهدته القاهرة فى سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م) . فلما حط القحط رحله ، وتم الغلاء ، وعم البلاء ، ابتكر هذا الحاجب (حسام الدين) الكبير مكرمة لم يسبق إليها. وذلك أنه كان يخبز كل ليلة ١٢٫٠٠٠ رغيفا فإذا أصبح جاس بالقرب من باب وفتح منه مقدار ما يخرج منه واحدا بعد واحد ، ويتناول كل فقير قرصه . وما يزال قاعدا حتى يفرق الألوف من الأرغفة . وكان هذا دأبه فى هذا الغلاء حتى هب الرخاء . وقد تنوعت صدقاته واستغرقت بالصلاة أوقاته . يقول عنه أنه كان بهى الشيب نقى الجيب ، قد جعل الله البركة فى عمره ، وأنجده فى أوان ضعفه بتضعيف بره . ولا شك أنه من الأولياء الصالحين .

أما ما كان من أرناط ، ففى خلال عام ١١٨٦ مرت إحدى قوافل المسلمين الغنية بالقرب من حصن الكرك . فلم يلبث أرناط أن انقض عليها كعادته ، وحطم الهدنة التى كانت بين صلاح الدين والصليبيين ، ثم نهب جميع متاعها وأموالها ، وأسر رجالها ونساءها وسجنهم . وقيل أن أخت السلطان كانت من بينهم .

وامتلأ أرناط الغادر زهوا بفعلته ، وأخذ يشمت فيهم ويسخر منهم . وصاح فيهم هازئا : « ما دمتم تعتقدون فى محمد ، فأعدوه الآن يفك أسركم ويخلصكم مما أنتم فيه » . ولما علم صلاح الدين ثار غضبا ، وأقسم ليقتلن الغادر بيده . ولم يمض عام حتى نال جزاء سخريته . وبرّ السلطان بقسمه .

ففى ٤ يوليو عام ١١٨٧ تقابل جيش المسلمين بقوات الصليبيين على مقربة من حطين ، ودار القتال عنيفا بين الطرفين ، وكتب النصر المبين للمسلمين المدافعين عن بلادهم . امتلأ الميدان بجثث القتلى التى تجمعت أكواما ، وتوالى احضار الأسرى وفى طليعتهم الملك كوى فأخوه وأرناط وغيرهم من الأمراء ، فسلموا سيوفهم إلى المسلمين .

ودعا صلاح الدين الملك كوى وأرناط أمير الكرك إلى خيمته ، وأجلس الملك إلى جانبه ، وعندما رأى عطشه أمر فجىء له بماء مثلج فشرب منه ، وأعطى الملك ما تبقى منه لأرناط ، فصاح صلاح الدين للمترجم : « قل للملك ما سقيته أنا ، ولكنك أنت الذى سقيته » . قاصدا بذلك أن أرناط لم يصبح آمنا بعد أن شرب من ماء صلاح الدين .

وجاء الوقت ليفى صلاح الدين بقسمه القديم ، فقام وأنب أرناط على تنكيله بقافلة المسلمين وتطاوله على مقام النبوة ، ثم هوى عليه بالسيف فأرداه .

وارتعد الملك وخاف أن يثنى به ، فأمنه صلاح الدين قائلا : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك . أما هذا فقد تجاوز حده فجرى ما جرى » .

البطل صلاح الدين فى المعركة

٦ — معركة حطين الكبرى

السبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ — ٤ يوليو ١١٨٧

تناثرت أخبار هذه المعركة الكبرى فى المراجع العربية ، المعاصرة منها والمتأخرة . تلك المعركة التى نشبت غربى بحيرة طبرية ، وحطين قرية عندها قبر النبى شعيب .

يقول العماد : أحاط المسلمون بالصليبيين إحاطة الدائرة بقطرها وإحاطة النار بأهلها (١) واشتد الطعن والضرب ، وحال المسلمون دون نصب خيامهم فى أعلى تل حطين إلا خيمة الملك ، وفى حراسته نحو ١٥٠ فارسا .

ويصف الأفضل على بن صلاح الدين ، وقد شهد هذه المعركة مع أبيه ، قال .

« كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته . فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى ، فنظرت اليه ، أى والده صلاح الدين ، وقد علته كآبة . وأربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا ، فصعدوا على التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم ! هزمناهم ! فعاد الفرنج ، فحملوا حملة ثانية ، مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل هو مثل ما فعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا : هزمناهم ، هزمناهم . فالتفت إلى والدى فقال : أسكت ! ما نهزمهم حتى تسقط (خيمة الملك) ، فهو يقول ذلك وإذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من شدة فرحه (٢)

---

(١) الفتح القسى . ص ١٩ .

(٢) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٢ . أنظر أيضاً ابن الأثير : ج ٩ ص ١٧٨

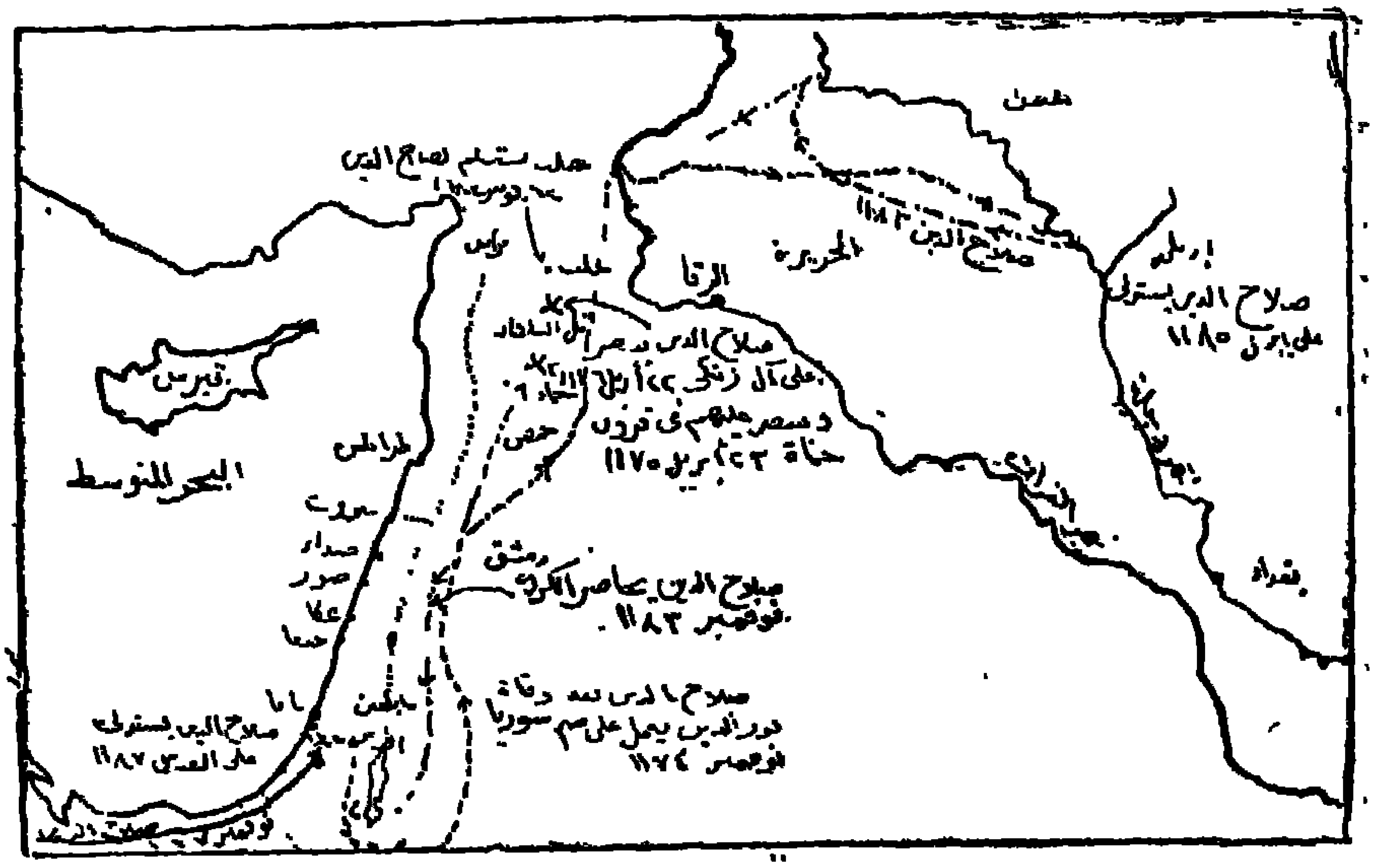

معارك صلاح الدين فيما عدا معارك الجليل (١١٧٤ — ١١٨٨)

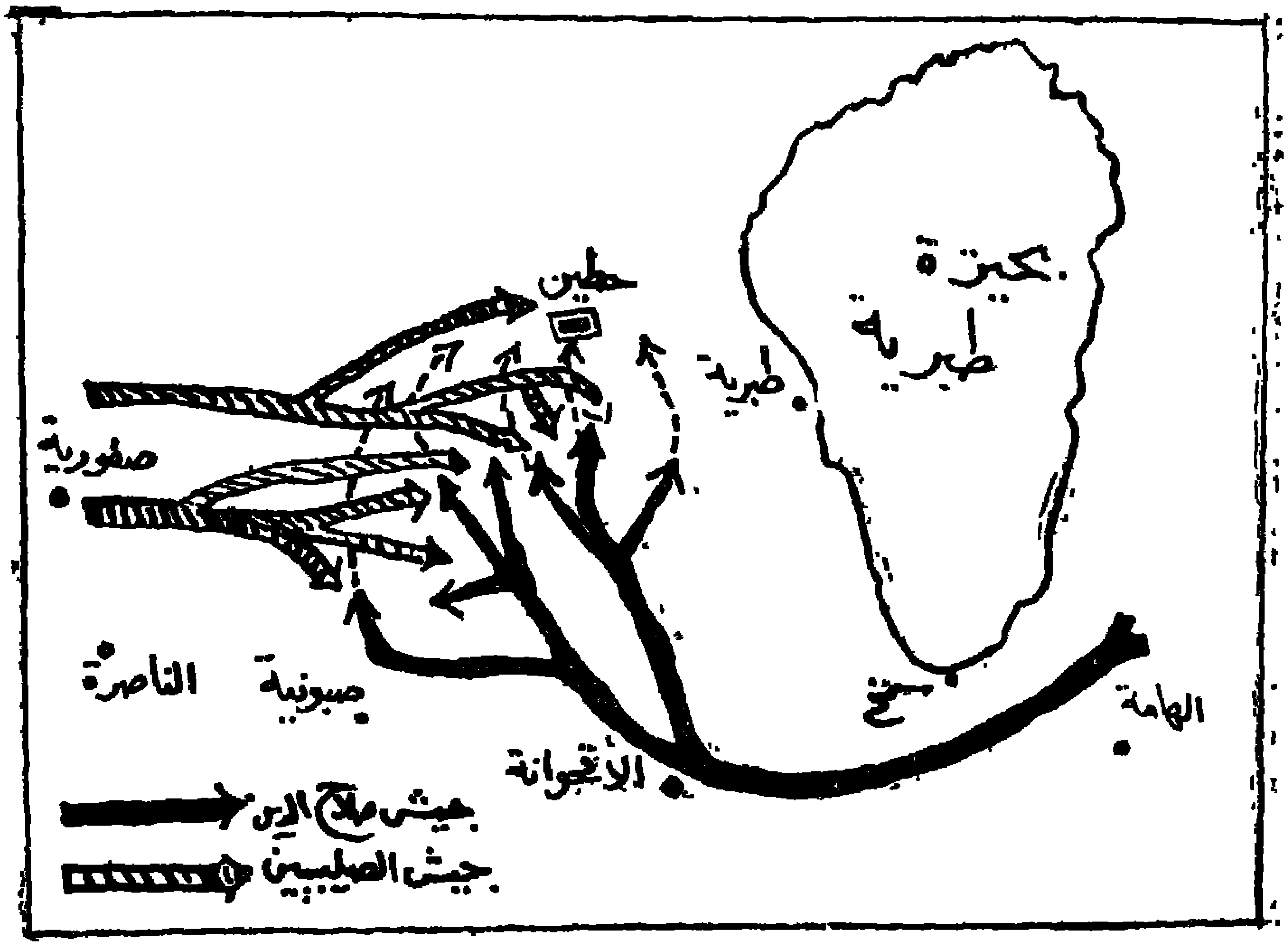

معركة حطين فى ٤ يوليو ١١٨٧

واستسلم من نجا من القتل من الفرنج ونزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون اليهم وألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم .

وكان من كبار الأسرى : ملك القدس الصليبي كوى لوزينان وأخوه أملريك ، وأرناط صاحب الكرك ، وأوك صاحب جبيل وإسمه « هيو الثانى » وهمفرى ، وعدد كبير من فرسان الداوية وكذلك معظم الاسبتارية . .

وعاق ابن واصل على هذا النصر :

« فلم يؤيد الاسلام بعد الصحابة ، رضى الله عنهم ، رجل مثله ، ومثل نور الدين محمود بن زنكى ، فهما جددا الإسلام بعد دروسه ، وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه (١)

هذا بعض ما كتبه المؤرخون المسلمون عن المعركة ، واليك ما كتبه مؤرخ حديث .

الاستعداد لمعركة حطين

أوجز الأستاذ محمد فريد أبو حديد وصف معركة حطين فى كتابه المفيد (٢) قال :

أرسل صلاح الدين يجمع الجيوش فى ربيع سنة ١١٨٧م ، وجعل مركز القيادة العليا دمشق ، فأتته الجنود من أطراف دولته وكان أول بعوثه الفين : جعل أحدهما إلى الكرك (بالأردن) بقيادته هو للانتقام ومنع أرناط من مهاجمة الحجيج والوقوف فى سبيل العسكر المصرى القادم اليه ، وأرسل الآخر إلى عكا يشغل فرسان الداوية والاسبتارية عن مساعدة الكرك ، وقد نجح فى إحراز غرضه من هذين البعثين نجاحاً تاماً .

فلما تكامل الجيش الاسلامى فى صيف ١١٨٧ ، كان أمام صلاح الدين خطتان : الأولى أن يقف أمام الصليبيين فى معركة فاصلة ، والثانية أن يتابع

---

(١) مفرج الكروب : ج ٢ ص ١٦٣

(٢) صلاح الدين الأيوبى وعصره لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة

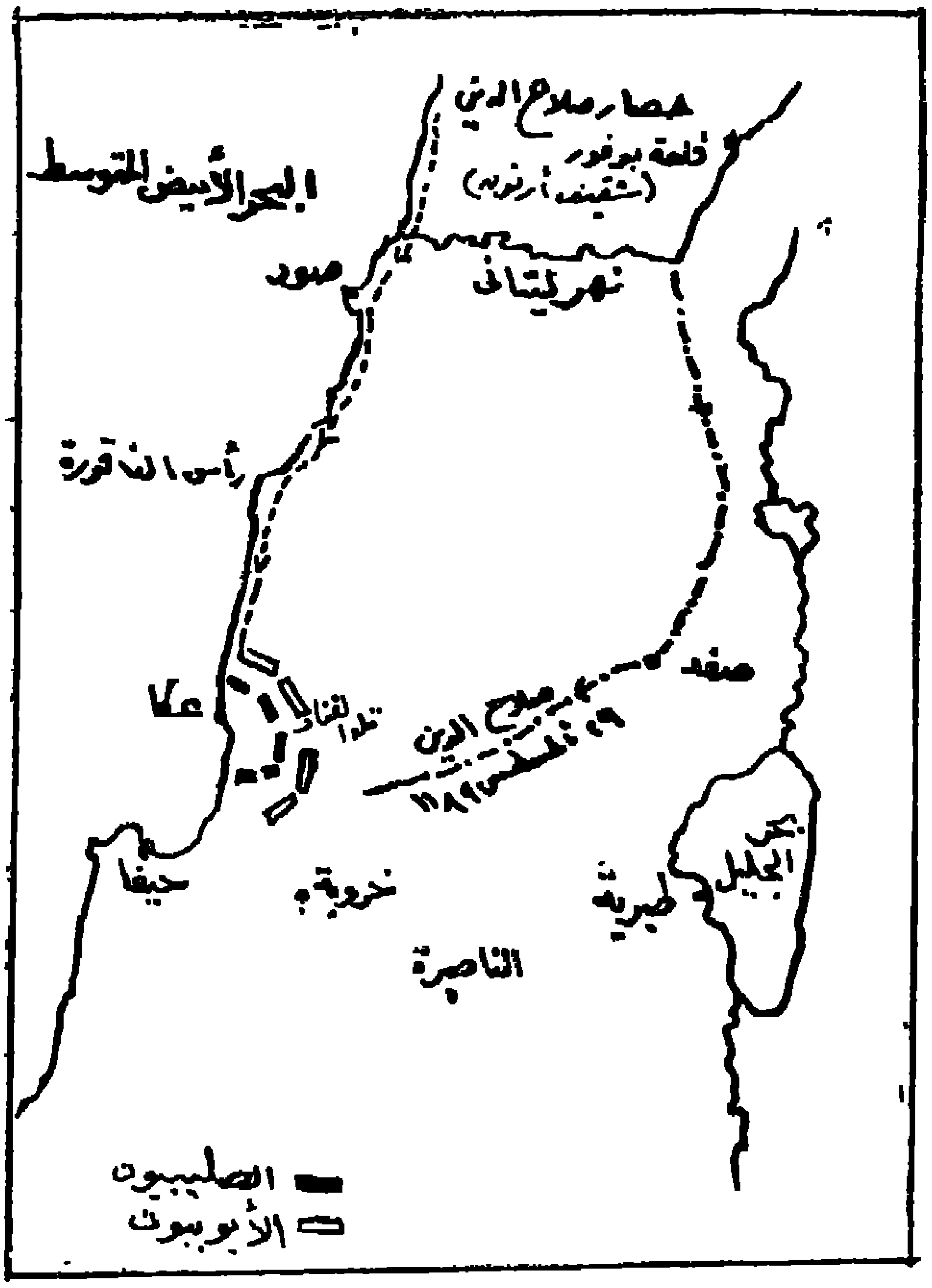

الأيوبيون فى حصار عكا (٢٨ أغسطس ١١٨٩ — ١٢ يوليو ١١٩١)

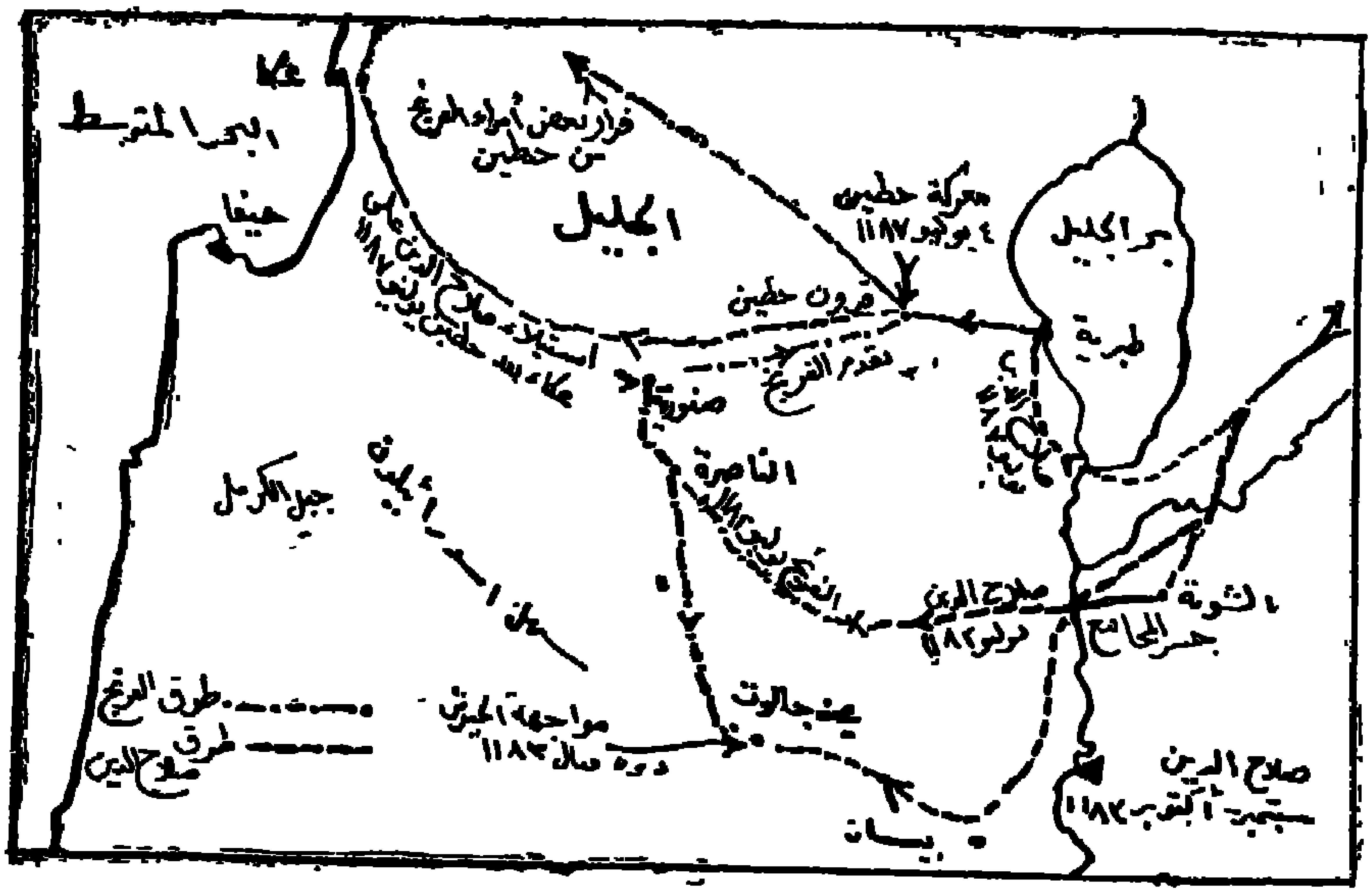

معارك صلاح الدين فى الجليل بين عامى ١١٨٢ و ١١٨٧

الخطة القديمة من إغارات متكررة ونهب وسبي دون معركة فاصلة حتى يضعف الفرنج أولا ثم يضرب الضربة القاضية أخيراً . ولكنه فضل الخطة الأولى . ولعل أكبر ما دفعه إلى اختيارها شدة حماسته ، قد قال مرة : «إن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد» .

وهكذا سار إلى طبرية فى يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ الموافق ٤ يوليو ١١٨٧ ، وكان يتخير لغزواته أيام الجمعة ، «لتقع حروبه فى وقت تكثر فيه الدعوات والصلوات» . ثم خلف طبريه وراه ظهره وسار إلى غربها عند ما علم أن الجموع الصليبية جاءت من صفورية ووقفت له عند جبل طبرية من جهة الغرب . ولكن الصليبيين جاءوا ووقفوا له عند جبل طبرية من جهة الغرب . فإن الصليبيين لم يبرزوا له وتحصنوا فى مواقعهم، فأراد أن يحرضهم على لقائه فجعل يهبط إلى طبرية فيخرب فيها ويغنم ويحرق . وكان قصده من مهاجمة المدينة أن ينفر الجيش الصليبى لمساعدتها فيخرج من أماكنه ، فيلقاه صلاح الدين فى ميدان مفتوح، وقد نجح فى ذلك نجاحاً تاماً . فإن الصليبيين تحركوا لنجدة طبرية . فعاد صلاح الدين مسرعاً عنها وجعل جيشه على الماء ، وأفنى ما أمامه من ماء الصهاريج وكان الوقت قيظ الصيف. فلما أقبل الصليبيون لم يقدروا على بلوغ الماء الذى وراء المسلمين، ولم يجدوا فى الصهاريج التى دونهم ماء ، فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش والحر ، ولم يستطيعوا العودة إلى حيث كانوا خوفاً من جيش المسلمين . فكان هذا انتصاراً لصلاح الدين قبل أن يضرب ضربة واحدة . وعلت معنويات جنود المسلمين ، ووثقوا بالنصر قبل اللقاء ، فباتوا الليلة فى تكبير وتهليل ، بينما قائدهم الملهم الحذر يراقب نظام جيشه ، ويوقف كل جماعة فى مكانها استعداداً للمصاف فى الغد .

ولما حاول الصليبيون فى اليوم التالى بلوغ الماء كلفهم ذلك ما كلفهم ، فمنعهم صلاح الدين من ذلك إذ أدرك قصدهم ، وجعل يدور بهم حتى حصرهم حصاراً تاماً . ولم يتمكن أحد من الخروج من تلك الدائرة إلا ريمون فى جماعة

قليلة ، وكان خروجهم من دائرة الحصار مكيدة دبرها ابن شقيق صلاح الدين ، وذلك أنه رأى أن قتال ريمون وجنوده قتال المستميت فأفسح لهم حتى أخرجهم من الحصار فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصراً ثم ما لبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت ، فلم يجد ريمون أمامه غير ترك الميدان والذهاب عن الحرب جملة . وهكذا ضعفت صفوف الصليبيين بذلك النقص فى عدد المقاتلين .

بدأت منذ ذلك الحين الهزيمة . . غير أن المحصورين احتلوا تلا عند حطين وتحصنوا به مع ملكهم « كى » وأبلوا بلاء حسناً فى الدفاع عن أنفسهم . وكان المسلمون يكرون عليهم بين حين وآخر ، فتعود الجنود منحدرة عند التل وهى تحمل من الأسرى والأسلاب شيئاً كثيراً ، وكان السلطان يبعث ما فى نفسه من حماسة وثبات إلى قلوب المتحاربين ، فكانوا تحت عينيه يأتون بالعجائب من أعمال الشجاعة. وبعد استمرار الهجمات العنيفة حينا هوت خيمة الملك بعد كرات ثلاث واستأسر من بقى من الفرسان .وكان النصر تاماً لصلاح الدين وجنده ، وسجد شكراً لله.

كان بين الأسرى الكثيرين فى هذه المعركة، الملك كى ملك بيت المقدس . والأمير أرناط عدو صلاح الدين العنيد ، وجوسكلين أمير كورتنى ، وهمفرى أمير تورون ، وقادة المعبدين ، والاسبتارية .

أكرم صلاح الدين الملك وقدم إليه ماء مثلجاً فشرب وأعطى فضلة للأمير أرناط ، فقال صلاح الدين عند ذلك : « إن هذا لم يشرب الماء بإذنى » يريد أنه لم يصر آمناً من عقابه . « ها أنا أنتصر لمحمد » . ثم عرض عليه الإسلام ولكن الرجل أبى ، فسل صلاح الدين النمشاة (السيف) وضربه بها فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر .

تسلم الناصر صلاح الدين بعد انتهاء معركة حطين — قلعة طبرية ، فقد سلمت صاحبتها وهى زوجة القومص ، الذى كان هرب إلى طرا باس خلال معركة حطين ، حيث مات ، وأمنها الناصر وسمح لها بمغادرة القلعة وحمل أموالها ، فخرجت ولحقت بزوجها فى طرابلس ، وفى أعقاب ذلك النصر دانت جميع البلاد الداخلة فى نطاقها ، وهى بلاد الصلت والبلقاء والسواد والجولان حتى حوران .

٧ - تحرير بيت المقدس

مر بنا الحديث عن سقوط القدس الشريف فى قبضة الصليبيين فى ١٥ يوليو ١٠٩٩ والمذابح التى اقترفوها ، فراحوا يديرون المدينة كما يشاءون ، واستولوا على جميع المبانى الإسلامية والمسيحية المنتمية إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، ثم حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة واستعملوا المسجد الأقصى لمصالحهم ثم أقاموا مملكتهم اللاتينية بزعامة جودفرى دوبويون ، وتعاقب بعده ملوك الصليبيين .

ومرت الأعوام وأفاق المسلمون من هول تلك الصدمة التى حاقت بأشرف ما يعتزون به حتى جاء المخلص الناصر صلاح الدين ، فعزم على تحرير بيت المقدس ووضع الخطة الجريئة ، فما كاد ينتهى من معركة حطين وينتصر فيها على خصومه حتى سار إلى بيت المقدس على رأس جيش من العرب والترك والأكراد والمصريين [1] ، فحاصرها من الناحية الغربية ، ثم نقل جيشه إلى الناحية الشمالية عند المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة ، وأخذ رجاله الأشداء فى تركيب آلات الحصار وفى إعداد وسائل القتال . وكانت حامية المدينة مؤلفة من حوالى ٦٠٠٠٠ مقاتلا ، ويحيط بالمدينة سور منيع من جهاتها الأربع .

لما أتم صلاح الدين حصار القدس ، أنذر الأعداء طالباً منهم الاستسلام ، فلما أبوا راح يضربهم بمجانيقه الشديدة ، فنشب قتال عنيف أبلى فيه الفريقان بلاء حسناً ، وتمكن المسلمون من خرق جانب من السور الشرقى . فيئس الصليبيون وأدركوا أن لا محالة فى الدفاع ؛ فأرسلوا رسلهم إلى السلطان طالبين الاستسلام . فتردد صلاح الدين أولا ثم أتاح لهم مغادرة القدس لقاء الجزية على أن تدفع خلال أربعين يوماً . وهكذا غادروا القدس بأمان دون أن يصابوا بأذى ، كما أنه عفا عن كثيرين مفتدياً هو وحده عشرة آلاف شخص .

استعاد صلاح الدين بيت المقدس حينما استطاع المسلمون ذلك ، وكان ذلك فى يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧) أى بعد

---

(١) ذكر عماد الدين الكاتب أن صلاح الدين ذهب لحصار القدس على رأس عساكر مصر ولما تم النصر قال : « ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار » . الفتح القسى .

٨٨ سنة من احتلالها . وبعد احتلال القدس انتشر الجنود فى طرقات المدينة للحفاظ على الأمن . فلم يقع فى المدينة حادث نهب أو سلب وراحت الأعلام الإسلامية تخفق على الأسوار والأبراج .

وفى ٤ شعبان ٥٨٣هـ (٩ أكتوبر ١١٨٧) أقام المسلمون صلاة الجمعة فى المسجد الأقصى بإمامة القاضى محي الدين محمد بن زكى الدين الذى عينه صلاح الدين منذ ذلك الحين خطيباً للمسجد تقديراً له على صدق نبوءته بفتح القدس فى شهر رجب . وتعتبر خطبته الحماسية من أهم الخطب الدينية التاريخية . وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته ، أمر السلطان صلاح الدين بإزالة ما لحق بالأماكن الشريفة من آثار نصرانية ، فرفع عن قبة الصخرة المذبح ، ومحا الصور والتماثيل، وغسل الصخرة ، بماء الورد المعطر وأعاد للمسجد الأقصى روعته ، ويثبت ذلك ما نقرأه منقوشاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الذى هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه فى شهور سنة ٥٨٣ هـ وهو يسأل الله عزه شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة .

وأمر السلطان بعد أيام بدعم سور القدس ورم ما تهدم منه ، وأمر بإنشاء عدد من الأبراج القوية ، وحفر خندق حول السور . ومن آثار صلاح الدين ، قبة يوسف القائمة على الطرف القبلى من ساحة الصخرة و « جامع الجبل » على جبل الطور شرق المدينة ، والخانقاه الصلاحية » التى بناها فى جانب من منزل البطريرك الملاصق لكنيسة القيامة .

أقام صلاح الدين قرابة شهر فى القدس الشريف ، ثم عزم على استئناف الجهاد ، فرحل عن المدينة يوم الجمعة ٢٥ شعبان عام ٥٨٣ هـ (٣٠ أكتوبر ١١٨٧) ، ثم وصل عكاء صحبة شقيقه العادل .

بعد تحرير القدس

اتجهت موجة الفتح الصلاحى بعد سقوط القدس نحو الحصون الفرنجية ، فجرفت فى طريقها الشوبك والكرك إلى الجنوب ، وقلعة كوكب الهواء ، والشقيف (شقيف أرنول) ، وصهيون إلى الشمال، ثم سقطت عسقلان، وصفد وانطرطوس وجبلة واللاذقية .. جميعها قبل نهاية عام ١١٨٩ . ولم يبق فى قبضة الفرنج سوى صور وطرابلس وأنطاكية وبعض المدن والحصون فى شمال سورية.

وسنورد فيما يلى ثبتا بهذه المعارك المظفرة .

١ — عسقلان : يوم الأحد ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٣ هـ - ٧ سبتمبر ١١٨٧

٢ — قلعة هونين : ٢٣ شوال ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ .

٣ — غزة : ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ .

٤ — صور : يوم الجمعة ١٠ رمضان ٥٨٣ هـ / ٢٢ رمضان - ١١٨٧ .

٥ — جبلة (المدينة والقلعة) يوم الجمعة ١٨ جمادى الأولى ٥٨٤ هـ — ١٥ يوليو ١١٨٨ .

٦ — اللاذقية : يوم الجمعة ٢٥ جمادى الأولى ٥٨٤ هـ - ٢٢ يوليو ١١٨٨

٧ — قلعة صهيون : يوم الجمعة ٢ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ — ٢٩ يوليو ١١٨٨ .

٨ — بكاش . يوم الجمعة ٩ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ - ٥ أغسطس ١١٨٨

٩ — الشغر : يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ - ١٢ أغسطس ١١٨٨

١٠ — السرمانية : يوم الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة ٥٨٤ هـ - ١٩ أغسطس ١١٨٨

١١ — قلعة برزية : يوم الثلاثاء ٢٧ جمادى الآخرة - ٢٣ أغسطس ١١٨٨

١٢ — قلعة دربساك : ٢٢ رجب ٥٨٤ هـ - ١٦ سبتمبر ١١٨٨ .

١٣ — قلعة بغراس (بالقرب من أنطاكية) : ٢ شعبان ٥٨٤ هـ — ٢٦ سبتمبر ١١٨٨ .

١٤ — قلعة صفد : ١٤ شوال ٥٨٤ هـ — ٦ نوفمبر ١١٨٨ .

١٥ — قلعة كوكب : ١٥ ذى القعدة ٥٨٤ هـ — ٧ ديسمبر ١١٨٨ .

١٦ — قلعة الشقيف أرنول : ربيع الأول ٥٨٥ هـ — ١١٨٩

١٧ — سقوط عكا فى قبضة الصليبيين : صفر ٥٨٥ / ٥٨٧ — مارس ١١٨٩ / ١٢ يوليو ١١٩١ .

١٨ — معركة أرسوف : ١٤ شعبان ٥٨٧ هـ — ٧ سبتمبر ١١٩١ .

١٩ — استيلاء الصليبيين على داروم (ج عسقلان) : ٥٨٨ هـ — ٢٢ مايو ١١٩٢ .

٢٠ — صلح الرملة : ٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ — ٣ سبتمبر ١١٩٢ .

محادثة بين فارس أيوبى وأمير صليبى

٨ — معارك حصار عكا

(صفر ٥٨٥هـ - رجب ٨٧٥ / مارس ١١٨٩ — أغسطس ١١٩١)

امتنعت صور فلم تسقط فى قبضة المسلمين وأصبحت مركزاً هاماً للصليبيين بعد ما انضم اليهم كثيرون من وراء البحر ، ولما أحسوا بقوتهم وأن صلاح الدين يدبر لهم الكمائن، استقر رأيهم على أن يذهبوا إلى عكا لاسترجاعها ، فيكون بذلك لهم مينتان عظيمتان على ساحل سورية الأوسط .

بلغ صلاح الدين خبر سير الفرنج من صور إلى عكا ، وإلى حصن الشقيف (بلفورت) ، فظن ذلك خدعة منهم يريدون صرفه عن الحصن ، فتريث حتى عرف أنهم جادون فى مشروعهم . فأسرع بمكاتبة أمرائه ليأتوا اليه ، فاجتمع اليه جيش عظيم وجمع مجلساً حربياً ليختار طريق السير ، أيساير الفرنج على الساحل ويقاتلهم قبل وصولهم عكا ، أم يلقاهم هناك على المدينة بعد أن يسلك طريقاً داخلية ماراً بطبرية . فاختار أمراءه الطريقة الأخيرة . وبالرغم من عدم موافقته ، فقد اتبع ما أقره مجلس أمرائه على حسب عادته . وكان أول ما عنى به صلاح الدين عند بلوغه عكا أن يرسل اليها الامداد بعثاً بعد بعث قبل أن يستفحل أمر حصار الفرنج لها .

أصبحت عكا بعد زمن قصير محصورة بالفرنج تحت ملكهم «كى» والأمير كونراد ، وأحاط حول الفرنج من الخارج جيش صلاح الدين ، وكان البحر مفتوحاً يمد الفرنج من جهة بما يأتى مع أساطيلهم ، ويمد عكا خفية لأن أسطول الفرنج فى البحر كان حينئذ أقوى من أسطول المسلمين (١)

اجتمعت قوة الفرنج وقوة الدولة الاسلامية عند عكا فى أغسطس عام ١١٨٩ (شعبان ٥٨٥ هـ) . وسنشاهد سباقاً عظيماً بين الشرق والغرب استغرق عامين ، حدث فى خلالهما معارك كثيرة ، بعضها كبير وبعضها إصطدامات صغيرة إلى أن جاء فيليب ثم ريكارد الانجليزى (قلب الأسد) فى ربيع عام ١١٩١م (٥٨٧هـ)

---

(١) محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبى وعصره ، ص ١٥٦ — ١٦٢ القاهرة ـ ١٩٢٧

فأصبحت قوة الفرنج أكبر من أن يغلبها صلاح الدين . فآثر ترك المدينة اليهم فسلمت فى يوليو عام ١١٩١ م (١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ) . وسنقسم أعمال القتال بين الجانبين إلى مراحل ثلاثة : الأولى من أول الحصار إلى هجوم شتاء عام ١١٨٩ م ، والثانية من ربيع سنة ١١٩٠ م ، والثالثة من ربيع سنة ١١٩١م إلى سقوط عكا .

المرحلة الأولى للحصار

حدث ما توقعه القائد صلاح الدين ، فعندما وصل إلى عكا ، كان الفرنج قد إختاروا مكانهم وحصروا عكا حصاراً تاماً وكان عددهم ألفى فارس وثلاثين الفاً من المشاة . فكان هدف صلاح الدين الأول أن يجعل فى الحصار ثغرة يستطيع أن يصل بها إلى المدينة بالجنود والأقوات لتقدر على المقاومة . وانفتح الطريق أخيرا إلى المدينة بعد مشقة ، ولكن الفرنج جعلوا يعاودون الكرة حتى يتموا الحصار مرة أخرى ، فكانت تنشب المعارك يومياً حول الأسوار . وكان المتحاربون من الجانبين يقطعون بعض وقتهم فى فترات الحرب ليتحدثوا ويمزحوا ! وقد بلغ الصراع أشده فى هذه المرحلة من الحصار بعد حوالى شهر ونصف من البدء فيه ، فدارت رحى أشد معركة شهدتها أسوار عكا ، وتقلب الحظ بين الجانبين ، ولكن ثبات السلطان وإخلاص أفراد أسرته وشجاعة جنودهم . . . كل ذلك جعل النصر للمسلمين بعد أن قتل من الجانبين عدد عظيم .

جمع السلطان بعد هذه المعركة مجلساً حربياً ؛ وكان يدرك أن هذه الصدمة الأولى لابد أن تؤثر فى نفوس أعدائه ، فاذا تابع الهجوم كان رفع الحصار عن عكا محققاً ؛ ولكن أمراءه رأوا تفضيل الراحة بعد وقوفهم عند عكا نحو خمسين يومياً ؛ فنزل على رأيهم وكانت غلطة لأن الراحة أفادت الصليبيين أضعاف ما أفادت المسلمين . ولم يستأنف بعد تلك الراحة قتال جدى فى هذا العام لدخول الشتاء ؛ فاكتفى صلاح الدين بادخال المؤن والرجال إلى عكا ؛ وتراجع بجزء من الجيش إلى الخروبة تخلصاً من عفونة الميدان حول عكا لما

كان به من جثث القتلى . وكان يتوقع حينذاك وصول الإمداد إلى أعدائه بقيادة ملك الألمان فردريك برباروسا .

المرحلة الثانية للحصار

بعد انتهاء الشتاء أرسل صلاح الدين يدعو أمرائه لاستئناف القتال فى ربيع عام ١١٩٠م (٥٨٦هـ) فأتت إليه الإمداد وجاءت مساعدات من الخليفة ببغداد. ووصل إليه النفاطون والزراقون والعاملون على آلات الحصار . . . وحينذاك قام صلاح الدين بهجوم عام من الخارج برا ليشغل جنود الفرنج فيخفف بذلك الضغط على البحر حينما وصل الأسطول المصرى . فدارت معركة برية بحرية فى وقت واحد وانتهت بانتصار عظيم ودخول الأسطول المصرى إلى عكا محملا بالمحاربين والمؤن . ومن حسن حظه أن حملة الألمان كانت غير موفقة لاتخاذها الطريق البرى الطويل عبر شرق أوروبا والقسطنطينية ، فضلا عما قابلته من الصعاب فى آسيا الصغرى ومقاتلة فرسان مملكة الروم الإسلامية وملكها قليج أرسلان . ثم مات فردريك غرقاً .

سمع صلاح الدين بالأنباء المريعة وهى اقتراب جيوش فردريك ، فاتخذ الحيطة وأرسل جماعة كبيرة من جيشه المرابطة على منافذ سورية من الشمال ، وما لبث أن أتته أنباء الضعف الذى انتاب ذلك الجيش، ففرح الناس،وما زالت الأخبار ترده كل يوم بزيادة الضعف إلى أن عرف أخيراً أن فلول ذلك الجيش قد لجأت الى أنطاكية . . وقد شعر الفرنج الذين حول عكا بنقص جنود صلاح الدين عند ما أرسل بعض أمرائه إلى الشمال ، فأرادوا أن ينتهزوا الفرصة وهاجموا الجبهة التى نقصت جنودها وهى ميمنة الجيش الصلاحى ، وكان عليها شقيقه الملك العادل، فدارت هناك معركة عظيمة تعرف باسمه،وهى المعركة العادلية.

المعركة العادلية[1] (٥٨٦ هـ — ١١٠٩ م)

استمر النضال أكثر النهار واشترك فيه المحصورون فى عكا ، فقد خرجوا على الفرنج من خلفهم أثناء المعركة فتم النصر بذلك للمسلمين وقتل من الفرنج

(١) نسبة إلى الملك العادل شقيق السلطان صلاح الدين .

عدد عظيم ، فزادت الروح المعنوية فى عكا. وتعتبر الموقعة العادلية أكبر وقائع المرحلة الثانية لحصار عكا . . ثم جاءت الإمدادات للفرنج بقيادة الكونت هنرى (هنرى دى شمبانيا) . وبدأ الحصار يشتد مرة أخرى وجعل الفرنج يقذفون أسوار المدينة بالمجانيق ،غير أن شجاعة المدينة لم تفل أمام هذه الهجمات العنيفة ، فقد كان بهاء الدين قراقوش،وحسام الدين أبو الهيجاء بين الجند يوقدون فيهم الشجاعة ، وكان الزراقون والنفاطون يتابعون أعمالهم الجريئة بالنيران والأحجار الثقيلة،وفى أثناء الحصار حدث كثير من بطولات الشجاعة والجرأة التى تمتلىء بها مؤلفات المؤرخين ، واستمر القتال عنيفا شهرين ظهرت فيها روح صلاح الدين وثباته رغم مرضه ورغم تفشى الأمراض فى الجند . وجعل صلاح الدين يحتال على عدوه بتدبير الكمائن والهبوط عليه بين حين وآخر .

وأخيرا جاء الشتاء قبل رفع الحصار عن المدينة ، فاضطر السلطان إلى أن ينصرف عن المدينة وجعل يصرف جنوده للراحة،وهو يشعر بأن المدينة قد حان أجل تسليمها ولسوء حظ عكا ، لم تستطع السفن الآتية من مصر بالمؤن أن تدخل إليها وذلك لشدة هياج البحر ، فغرقت وتكسرت . . .

المرحلة الثالثة لحصار عكا

مضى على الحصار صيفان وشتاءان وجاء الربيع من سنة ١١٩١م ، فأخذت جيوش صلاح الدين تجتمع إليه من أنحاء الدولة ، كما أخذ الفرنج يجددون إغاراتهم على المدينة ويشددون حصارها، بينما قلت الأقوات فى عكا كما تضاءل عدد المدافعين فيها . وقد زاد الأمر مشقة مجىء أسطول فرنسى وآخر إنجليزى يحملان جنود فيليب أوجست وجنود ريكارد .

اجتهد الفرنج منذ أول هذه المرحلة فى طم الخندق حول عكا ، ولكن أهل المدينة صبروا على المقاومة . وكان صلاح الدين يجد مشقة كبرى فى مهاجمة الفرنج لتحصنهم فى خنادقهم ، ولهذا أمكن الفرنج أن يضيقوا الحصار على عكا وصار أمرا شاقا أن تصل المؤونة إلى داخل المدينة . ومع ذلك فقد استطاعت بعض السفن الإسلامية تدمير بعض قطع الأسطول الإنجليزى وإغراق من فيها.

وحاول عبثا ملك الإنجليز أن يتفق على صلح مع صلاح الدين، فقد أصر السلطان على أن يتابع الحرب حتى يخضع له عدوه فى النهاية .

بدأت ترد إلى صلاح الدين الرسائل من المدينة تعبر عن الضيق والشدة ، أخذ الفرنج يقربون من أسوار المدينة حتى أصبحوا بجوارها، ولم يقدر السلطان على مساعدة المدينة مساعدة كبرى مع محاولته ذلك بكل ما استطاع ، وأخيرا لم يجد بدا من مفاوضة الفرنج فى التسليم بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والسفن وأن تدفع نظير الأسرى المسلمين مائتى ألف دينار وتطلق ألفا وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الفرنج ، ومائة فارس معينين وأن يرد صليب الصلبوت وأن يخرج جميع من فى المدينة سالمين بما معهم من الأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ولكن تلك الشروط لم تنفذ كلها وقتل مسلمو عكا ! .

مقاتل صليبي

هكذا سلمت عكا للفرنج فى ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ (١٢ يوليو ١١٩١) بين حزن الجنود فى خارج المدينة وألم السلطان لما ناله الفرنج من الفوز على خصومهم وانتعشت روحهم المعنوية عقب ما أصابهم فى معركة حطين . .

٩ — معركة أرسوف

(١٤ شعبان ٥٨٧ هـ — ٧ سبتمبر ١١٩١)

قويت الروح المعنوية عند الصليبيين، وسرعان ما سار ريكارد إلى جنوب عكا على رأس جيوشه قاصدا الاستيلاء على مدن الساحل وحصونها . ثم إذا ما اطمأن إلى تحقيق أهدافه نفذ إلى الداخل ليستولى على بيت المقدس .

لم يحدث قتال يذكر إلا عند أرسوف[1] ، فقد اشتد ضغط المسلمين على الصليبيين عند ما اقتربوا من غابة أرسوف يوم ٦ سبتمبر ١١٩١ ، وأخذ ريكارد فى الطواف حولها مستطلعاً المنطقة الواقعة بين البحر والغابة واخترقت جيوشه نصف الغابة بسلام وحط رجاله للراحة على نهر الفلايك وبركة رمضان.

وفى صباح السبت ٧ سبتمبر (١٤ شعبان)، تحرك الفرنج فى اتجاه أرسوف الواقعة على بعد ستة أميال من نهر الفلايك وثلاثة أرباع الميل من الطريق الرملية العامة ، وسارت جموع الصليبيين فى خمسة مجموعات : المقدمة ، وبها فرسان الداوية ، ويليهم الإنجليز والأنجويين ، وخلفهم الملك كى وجنده من بواتو ، ثم جماعة من الإنجليز ، ثم المؤخرة وبها فرسان الاسبتارية . وانتشر الجيش الصليبى فى المنطقه الممتدة بين ساحلى البحر وعساكر المسلمين . وقام الكونت هنرى دى شمبانيا وفرقته المشاه بحماية ميسرة الجيش الصليبى من ضربات المسلمين . وبدأت معركة أرسوف فى التاسعة من صباح ٧ سبتمبر بهجوم إسلامى عنيف على ساقة العدو ، فاندفع المشاة من بعض البدو والسودانيين بسهامهم ، وخلفهم فرسان الترك فضلا عن الجموع المحتشدة من الحمالين ومماليك صلاح الدين

---

(١) بلدة صغيرة تقع على بعد عشرة أميال شمال يافا بفلسطين. احتلها الملك بلدوين الأول الصليبى عام ٤٩٤ هـ / ١١٠١ وأسماها أرزوتوس ثم استعادها صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ ثم نشبت عندها معركة دامية بين صلاح الدين وريكارد (١١٩١) وأعيدت الى الصليبيين (١١٩٢) . عادت إلى المسلمين حينما استولى عليها الظاهر بيبرس بعد حصارها ٤٠ يوما (٢٩ أبريل ١٢٦٥) .

الخاصة وأمراء مصر وسورية والعراق بعساكرهم ، وتطورت المعركة من الهجوم على الساقة إلى هجوم تطويقى شامل على الجيش الصليبى جميعه . وسرعان ما امتلأت غابة أرسوف صخبا واندفع الجيش الأيوبى فى ثلاث شعب: إحداها على المقدمة الصليبية لتحول بينها وبين أرسوف ، والثانية على الساقة ، والثالثة صوب الجناح الصليبى الأيسر . وأدرك صلاح الدين أن أعنف المقاومة الصليبية صادرة من الساقة ، فقذف بنفسه بين صفوف الطلائع فى جماعة من خيالة الفدائيين . وظل المشاة الصليبيون يدافعون الهجمات المتعاقبة حتى نفذ صبرهم . وفى أثناء هذا الموقف اندفع فارسان من الاسبتارية صوب الأتراك دون أوامر وتبعتها فرق الفرسان الباقية ثم حملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على الميمنة الأيوبية ، وأخرى على الميسرة وثالثة على القلب فاندفع الجند بين أيديهم ، وخشى ريكارد أن يفلت زمام القيادة ويخرج الصليبيون عن طاعته ، فأعطى إشارة ببدء الهجوم ، ودقت الطبول . ولم يتوقع صلاح الدين تغيير خطة العدو المفاجئة[1] من الدفاع المنتظم إلى الهجوم العنيف وشهد قلب جيشه يفر فراراً كاملا ، وتبعته الميسرة ، فتحول ابن شداد إلى طلب صلاح الدين ولم يجد به سوى ١٧ فارساً ثبت بهم صلاح الدين وحوله أصحاب الأعلام والكوس . وتابع العدو فلول الهاربين مسافة ميل ثم وقف خوفا من الكمين الإسلامى . وجمع أحد الأمراء وهو تقى الدين عمر شتات سبعمائة فارس تركى من الفارين وكربهم على الصليبيين وأسر فارساً صليبيا ثم ذبحه . وانتهز الملك ريكارد ما حدث لجيش خصومه ، فحمل على المسلمين مرة ثانية ، فتقهقروا فى غير نظام إلى مسافة ميل ثم وقف فوقفوا وانتظمت صفوفهم ثانية . وتابع ريكارد زحفه إلى أرسوف فوصلها وضرب خيام مقدمة جيشه خارج أبوابها . وانتهز الملك العادل فرصة هذه الحركة الصليبية السريعة ، فانقض على مؤخرة الصليبيين فى عدد كبير من الترك ، غير أن ذلك لم يغير من

(١) د. نظير حسان سعداوى: التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ص ٢٧٣ — ٢٧٤

حركات ريكارد الذى انقض على الجيش الأيوبى للمرة الثالثة حتى أجبرهم على الدخول فى غابة أرسوف .

عند ذلك وقف صلاح الدين عند تل يقع عند مدخل الغابة حيث جاءته بعض العساكر . . . وتم النصر للصليبيين ، وقتل من المسلمين كثيرون من الأمراء وأكثر من سبعة آلاف من أصحاب الرتب المختلفة ، ولم تزد خسائر العدو على المائة .

دخل ريكارد أرسوف وقضى فيها يوما ثم غادرها فى التاسع من سبتمبر إلى يافا فوصلها فى اليوم العاشر وقرر الراحة فيها شهرين استطاع خلالها إصلاح حصونها .

أما صلاح الدين فقد انسحب من أرسوف إلى الرملة حيث كتب إلى الأمراء بإرسال النجدات إليه سريعاً ، وعقد مجلسه مساء العاشر من سبتمبر للاتفاق على خطة المعركة التالية ، فأشار الأمير علم الدين بن سليمان بن جندر بإخلاء عسقلان والاحتفاظ بالقدس لأن هدف العدو بعد يافا هو مدينتا عسقلان والقدس . فاعترض صلاح الدين على هذا الرأى ، ولكن رجحت كفة المعارضة واتخذ المجلس قراراً بتخريب عسقلان ، وإقامة الملك العادل بقرب يافا مع بعض القوات لمراقبة تجمعات الصليبيين وحركاتهم .

خربت عسقلان واشترك صلاح الدين وولده الأفضل فى عمليات الهدم التى انتهى منها يوم ٢٣ سبتمبر . ثم قصد إلى الرملة وخرب حصنها وذهب إلى القدس ثم عاد منها إلى اللد فهدمها كذلك ، كما هدم حصون النطرون وغزة ، وغيرها من الحصون الواقعة على طريق يافا — القدس .

* * *

بدأ الملك ريكارد حديث الصلح مع الملك العادل ، ثم مع السلطان صلاح الدين فوافق على الشروط المبدئية، ولكن عندما أعلن هذا الخبر بين الصليبيين هاج قسسهم ورفضوا، وتوقفت المفاوضات مؤقتاً. واستمرت الحرب مع الحزب

الصليبى المعارض وهوحزب كونراد الذى أرسل إلى صلاح الدين يطلب مصالحته على قاعدة إعطائه صيداً وبيروت ، مقابل خروجه على الصليبيين وقيامة بمحاصرة عكا والقاء القبض على ريكارد وتسليمه إلى السلطان لكسب صداقته والإتفاق معه على قاعدة عامة للصلح .

والواقع أن صلاح الدين لم يخسر شيئاً بل كسب كسباً مادياً ومعنوياً ، لأن إطالة المفاوضات أتاحت الفرصة لوصول الإمداد من مصر فى الوقت المناسب ، فضلا عن أنها أحدثت الفرقة فى معسكر الصليبيين .. غير أن ريكاد أراد أن يحاول محاولة حربية سريعة للاقتراب من بيت المقدس . فزحف فى ٢٢ نوفمبر من يافا شرقاً ، واحتل الرملة ثم وصل بيت نوبة يوم ٢٢ ديسمبر وبذلك أشرف على القدس ولم يستطع التقدم بسبب الأمطار ، وهجمات الأتراك على خطوط المواصلات الخلفية ، وأخيراً استقر رأى الملك على العودة إلى يافا فارتدت قواته إلى الرملة يوم ٨ يناير ١١٩٢ . أما صلاح الدين فانتقل من النطرون إلى القدس فوصلها يوم الجمعة ١٢ ديسمبر ١١٩١ وقدم عليه الأمراء وأخذ فى تحصين مواقعه .

وتشاء الظروف ... فقد اغتيل كونراد فى فراشه بمدينة صور يوم ٢٧ أبريل ١١٩٢ ، فتخلص ريكارد من أكبر منافس له ، وأخذ فى الزحف من عسقلان جنوباً إلى حصن داروم (بالقرب من رفح) وفتحه عنوة يوم ٢٢ مايو ١١٩٢ وهكذا أصبح الطريق أمام الصليبيين مفتوحاً إلى مصر ، إذا لم يدركهم صلاح الدين . وفعلا عاد إلى عسقلان ليتجه إلى القدس يوم ٧ يونيه ، فوصل النطرون فى اليوم التاسع ، ووصل بيت نوبة يوم ١١ يونيو ، وإلى قلونية يوم ١٦ يونيه .

وفى ٢٣ يونيو هاجم الصليبيون قافلة مصرية عظيمة فنهبها وأسروا كثيرين من رجالها ، فتضاعفت قوة الصليبيين وصح عزمهم على القدس [١] .

ولما علم صلاح الدين وهو بالقدس خبر القافلة المصرية وعزم الصليبيين على استعادة القدس ، عقد مجلس الشورى (أول يوليو ١١٩٢) واتفق من حضره على دفع الصليبيين عن القدس وإفساد المياه الموجودة فى ظاهر القدس حتى لا يبقى

(١) نظير حسان السعداوى : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

حول المدينة ماء أو عشب ينتفع منه الصابيون . وبينما تجرى الاستعدادات العسكرية غير بعض أمراء صلاح الدين أراءهم ، على أن الأقدار شاءت أن تنقذ السلطان ، فقد وصلته الأنباء بأن الصليبيين لم يتفقوا فيما بينهم على استرداد بيت المقدس وقرروا الرحيل إلى حيث أتوا . ومما يدهش أن ريكارد كان ينوى إعداد حملة لغزو مصر . وعلى أى حال ، فلم يغب عن تفكير صلاح الدين ذلك المخطط الصليبى ، فأرسل إلى مصر للاستعداد لصد أى حملة توجه إليها .

وبينما كان ريكارد يزحف نحو بيروت ، غادر صلاح الدين بيت المقدس (٢٣ يوليه ١١٩٢) قاصداً يافا ، فوصلها فى ٢٨ يوليو ورتب قواته . وفى اليوم التالى بدأ الزحف عليها ، وعمل النقابون فى أسوارها وصوبوا المجانيق ، واستمر القتال خارج أبواب المدينة إلى يوم الجمعة ٣١ يوليو ، ثم أشعلوا النار فى الثغرات التى أحدثها النقابون وزحفوا عليها من جميع الجهات ، ودخلوا يافا عنوة وسلمت حاميتها .

استؤنفت مفاوضات الصلح بين الجانبين ، وكانت عسقلان حجر عثرة فى تلك المفاوضات حتى نزل ريكارد عنها وعن طلب العوض عنها وصح عزمه فى الصلح . وتمت هدنة عامة براً وبحراً بين المسلمين والصليبيين ، وانتظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع وثلاث أيام وثلاث ساعات على قول بعض المؤرخين . وقد عرف هذا الصلح بصلح الرملة ، ومن شروطه :

أن يكون للصليبيين يافا وعملها عدا الرملة واللد ومجد ليابا ، وقيسارية وأعمالها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها عدا الناصرة وصفورية ، وتكون بلاد اللد والرملة مناصفة بين الفريقين ، وأن تخرب عسقلان ، وأن تدخل بلاد الاسماعيلية وانطاكية وطرابلس فى الصلح . وأن يسمح للمسيحيين بزيارة القدس ، وأن يتاجر كل من المسلمين والمسيحيين فى بلاد الآخر .

وقع كل من صلاح الدين وريكارد على وثيقة الهدنة ، ووضعت الحرب أو زارها . ثم أبحر ريكارد من عكا يوم ٩ أكتوبر ، وعاد الجنود المسلمون

إلى بلادهم بينما عاد صلاح الدين والعادل معاً إلى القدس فوصلاها فى ١٢ سبتمبر ١١٩٢ ، وأمر بإجراء عدة إصلاحات فى المسجد الأقصى . وفى ١٤ أكتوبر خرج من القدس ونزل على نابلس ثم رحل إلى بيسان وأمر بتعمير قلعتها ثم نزل بظاهر طبرية وخرج منها إلى قلعة صفد ، ثم مر على قلعة هونين ومرج عيون وحط رحاله أخيراً ببيروت حيث تلقاه واليها عز الدين أسامة يوم ٢٩ أكتوبر ، وفيها التقى ببيهموند صاحب أنطاكية وصالحه عليها مقابل ١٥٠٠٠ دينار سنوياً ثم رحل صلاح الدين إلى دمشق .

وفى دمشق مرض صلاح الدين وصعدت روحه الطاهرة قبل شروق الأربعاء سابع عشر من صفر سنة ٥٨٩ هـ / ٤ مارس ١١٩٣ وله من العمر ٥٧ سنة ، فكانت وفاته خسارة فادحة للعرب والمسلمين . ودفن فى قلعة دمشق وبعد ذلك شيد إبنه الأفضل مقبرة خاصة شمال الجامع الأموى بدمشق ونقل إليها جثمان السلطان سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥

قبر السلطان صلاح الدين الأيوبى فى دمشق

الفصل السادس

الجيش بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي

١ — معركة دمياط

(٦١٥—٦١٨هـ/١٢١٨—١٢٢١م)

كانت المائة السابعة للهجرة (المائة الثالثة عشر للميلاد) مشحونة بأنباء غزو الفرنج للشام والثغور المصرية ، فطلائع جيوشهم كانت تطرق موانىء هاتيك البلاد بين حين وآخر ، ولكنهم يصدون عنها بفضل المآصر البحرية [١] ذات السلاسل الحديدية المحكمة الصنع ، والأبراج المنيعة ، ويردون من حيث أتوا .

كان المؤرخ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) من بين المؤرخين الذين نقلوا الينا خبر حصر الفرنج مدينة دمياط واستيلاءهم على سلسلة مينائها وسننقل ماقاله :

لما عاد الفرنج من حصار الطور ، أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨) ، فساروا فى البحر إلى دمياط ، فوصلوا فى صفر ، فأرسلوا على بر الجيزة [٢] بينهم وبين دمياط النيل ، فإن بعض النيل يصب فى البحر المالح عند دمياط ، وقد بنى فى النيل برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها فى النيل إلى سور البرج لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر . ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت

---

(١) المأصر سلسلة أو حبل يشد معترضا فى النهر أو البحر يمنع السفن من المضى الى حصون الميناء أو قلعتها . وكانت الثغور ذات المآصر تتمتع من جهة البحر بسلام لا يضارعها فيه إلا تلك المدن التى تحيطها الأسوار . أنظر: ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٨ .

(٢) الجيزة فى اللغة هى الناحية وجانب الوادى .

مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها من أقاصى ديار مصر وأدانيها . فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل ، بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممن يريدهم ، وشرعوا فى قتال من بدمياط ، وعملوا آلات ومرمات (مراكب كبيرة) وأبراجاً يزحفون فيها فى المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه . وكان البرج مشحوناً بالرجال . وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل ، وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية جنوب دمياط ، والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه، فلم يظفروا منه بشىء ، وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ، ثم بعد ذلك ملكوه وقطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر ، فنصب الملك الكامل عرض السلاسل جسراً عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ، ثم انهم قاتلوا عليه أيضاً قتالا شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه ، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها فى النيل فمنعت المراكب من سلوكه [1]

ويعتبر شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى المعروف بأبى شامة (ت ٥٦٦ هـ) من أولئك المؤرخين الذين اتصلوا بأمور هذه الحرب ، ووقفوا على كثير من أحداثها وأنبائها وقد وصف برج السلسلة فى ميناء دمياط خير وصف لأنه رآه رأى العيان ، وأفاض فى رواية استيلاء الفرنج على هذه السلسلة ، بقوله :

« وفيها (سنة ٦١٥ هـ) أخذ الفرنج النازلون على دمياط ، برج السلسلة فى آخر جمادى الأولى ، فأرسل الكامل إلى العادل شيخ الشيوخ يخبره ويستصرخ به، فلما اجتمع العادل، فأخبره ، فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت .. قال .. سمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه ، فقال : هو

---

(١) الكامل فى التاريخ (١٢ : ص ٢١٠ — ٢١١ ط أوروبا ، ١٢ : ص ١٣٣ ط بولاق).

قفل الديار المصرية ، وصدق . فإنى لما رأيته فى سنة ١٢٨ (١٢٣٠) ، كما سيأتى ذكره ، بان لى صحة ما أشار الشيخ على بن محمد السخاوى إليه ، وذلك أنه برج عال ، بنى وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه، وفى ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى الجيزة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها ، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان » [1] .

هذا ما جاء فى أهم المصادر العربية بإيجاز ، ولننتقل إلى شرح مراحل هذه المعركة .

ركب الفرنج بجموعهم البحر وانطلقوا إلى دمياط فى صفر ٦١٥هـ (١٢١٨)، فنزلوا بعد أيام عليها ، وهم فى نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف من المشاة بقيادة حنا دى برين ملك بيت المقدس [2] ، وخيموا فى الشاطىء الغربى للنيل تجاه دمياط (القديمة) ، وحفروا حول جنودهم خنادق ، وأقاموا عليها سوراً ، ومن ثم أخذوا فى قتال حامية برج دمياط .

فى ذلك الوقت كان على ضفتى النيل عند دمياط برجان منيعان ، وبينهما سلاسل غليظة من الحديد (مأصر) ، تمتد عبر النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المتوسط من عبور ديار مصر . وكان فى هذين البرجين حامية قوية ، ولا يزال مكانهما يعرف حتى اليوم باسم « بين البرجين » .

(١) الذيل على الروضتين لأبى شامة : ص ١٦٠ ، القاهرة ١٩٤٧ . انظر أيضا شمس الدين الذهبى : دول الإسلام ، ج ٢ ص ٨٨ط حيدر أباد عام١٣٣٧هـ والمقريزى: الخطط ، ج ١ ص ٣٤٤ — ٣٤٩ ، وعنه نقل على باشا مبارك فى خططه : ج ١١ ، ص ٣٦ — ٣٨ . والمقريزى: السلوك فى حوادث ٦١٥ هـ ، ص ١٨٨ـ ١٩٤،١٩ـ ١٩٥

(٢) يرجح أن هذه الأرقام التى ذكرها المؤرخون العرب مبالغة ، فإن المكان الذى نزلت فيه الحملة لا يتسع لإيواء هذا العدد الضخم فضلا عن صعوبة تموينه .

تقدم الفرنج غربى النيل لقتال أهل دمياط ، وصنعوا آلات ومرمات وأبراجا حملوها على السفن إلى البرج الرئيسى ليملكوه حتى يتم لهم الاستيلاء على دمياط ، فخرج الكامل على رأس جيشه (٥ ربيع الأول ٦١٥ هـ - يونيو ١٢١٨) بعد أن طلب من والى الغربيـة بأن يمده بجموع العربان ، ثم تقدم الأسطول المصرى فى اتجاه جنوب دمياط . ثم وصل الملك الكامل إلى ناحية العادلية جنوب دمياط ، وسير القوات ليمنع الفرنج من العبور ، وصار يركب فى كل يوم ولأكثر من مرة من العادلية إلى دمياط لتـدبير الأمور وعرقلة أعمال الغزاة . ولـكن حامية دمياط صمدت فى قتال الأعداء فلم يظفروا بشىء ودمرت مرماتهم .

ظل الحال على ذلك أربعة أشهر ، بينما كان العادل يجهز جنود الشام شيئاً بعد شىء ، ويرسلها إلى دمياط حتى أصبح لدى ابنه الكامل عدد وفير من المتحاربين . وفى خلال تلك الأحداث مرض الملك العادل فى سورية ومات (أغسطس ١٢١٨) عن خمس وسبعين سنة ، فخلفه ابنه الملك الكامل سادس ملوك مصر من الأيوبيين .

ذكرنا أن الفرنج نزلوا على الشاطىء الغربى للنيل ، فرأى الكامل أن يسد مجرى النيل فى وجههم وحاول إقامة جسر عظيم يعترض المجرى ، ولـكن الفرنج قطعوا الجسر ، فلجأ الكامل إلى عدة مراكب وملأها ثم أمر بخرقها وإغراقها فى النيل لتعوق تقدم السفن الصليبية . ولـكن الصليبيين تغلبوا على تلك الصعوبة . فلجأوا إلى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى فيه قديماً ، فحفروه حفراً عميقاً وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط ، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت إلى موضع يقال له بورة [١] يقابل العادلية حيث أقام الكامل [٢] ، وبذلك أصبح فى استطاعة الصليبيين الهجوم على المعسكر الأيوبى عن طريق البحر .

---

(١) بليدة تقع بالقرب من ساحل البحر المتوسط فى شمال غرب دمياط ، وينسب إليها السمك البورى المعروف بمصر . ويصل بين بورة والعادلية الخليج الأزرق .

(٢) المقريزى : السلوك ٢ ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

وبالرغم عن سقوط برج السلسلة فى أيدى الفرنج فقد ظنوا أن كل شىء أصبح متيسرا لديهم، ولذلك انسحب بقسم كبير من الفرنج ليعودوا إلى بلادهم، ومن ثم صار حنا دى برين ينتظر وصول إمدادات جديدة . وقد وصلت فعلا فى سبتمبر ١٢١٨ صحبة الكاردينال بلاجيوس مندوبا عن البابا وقائدا أعلى للصليبيين فى حملتهم تلك على مصر، وأخذت القيادتان — حنا دى برين وبلاجيوس تتنازعان وتتنافسان ! .

وفى ٩ أكتوبر ١٢١٨ قام الملك الكامل بمهاجمة معسكر الصليبيين فى بورة بمواجهة دمياط ، فعبر النيل على رأس أربعة آلاف من رجاله وقام بهجوم مفاجىء على المعسكر الصليبى، ولكن الصليبيين كانوا على حذر فصمدوا وتغلبوا على المصريين ، وقد اضطر الكامل ورجاله إلى التراجع إلى الضفة الشرقية للنيل بعد ما تكبدوا خسارة كبيرة . وقد أراد الفرنج أن يعبروا إلى ضفة دمياط ولكن باءت محاولتهم بالفشل . وقد زاد موقف الكامل سوءا أن قبائل البدو نزحت من سيناء والشرقية لتستفيد من حالة الفوضى التى أعقبت نزول الصليبيين بالدلتا ، فقطع البدو الطرق وأغاروا على القرى ونهبوها فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج .

وكان الشتاء قد حل . . . فإذا بالبحر يهيج على معسكر المسلمين ويغمره بالماء . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل ألح الفرنج فى القتال ليحققوا غرضهم فى الاستيلاء على البلاد . وفى هذه الآونة اندلعت بين رجال الكامل فتنة أثارها عماد الدين المعروف بابن المشطوب، بين أتباعه لكى لا يعترفوا بالكامل سلطانا عليهم بعد أبيه ، فوقع السلطان فى حيرة من أمره وأوجس خيفة على ملكه . فترك العادلية إلى قرية أشموم طناح[1] وأصبح الجند دون سلطان وساد الهرج

(١) أشموم طناح بلدة مصرية قديمة تقع على الشاطىء الشرقى للبحر الصغير الذى كان يعرف باسم بحر أشموم نسبة إلى هذه البلدة وكان اسمها المصرى القديم شمون أرمان وسماها العرب أشموم طناح نسبة إلى كورة طناح التى كانت تقع أشموم فى دائرتها وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان وهو اسمها القديم محرفا .

بينهم ثم غادروا معسكرهم دون نظام ، ولا نعرف هل كان هذا الانسحاب خطة مدبرة وضعها أمراء الجيش لكى يدخلوا فى رؤس الفرنج انهم يتقهقرون !

ومهما يكن من الأمر ، فإن الفرنج علموا فى يناير ٢١٩ بما كان من أحوال المسلمين ، فعبروا النيل إلى شاطىء دمياط الشرقى بسلام ، وغنموا مافى معسكر المسلمين .. وكاد الكامل يهم بمغادرة البلاد ولكنه تمكن من الثبات فى مكانه والتف حوله رجال الجيش. وبعد يومين وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وهو بأشموم ، فقويت به شوكته .

أحاط الفرنج بدمياط براً وبحراً ، وضيقوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليهم وحفروا خندقا حول معسكرهم المحيط بدمياط وشيدوا عليه سوراً ، وظل أهل دمياط يقاتلونهم أشد قتال ويقاومون الفرنج مع قلة الأقوات عندهم على حين كان الكامل يقاتل الفرنج الذين حالوا بينه وبين دمياط . فلم يصل إليها أحد من لدنه سوى رجل من الجاندارية يسمى « شمايل » كان يخدم فى ركاب السلطان « جاندارا » ، وكان يخاطر بحياته ويسبح فى النيل بين سفن الأعداء المتناثرة على ظهر الماء ، غير عابىء بشىء ما إلى أن يدخل دمياط ، ويعود إلى السلطان حاملا أنباء أهلها ، بعد أن يكون قد عمل على تدعيم الروح المعنوية بينهم ، ويطمئنهم بقرب وصول النجدات ، فلا عجب أن نال حظوة لدى الكامل .

ومع ذلك فقد زاد ضغط حصار الفرنج على دمياط ، وحالوا دون وصول الامدادات إليها ، والدمياطيون يذودون عن حماها ويصدونهم منها وقد نفذ ماعندهم من المؤن. وإذ أقبلت سنة ٦١٦هـ (١٢١٩) بلغت الحال بالدمياطيين حدا لا يحتمل ، وطرق المسلمون أبواب الحيلة لكى تصل الأطعمة إلى دمياط وقد قيل فى هذا الصدد أنهم كانوا يأتون بجمل ويشقون جوفه ويملأونه بالطعام ثم يخيطون جلده ويلقون به فى النيل ، فيسير منحدراً مع التيار حتى يصل إلى دمياط، فيأخذه الدمياطيون. فما عرف الفرنج شيئاً من هذه الحيل حتى

كانوا يحبطونها . وظل المسلمون يحاربون من داخل دمياط ومن خارجها ، والصليبيون يوالون الهجمات ، حتى أمر الكاردينال بلاجيوس أن يهجموا عليها براً وبحراً دفعة واحدة .

وثبت الفرنج السلالم على أسوار دمياط ، وجاهد المسلمون ليحبطوا الحصار فأحرقوا تلك السلالم فقتلوا وأغرقوا من الفرنج عدداً عظيما ، ولكن ذلك كله لم يجد أمام كثرتهم ، وأراد الكامل أن يخفف وطأة هجوم الفرنج على دمياط فهجم على مخيمهم ليصرفهم عنه ، ونجحت الفكرة وعاد بعض جنودهم عن دمياط لمواجهة الميدان الجديد ، وأصبحت الحرب شديدة الوطأ فى ميدانين — بين الدمياطيين والفرنج من جهة ، وبين هؤلاء والكامل من ناحية أخرى .

وأخذ الدمياطيون فى محنتهم يتفاهمون مع رجال الكامل كلما ضيق الفرنج عليهم بأن يصعدوا إلى أعلى البرج ، ويوقدون النار فتراها جنود السلطان فيعلمون أن أهل المدينة فى ضيق . فيهجمون على مخيم الفرنج فيرتد هؤلاء عن محاربة المدينة ليحاربوا جنود السلطان .

استيلاء الفرنج على دمياط

وأخيراً لم تتمكن دمياط الباسلة المقاومة .. فتسور الفرنج الأسوار واستولوا على المدينة يوم الثلاثاء ٢٤ شعبان ٦١٦ هـ (أكتوبر ١٢١٩) فكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً وإثنين وعشرين يوماً . وحينما استولوا على دمياط أعملوا السيف فى الناس وتجاوزوا فى ذلك حداً يقف منه التاريخ جازعاً ، وحولوا مسجد أبى المعاطى إلى كنيسة سموها كنيسة القديسة مريم ، وظلت هكذا إلى أن استرد المسلمون دمياط .

وبعد ذلك بيومين رحل الكامل مع قواته أمام طلخا على رأس بحر أشموم (١) دمياط ، وخيم بالمنزلة التى عرفت بالمنصورة (٢) والبحر المذكور يحول بينه وبين الفرنج .

---

(١) يعرف اليوم بحر أشموم باسم البحر الصغير أحد فروع الرى الشهيرة بالدقهلية
(٢) المنصورة أنشأها الملك الكامل منزلة لعسكره وسماها المنصورة ، تيمنا بانتصاره =

بدأ الفرنج فى تحصين دمياط ثم أخذوا يستعدون للاستيلاء على القاهرة فنازلوا الكامل عند المنصورة وصار بينهم وبين جيش المسلمين بحر أشموم وبحر دمياط فى مائتى الف من المشاة وعشرة آلاف فارس على ما ذكرت المراجع العربية وهو رقم يظهر فيه المبالغة .

حشد الكامل مائة قطعة من السفن تجاه المنصورة : وفى تلك الأثناء زاد القلق فى القاهرة وسائر أنحاء البلاد . ثم وصل الأمير حسام الدين يونس ، والفقيه تقى الدين طاهر المحلى لدعوة شعب بالقاهرة ومصر إلى الجهاد ، فلقيت الدعوة من الجماهير حماسة وأقبلوا يتجمعون إستعداداً للسير إلى الجهاد .

أما الكامل فقد بدأ فى إعداد الخط الثانى للقتال ، وحشد ألفى فارس وآلاف من العربان بالقرب من شار مساح [1] وسارت السفن ومعها حراقه كبيرة إلى رأس بحر المحلة [2] وعليها الأمير بدر الدين بن حسون ، وبذلك انقطعت مواصلات الفرنج براً وبحراً .

وفى ذلك الحين قدمت النجدات من الشام ، كما وصلت الإمداد للفرنج واستعد الجانبان للمعركة المقبلة .

كانت أولى النجدات الاسلامية التى قدمت نجدة الملك الأشرف موسى ابن العادل ، فالملك المعظم عيسى ، والمنصور صاحب حماة ، والناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، والمجاهد صاحب حمص ، والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك وغيرهم ، فكان لهذه النجدات أثر فى تغيير الوضع الحربى .

بدأ قدوم تلك النجدات فى ١٣ جمادى الآخرة عام ٦١٨هـ (يوليو ١٢٢١

= على الفرنج ولم يزل بها حتى استرجع دمياط ، فصارت المنصورة بعد ذلك مدينة كبيرة بها المساجد والحمامات والفنادق والأسواق (الخطط المقريزية جـ ١ ص ٢٢١)

(١) شار مساح قرية بالدقهلية تقع على فرع دمياط شمال شربين وبينها وبين دمياط خمسة كيلو مترات .

(٢) بحر المحلة ترعة تتفرع عن بحر مليج الذى يخرج من فرع دمياط عند بلدة ميت عطار قرب بنها الحالية ، وكان مخرج بحر المحلة جنوب بلدة طلفت ثم يسير نحو الشمال الغربى ومارا بالهياتم وبلقينة حتى يصب فى فرع دمياط قبالة شارمساح على الشاطىء الآخر .

وتتابع وصولها حتى بلغ عدد فرسان المسلمين حوالى ٤٠٠٠٠ ، فحاربوا الفرنج برا وبحرا ، وأخذوا منهم ست شوان وجلاسة (سفينة حربية كبيرة) ، وبطسة (سفينة حربية كثيرة القلاع) ، وأسروا منهم أيضاً ألفين ومائتى رجل ، فتضعضع الفرنج نتيجة تلك الخسائر وبعثوا يسألون المفاوضات .

استمرت المفاوضات بين الجانبين فى منزلة المنصورة حيث كانت قوات الفرنج تتقدم أحياناً . ولكن انقضت السنة والفرنج يقاومون المسلمين عند رأس بحر أشموم ودمياط مقاومة عنيفة ، مما دعا الكامل إلى متابعة الرسل فى طلب النجدات من البلدان الشقيقة ، فكانت تصل اليه باستمرار ، واشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً ، وكانت العامة تكر على الفرنج بشدة ، فى حين تقدمت فصائل الجند إلى بحر المحلة من الشاطىء الغربى للنيل وقاتلوا الفرنج . وزحفت السفن الاسلامية فى النيل للاشتباك مع سفن الفرنج ، وتمكنت الأولى من أن تستولى من الثانية على ثلاث قطع برجالها وأسلحتها .

وبينما كانت تدور رحى القتال ، وصل الرسل من جانب الفرنج فى طلب الصلح بشروط منها أن يستردوا القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية ، وما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل . فوافق أمراء المسلمين على التنازل عنها ما خلا الكرك والشوبك ، فأبى الفرنجة قائلين : لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله . فرفض الكامل وأجاب زعماء الفرنج : « لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمر بها ماخربتم من أسوار القدس مع أخذ ماذكر من البلاد ، واسترداد الكرك والشوبك أيضاً .

فلما فشلت المفاوضات استؤنف القتال ، ثم عبرت جماعات من المسلمين بحر المحلة إلى الأرض التى أقام عليها الفرنج مخيماتهم ، وفتحوا ثغرة كبيرة فى شاطىء النيل وكان فى أقصى الفيضان . وكان الفرنج فى غفلة لايدركون ماذا يصنع المسلمون . فلم يشعروا إلا والماء قد غطى أكثر الأراضى التى اتخذوافيها موقفهم . وصار حائلا بينهم وبين دمياط . بل أصبحوا وليس لهم منفذيسلكونه سوى طريق واحد ضيق . وهذا الموقف هو الذى تصوره الكامل ورجاله

للجيش الصليبي. فأمر فى الحال بوضع الجسور عند بحر أشموم طناح ، وسرعان ما عبر الجنود المسلمون عليها ، واستولوا على الطريق التى تسلكها الفرنج إلى دمياط ، فأحاط بالصليبيين الماء من كل جانب . وتصادف مرور مرمة (سفينة) كبيرة فى النيل للفرنج وحولها عدة حراقات تحميها كانت محملة بالسلاح والمؤنة فنشبت معركة بحرية ، إنتصر فيها المسلمون واستولوا على المرمة والحراقات .

فت ذلك فى نفوس الفرنج ، وألقى الرعب فى قلوبهم وتوقعوا الفشل ، وكانت جنود البر ترميهم بالقذائف السهامية ، فاختلت صفوفهم ، ولكن مالبثوا أن جمعوا جموعهم وعزموا على أن يحملوا حملة صادقة على المسلمين ،فلم يوفقوا لكثرةالوحل والمياه التى ركبت الأرض حولهم،وعجزوا عن المحافظةعلى مواقعهم وركنوا إلى طلب الصلح ، وبعثوا يسألون الكامل وإخوته الأمان على أن يسلموا دمياط دون عوض .

رأى الكامل إجابة الفرنج ، بيد أن إخوته رأوا القضاءعليهم والتخلص من شرهم . فخشى الكامل إن فعل ذلك ، أن يمتنع من بقى من الفرنج فى دمياط ولا يسلمونها ، وأن يحتاج الحال إلى مواصلة القتال فترة طويلة . لأن الفرنج بعد ما استولوا على دمياط زادوا فى تحصينها.

وحافظ الكامل على تأمين الفرنج إلى أن وافقه بقية الملوك ، بشرط أن يبعثوا برهائن من ملوكهم — وليس من أمرائهم — إلى أن يسلموا دمياطا فى مقابل أن يأخذوا ابن الملك الكامل لديهم رهينة إلى أن تعود لهم رهائنهم . وعلى هذا أقسم ملوك المسلمين والفرنج .

وبعد أيام أرسل الفرنج عشرين من ملوكهم رهناً ، كان فيهم حنا دى برين ونائب البابا وأرسل الكامل إليهم إبنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وله من العمر خمس عشرة سنة ومعه جماعة من خواصه .

وعند ما أقبل ملوك الفرنج عقد لهم الكامل مجلساً عظيما ، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه بخارج البرمون (١) فى يوم الأربعاء التاسع عشر من رجب ٦١٨ هـ (سبتمبر ١٢٢١) ، فهال الفرنج ماشاهدوه . وقدمت قسوس

(١) البرمون البحرى والقبلى وكلاهما شمالى بحر تنيس بين المنصورة وشربين

الفرنج ورهبانهم إلى دمياط ليسلموها إلى المسلمين ، فتسلمها هؤلاء فى اليوم المذكور . . ولما دخل المسلمون دمياط تبينوا منـاعة التحصينات التى أقامهـا الفرنج حتى أصبح الإستيلاء عليها بالقوة شيئاً عسيراً . ثم تبادل الفريقان الرهائن فعاد الملك الصالح ومن كان معه من حاشيته وقرر الهدنة بين الصليبيين والمسلمين مدة ثمانى سنوات ، على أن يطلق كل من الفريقين من فى حوزته من الأسرى وحلف الكامل وإخوته كما حلف ملوك الفرنج على ذلك . ثم رحل الفرنج عن دمياط بعد أن ظلت فى قبضتهم سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً ، فدخلها الملك الكامل بجنوده وأهله بين معالم الفرح والابتهاج وعمت البشرى وتوالت تهانى الشعراء .

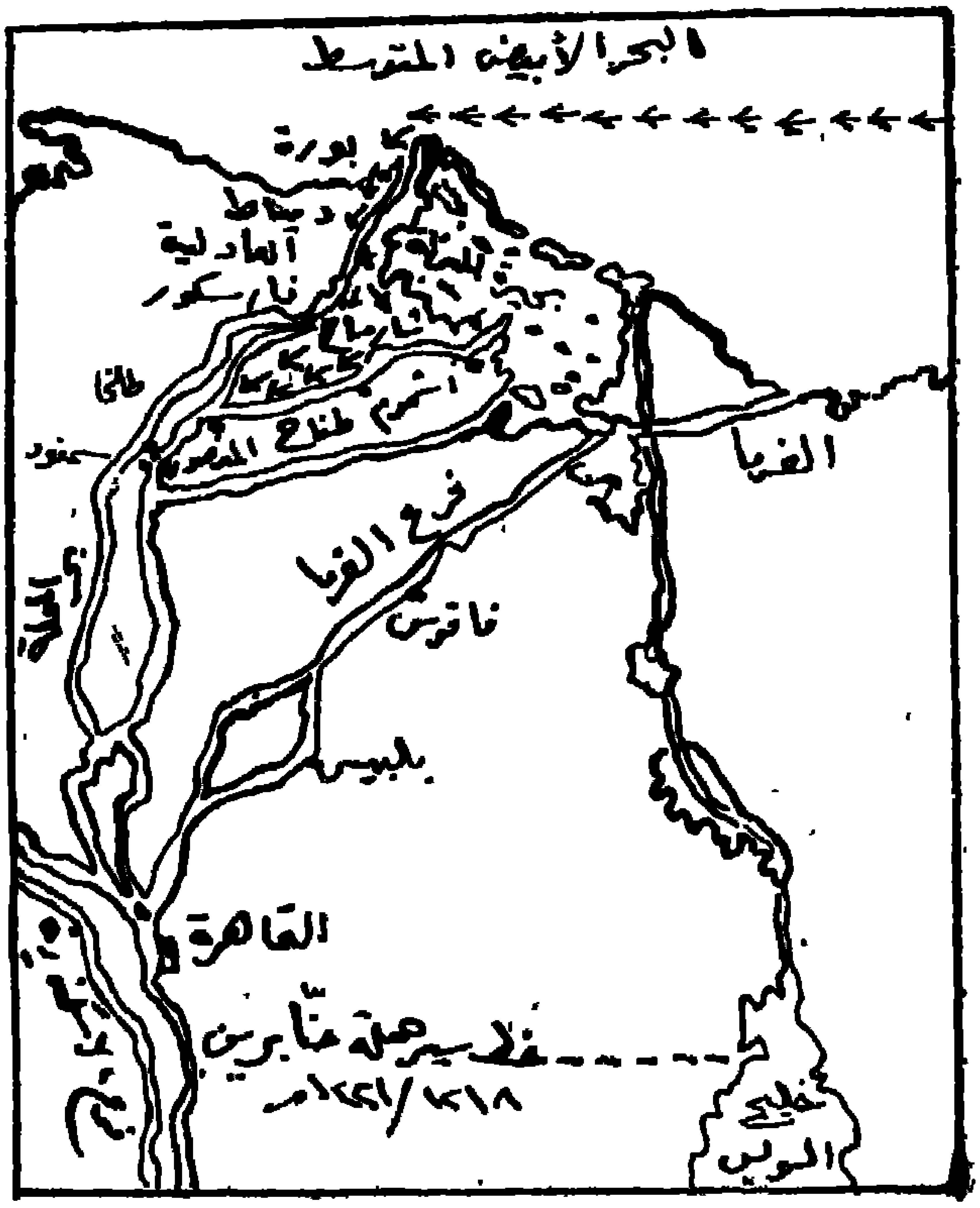

خط سير حملة حنادى برين ضد مصر خلال ١٢١٨ / ١٢٢١ م

٢ – معركتا غزة الأولى وغزة الثانية
(١٣ نوفمبر ١٢٣٩ – ١٧ أكتوبر ١٢٤٤)

ظلت بيت المقدس منذ نجح الأمبراطور فردرك الثانى فى استردادها باتفاقه مع السلطان الكامل وبموجب صلح يافا سنة ١٢٢٩ حتى غزاها الخوارزمية سنة ١٢٤٤ مدينة مفتوحة غير محصنة ، وكان من حق المسلمين أن يدخلوها ويشرفون على أماكنهم الدينية داخلها ، كما أن حكومة مملكة بيت المقدس الصليبية لم تنزح إليها كعاصمة عقب هذا الصلح واستمرت تتخذ عكا قاعدة لها .

ونلاحظ فى خلال الربع الثانى من القرن الثالث عشر جمود الأيوبيين أمام الصليبيين فى الشام ، فلم يحاولوا استغلال الظروف السيئة التى أصبح فيها الصليبيون بعد أن عاد فردرك الثانى إلى الغرب دون ملك قوى يرعى مصالحهم ، ولم يفكروا فى استرداد بيت المقدس رغم بقائها غير محصنة . ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك التردد والإحجام ، تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتى . وقد دأب هؤلاء على تهديد الخلافة العباسية فى بغداد ، ومحاكاة المغول فى تدميرهم البلاد التى يجتاحونها حتى ولو كانت هذه البلاد إسلامية . وقد أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين فى البلدان المجاورة ، وتحالف الأيوبيين مع عدوهم علاء الدين كيقباد الأول سلطان السلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمى . وانتصروا عليه وتمزقت دولته (١٢٣١)، وهامت جموع الخوارزميين فى كثير من بلدان الشرق الوسيط يعرضون خدماتهم على من يرغب فى شرائها من حكام المسلمين (١) .

ومع ذلك فإن الخطر ما زال باقياً ، يتمثل فى جحافل المغول ، الذين واصلوا نشاطهم ، ففتحوا بلاد فارس سنة ١٢٣١ وأصبحت خطوتهم التالية وضع أيديهم على العراق وتهديد أملاك الأيوبيين فى الجزيرة وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى . ثم عاد العداء مرة أخرى بين سلاجقة الروم والأيوبيين ، ولم يلبث أن انقسم

---

(١) محمد سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ، ص ٢٨ ١٠ — ١٠٣٠ القاهرة ١٩٦٣ .

البيت الأيوبى على نفسه،فانشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان الكامل وبدأ يدبر ثورة شاملة ضد الكامل مستعيناً فى ذلك بصاحب حمص . على أن الظروف شاءت أن يموت الملك الأشرف (١٢٣٧) صاحب دمشق قبل نشوب الحرب الأهلية بين أبناء البيت الأيوبى [١] . ثم خلفه شقيقه الصالح عماد الدين اسماعيل وسرعان ماأعاد تكوين الحلف الأيوبى ضد الكامل .

علم الكامل بتلك الحركة المدبرة ضده ، فأسرع بالحضور من مصر وحاصر دمشق وقطع عنها المياه فى أواخر عام ١٢٣٧ وأوائل ١٢٣٨ فاستسلمت له المدينة وعزل الصالح عماد الدين إسماعيل عن دمشق وأعطاه إقطاعاً صغيرا . ولم يلبث السلطان الكامل أن توفى بعد قليل (أوائل مارس ١٢٣٨) . وجاءت وفاته نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية ثم انهيارها .

وخلف الكامل إبنه العادل الصغير (الثانى) ، بيد أن سرعان ما وقع فى نزاع مع أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل . . . وانضم الموالون إلى كل فريق منهما ، أضف إلى ذلك فريق الصالح إسماعيل الذى حكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ — ١٢٤٥) ... ثم استطاع الأمراء عزل العادل الثانى (مايو سنة ١٢٤٠) واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب الذى دخل القاهرة فى ١٩ يونيو سنة ١٢٤٠ ليصبح سلطاناً على مصر (١٢٤٠ — ١٢٤٩) . ومع ذلك فقد بدأت صفحة جديدة من النزاع بين هذا السلطان وعمه الصالح إسماعيل ملك دمشق . . الذى أوقع الدولة الأيوبية فى حالة شديدة من الفوضى . . فى الوقت الذى تعرضت الشام فيه لغزو جموع الخوارزمية من ناحية وتهديد المغول من ناحية ثانية ، ثم مجىء حملة صليبية إلى الشام من ناحية ثالثة .

معركة غزة الأولى (١٩ نوفمبر ١٢٣٩)

ولنبدأ الكلام بتلك الحملة الصليبية الفرنسية التى تزعمها ثيبوت الرابع . فقد وصلت إلى عكا عام ١٢٣٩ وكان على رأس ألف وخمسمائة فارس عدا

---

(١) محمد سعيد عاشور: المصدر السابق ص ١٠٣١ — ١٠٣٢ .

المشاة. ولم تتفق كلمة قادتها على الخطة العسكرية، ثم استقر رأيهم على أن يقصدوا عسقلان أولا لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها ، وبعد ذلك يقصدون دمشق لانتزاعها من المسلمين . وسرعان ما بادر الصالح إسماعيل إلى تحصين دمشق ، فى الوقت الذى أرسل فيه العادل الثانى جيشاً كبيراً من مصر إلى غزة للدفاع عن عسقلان (١) . غادر الصليبيون عكا فى أوائل نوفمبر قاصدين عسقلان فى طريق يافا . وفى الطريق انشقت جماعة من الصليبيين المغامرين للاسراع إلى الاستيلاء على غزة للحصول على ما يغنمونه وحدهم . فتمزقت تلك الحملة الصليبية على يد المسلمين قرب غزة فى ١٣ نوفمبر ١٢٣٩ ، وقتل منهم ألف وثمانمائة ، وأسر بعض زعماء الصليبيين وأمرائهم فضلا عن ٢٥٠ راجلا سيقوا إلى القاهرة .. وعند ما وصلت أنباء تلك الكارثة إلى بقية الجيش الصليبى عند عسقلان ، اضطر الصليبيون إلى الانسحاب فى ١٤ نوفمبر إلى يافا ، ومنها إلى عكا (٢) .

وفى صيف عام ١٢٤٠ تمت مؤامرة عزل العادل الثانى من حكم مصر وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله فى السلطنة (١٩ يونيو ١٢٤٠) ، كما أشرنا فيما سبق . . ولكن استاء من ذلك الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، ولم يجد سوى أن يستعين بالصليبيين ، فطلب محالفتهم ضد الصالح أيوب فى مصر والناصر داود فى الأردن ، وفى مقابل ذلك تعهد الصالح إسماعيل بإعطاء الصليبيين مدينة بيت المقدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن . وبادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، وقلعة الشقيف أرنون وأعمالها ، وقلعة صفد وبلادها . . الخ . وسرعان ما ثار الرأى العام الإسلامى فى مصر والشام على الصالح إسماعيل ، وندد العلماء بمسلك هذا الرجل المشين .

ومع ذلك فقد امتنعت حامية قلعة الشقيف (أرنون) عن التسليم ؛ فاضطر الصالح إسماعيل إلى الحضور بنفسه لمحاصرة القلعة حتى سلمت الحامية وعندئذ عاقب أفرادها ! أما الصليبيون فقد أسرعوا إلى استلام القدس ؛ ثم رابطوا

(١) محمد سعيد عاشور : المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٣٥ — ١٠٣٦ .

(٢) تعرف هذه المعركة بمعركة غزة الأولى ، أما غزة الثانية فسيرد الكلام عنها بعد صفحات .

بعد ذلك بين يافا وعسقلان ، وحشدوا بعض قواتهم صوب غزة وساندهم بعض قوات الصالح إسماعيل ! ولكن لم تقبل هذه القوات الشامية فكرة محالفة الصليبيين ضد إخوانهم المصريين ، فلم يلبثوا أن انقضوا عن زعيمهم عند غزة . وانضموا إلى القوات المصرية ليشتركوا معاً في قتال الصليبيين فأسروا كثيرين . وهكذا كانت خيبة أمل الصليبيين كبيرة[1] فانسحبوا إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٠ ثم بارحت الحملة عكا في ١١ أكتوبر ١٢٤٠ . ووجهت جهودها إلى دعم الحصون والقلاع لتأمين موقفهم في فلسطين ثم عادت من حيث أتت (١٢٤١) .

ومنذ ذلك الحين أخذت بوادر الشقاق تعصف بين صفوف الصليبيين ومع ذلك فقد واصلوا ، ولا سيما فرسان الداوية إعتداءاتهم على مدن المسلمين . كما استمر الصراع شديداً بين الصالح نجم الدين أيوب من جانب ؛ وبين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الأردن في جانب آخر .

ساء الموقف الإسلامي : كل جانب يعرض التحالف مع الصليبيين . وفي ذلك الوقت ذاته عرض السلطان الصالح نجم الدين أيوب على الصليبيين محالفته ضد صاحبي دمشق والأردن مقابل الثمن نفسه الذي عرضه هذان الملكان . .

وبذلك يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة : الصالح أيوب والصالح إسماعيل ؛ والناصر داود قد أقروا في تلك السنة ١٢٤٣ / ١٢٤٤ مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف ! الأمر الذي جعلهم فعلا يسيطرون على تلك الأماكن الطاهرة ويسيئون استخدامها ؛ ويؤذون شعور المسلمين .

ولم يقف الخطر عند ذلك الحد المهين . فوقف الصليبيون في جانب الصالح اسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الأردن والمنصور ابراهيم ملك حمص ، وسرعان ما فكر هؤلاء الثلاثة في غزو مصر بمساعدة الصليبيين . فجمعوا قواتهم عند غزة ؛ ومر المنصور بعكا ليغري الصليبيين على مشاركتهم

(١) ذكر المقريزي أن الصالح نجم الدين أيوب استخدم أسرى الصليبيين في تلك المعركة في تعمير قلعة الروضة والمدرسة الصالحية بالقاهرة .

غزو مصر بعد أن مناهم ببلاد جديدة فى الشام ؛ كما وعدهم بجزء من بلاد مصر . أما الصالح أيوب سلطان مصر ، فلم يجد بداً فى ذلك الموقف من الاستعانة بالخوارزمية ، مما أدى إلى تغير الموقف فى بلاد الشام تغيراً سريعاً !

وأزاء ذلك الخطر الخوارزمى ، اجتمعت جموع الصالح إسماعيل والمنصور ابراهيم وغيرهما وأنزلت بالخوارزمية أقبح هزيمة ، وتبدد شملهم وانقطع دابرهم ، وكان ذلك قرب الرها فى أوائل إبريل عام ١٢٤١ وطردوا جموع الخوارزمية من الأماكن التى احتلوها فى الجزيرة ، وظل هؤلاء لايجرؤون على دخول الشام حتى استعان بهم الصالح أيوب سنة ١٢٤٤ ضد ملوك دمشق والأردن وحمص الذين عزموا على غزو مصر بمساعدة الصليبيين .

ولم تكد دعوة الصالح نجم الدين أيوب تصل إلى الخوارزمية حتى اندفع عشرة آلاف منهم نحو بلادهم « الصليبية » فأغاروا على المدن والقلاع التى صادفتهم فى طريق دمشق ، فاتجهوا صوب الجليل واستولوا على طبرية ، ثم على نابلس ، ومنها قصدوا بيت المقدس وهم ينهبون ويقتلون ويسلبون ، واقتحموا المدينة الجليلة فى ١١ يوليو ١٢٤٤ واستولوا عليها فى سهولة ، وخرج الفرنجة منها إلى يافا . أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المسيحية داخل القدس ، فقد اعتدى عليها الخوارزمية ، ودمروا وأتلفوا معظمها . ولعل أهم ماحدث فى تلك الحقبة ، كان عودة بيت المقدس إلى أحضان المسلمين [١]

معركة غزة الثانية (١٧ أكتوبر ١٢٤٤)

أخذ الخوارزميون يتجهون صوب غزة للانضمام إلى الجيش المصرى الذى أرسله السلطان الصالح أيوب بقيادة القائد ركن الدين بيبرس الذى قبل بأن يتحالف مع الخوارزميين ، وكان ذلك فى أكتوبر ١٢٤٤ .

ومما يؤسف له أن مؤرخينا لم يعنوا بتلك المعركة بما تستحقه من الاهتمام .

---

(١) محمد سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ١٠٤٢ ، ١٠٦٤ .

دولة صلاح الدين والدولة الصليبية فى أخريات القرن ١٢

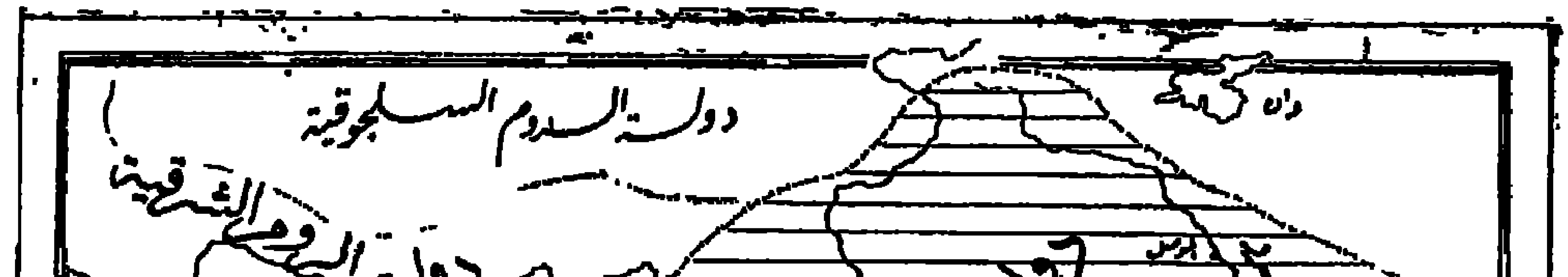

دولة صلاح الدين الايوبى

مع أن بعض المؤرخين أطلقوا عليها معركة « حطين الثانية » نظراً لأهميتها في تاريخ تلك المرحلة من التفكك الأيوبي ، وتعتبر فاتحة الانتصار العظيم على الحملة الصليبية السابعة التي دحرت في معركة المنصورة عام ١٢٥٠

وقد عني المؤرخ البريطاني ستيفين رانسمان بهذه المعركة وكتب عنها عدة صفحات (١)

تجمعت فرسان الصليبيين وقواتهم خارج غزة ، ثم انضمت اليهم جيوش حمص ودمشق تحت قيادة المنصور إبراهيم ملك حمص ، كما جلب الناصر جيش الكرك . وفي رابع أكتوبر ١٢٤٤، أخذت القوات المتحالفة تجد السير إلى الجنوب وبمحاذاة شاطئ البحر . ومع أن الناصر ورجاله البدو كانوا مستقلين في سيرهم ، فإن الصفاء كان كاملا بين رجال الفرنج وجنود المنصور إبراهيم وينبغي أن نقرر هنا حقيقة هامة وهي أن الجيش الصليبي وقتئذ كان أكبر جيوشهم عدداً بعد معركة حطين : فيليب مونتفورت وفرسانه الستمائة ،صاحب قلعة الشقيف وصيداء وأمير يافا (والتربرين) ، ورجال الاسبتارية والمعبدين بقيادة إثنين من زعمائهم وهما : أرماند بيريجور ، ووليم شاتونوف ، وكوكبة من الفرسان التيتون، وفصائل كثيرة جاءت من جميع موانئ سورية .

اجتمع الجيش المصري بعد انتظامه للقتال أمام غزة بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس ، وكان يتألف من خمسمائة آلاف من الجنود المصرية المختارة وجموع الخوارزمية . أما جيوش الأعداء فقد تجمعت في قرية حربية(٢) بالسهل الرملي الذي يمتد من شمال شرق غزة . . وكان ذلك يوم ١٧ أكتوبر ١٢٤٤. وسرعان ماعقد هؤلاء مجلس للشورى ، واقترح المنصور ابراهيم بأن يبقوا في أماكنهم ويحصنونها جيداً ضد أي هجوم يقوم به الخوارزميون . وكان

(١) Runciman, Steven : A History of the Crusades Vol. III, p. 225 - 228.

(٢) في المراجع الصليبية أطلق على هذا المكان La Forbie المرجع السابق ص ٢٢٦
أنظر أيضا : Glubb

يظن أنه بمرور بعض الوقت فسوف يفقد الخوارزميون صبرهم ، وأضاف إلى ظنه أيضا أن الخوارزمية لايميلون إلى مهاجمة المواقع المنيعة ، وأن المصريين لايقومون بأى هجوم دون معاونة الخوارزمية ، وهكذا فقد ينسحب الجيش المصرى إلى مصر دون قتال. وبعد ما شرح وجهة نظره وافقه عليها كثير من قادة الفرنج ولـكن والتر أميراً يافا فضل أن تقوم القوات المتحالفة بهجوم مباشر فى الحال ، معتمداً على كثرة قواتهم واستعدادها ، وفى ذلك تدمير شامل للخوارزمية والقضاء على تهديدات الأيوبيين فى مصر . ويبدو أن وجهة نظره هى التى نالت الموافقة . . فقد نهض على رأس قواته ثم تحرك الجيش للهجوم فكان الفرنج فى الميمنة ، وقوات دمشق وحمص فى القلب ، ورجال الناصر فى الميسرة .

أما المصريون فقد صمدوا أمام الهجمات الفرنجية وثبتوا فى مواقعهم . وفى الوقت ذاته أسرع الخوارزميه فى الانقضاض على حلفاء الفرنجة من المسلمين . وفى اللحظات الأولى من المعركة ، ثبت المنصور إبراهيم ورجاله أهل حمص وردوا الصاع صاعين ، أما قوات دمشق فلم يقاوموا الصدمة العنيفة التى وجهها الفرنج إلى صفوفهم ، ثم أداروا وجوههم وولوا الأدبار ، وشاركهم الناصر وجيشه فى هربهم وتركهم الميدان . وبينما كان رجال المنصور ابراهيم يقاتلون جيداً لتجنب الهزيمة ؛ التف الخوارزمية وداروا حول جناح الفرنج وضغطوا عليهم حتى أصبحوا قريبين من الكتائب المصرية وتحت رحمتهم . ومع ذلك قاتلوا بشجاعة لـكن دون جدوى . فقد ذابت قوتهم بعد ساعات قليلة وفقدوا معظم قادتهم ؛ ممن ماتوا أو فروا أو وقعوا أسرى . وقدر عدد قتلى الصليبيين بما لايقل عن خمسة آلاف وربما كان أكثر ؛ بالإضافة إلى ثمانمائة من الأسرى رحلوا إلى مصر (١)

كان نصراً حاسماً لمصر وحلفائها .

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣١٧ — ٣١٨

وسرعان ما اتجه الجيش المنتصر إلى عسقلان، وكانت فى قبضة الاسبتارية فقاومت حصونها هجمات المصريين ولذلك لجأوا إلى حصارها بالسفن. ثم اتجه الخوارزمية إلى يافا وكان أميرها أسيراً فى قبضتهم، فشجعهم على المقاومة ولذلك تخلى الخوارزمية عنها وتركوها.

وكان الخوارزميون يتوقعون أن يسمح لهم الصالح أيوب باستيطان مصر تقديراً لمناصرتهم له ولكنه لم يسمح لهم بذلك؛ فانتشروا فى ديار الشام يعبثون الفساد والفوضى؛ ويهاجمون حصون الفرنج والحكام المسلمين على السواء. وبعد أشهر استسلمت دمشق لجنود مصر فى أكتوبر ١٢٤٥، ومنع الخوارزمية من دخولها وأقطعوا الساحل. فثاروا واستعادوا معظم المدن التى كانوا استولوا عليها. وزحفوا على دمشق وحاصروها ثلاثة أشهر ومع ذلك فلم ييأس الصالح نجم الدين، واستمال اليه الحلبيين وغيرهم؛ وتجمعت حوله الناس ضد الخوارزميين؛ حتى تمكنت جيوشه وقوات حلفائه من إنزال هزيمة ساحقة بالخوارزمية بين بعلبك وحمص فى ٢٠ مايو ١٢٤٦؛ فتبدد شملهم ولم تقم لهم بعدها قائمة. وطارد الصليبيين فى عسقلان واقتحمها أسطوله فى منتصف أكتوبر ١٢٤٧ ثم أمر بتدمير تحصيناتها وتخريبها.

وفى عام ١٢٤٨ / ١٢٤٩ زار الصالح نجم الدين أيوب بيت المقدس بعد أن عادت إلى أحضان الدولة الاسلامية فدعم تحصيناتها. وحضر اليه فيها كثيرون من حكام الشام ليقدموا اليه فروض الولاء.

نموذج لما كانت عليه مدن الموانىء القديمة التى اندثرت كمدينة الفرما مثلا

٣ - حملة لويس التاسع ومعركة المنصورة

٤ ذو القعدة ٦٤٧ هـ - الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ .

قبل إيضاح تفصيلات هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الشرق العربى عامة ، وبخاصة تاريخ مصر ، سنتناول الكلام عن ممهداتها ، أى تلك الأحداث التى سبقتها سواء أكانت فى الغرب أم فى الشرق العربى .

٢٨ يونيو — ١٧ يوليو ١٢٤٥

اجتمع المؤتمر الكنسى فى مدينة ليون بفرنسا برئاسة البابا أنوسنت الرابع وتناقش المجتمعون مسألة فلسطين بعد فقد بيت المقدس وغيرها ، وكان من آثار المؤتمر إثارة الرأى العام الفرنسى وفى باقى بلدان أوربا برعاية الملك لويس التاسع الفرنسى الذى أخذ على عاتقه النهوض بالحملة الصليبية السابعة .

عقد الملك مجلساً كبيراً حضره القاصد الرسولى وكبار رجال المملكة ورجال الدين وخطب الملك فى الحاضرين داعياً إياهم لحمل الصليب ، وبادر فقيد إسمه فى سجل الحرب المقدسة واقتدى به إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتو وشارل كونت أنجو ؛ والفونس كنت بواتييه ؛ وانضم إليهم جوانفيل الذى صار فيما بعد مؤرخ الحملة ومن أشهر فرسانها ؛ وكذلك زوجة الملك — مرجريت دى بروفانس . وفى خلال ثلاث سنوات وفى حوالى منتصف يونية ١٤٢٨ كان قد تم تدبير معدات الحملة واستؤجرت السفن واستكملت الذخيرة والمؤن ؛ واختيرت جزيرة قبرص لكى تكون قاعدة الحملة الصليبية للاطباق على مصر .

١٢ يونيو ١٢٤٨

غادر الملك لويس باريس قاصداً ميناء أجمورت [1] وبصحبته عدد كبير من الصليبيين من بينهم زوجته وأخواه؛ أما شقيقه الثالث كونت بواتيه فقد بقى

(١) Aigues - Mortes

فى فرنسا بعض الوقت لجمع الأمداد على أن يلحق بالجيش فيما بعد .

٢٥ أغسطس ١٢٤٨

أبحر الأسطول من إجمورت وكان يتألف من سفن لنقل الجنود وأخرى من سفن القتال .

١٧ سبتمبر ١٢٤٨

رمى الأسطول فى ميناء ألليسون (ليماسول) جنوبى قبرس كما أبحر بعض الصليبيون ومنهم جوانفيل من مارسيليا .

١٧ سبتمبر ١٢٤٨ — ١٢٤٩

تأخر الأسطول فى قبرس بلامبرو ، وفى خلال تلك الأشهر نفذ جزء من المؤن والنبيذ ولم يستطع الأسطول التحرك إلا بعد تنظيم عتاده من جديد ؛ كما نفذت أموال الحملة وتسربت أخباره إلى مصر مما أتاح الفرصة للاستعداد وتحصين دمياط ، ففقد الصليبيون مزية المفاجأة . وكان فى وسعهم إدراك محصول البلاد محصوداً ومحشوداً فى الأجران مما يعاونهم على تموين جنودهم وحيوانهم

٣ صفر ٦٤٧ هـ — ١٨ مايو ١٢٤٩

وصل السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق إلى مصر ؛ ونزل فى أشموم طناح وكان العمل يستمر فى تحصين دمياط

٢٠ – ٢٢ مايو ١٢٤٩

أقلعت الحملة على دفعات من ميناء اللمسون (ليماسون) متجهة إلى مصر

٢٠ صفر ٦٤٧هـ ٤ يونيو ١٢٤٩

وصل الأسطول إلى الفرع الشرقى للنيل ورست بعض سفنه بالبر الغربى تجاه دمياط (جيزة دمياط — أو جزيرتها) لأن دمياط نفسها تقع على الجانب الأيمن للفرع الشرقى للنيل عند إتصاله ببحر الروم . ولم يكن مع الملك سوى ثلث الحملة — أما الباقى فقد جرفته الرياح العاصفة معها ؛ فاتجه إلى الشمال الشرقى . وتوغل حتى لم يمكنه أن يدرك الملك وينضم إلى قواته إلا بعد انقضاء وقت طويل . وقد نصح المستشارون — الملك بأن ينتظر هذا الجانب المتخلف

من الأسطول قبل النزول إلى البلاد المصرية ولكنه ، رفض كلامهم قائلا (إن التردد ربما يشجع العدو على مهاجمته بحراً . وفى اليوم التالى (٥ يونيو) استقر الرأى على النزول إلى البر الغربى للنيل أمام دمياط .

كانت قوات المصريين بقيادة الأمير فخرالدين مرابطة على الشاطىء الشرقى ومتأهبة للقتال وإلى جانبها عدد من السفن المسلحة لمنع الفرنج من النزول.

٢١—٢٢ صفر / ٥—٦ يونيو ١٢٤٩

شرع الصليبيون فى النزول إلى البر ، وانسحب فجأة القائد فخر الدين من دمياط بالرغم من منعتها، وربما كان ذلك للاستحواذ على الحكم، إعتقاداً منه أن مليكه قد وافته المنية ، بالرغم من مناوشات وقعت بين المصريين والفرنج ، استشهد فيها من القادة الأمير نجم الدين والأمير صارم الدين . هرب أهل دمياط ولحقوا بالجند فى أشموم طناح .

جزعت القاهرة عند وصول النبأ وهلع السلطان فى أشموم طناح . وقرر السلطان المريض الانتقال منها إلى المنصورة لميزة موقعها ، فإن النيل يحميه غربا وبحر أشموم يفصل بينها وبين الفرنج فى الشمال . وفى يوم الثلاثاء ٨ يونيو ١٢٤٩ وصل السلطان إلى مخيمه بالمنصورة ، بينما كان الصليبيون يدعمون مراكزهم فى دمياط وفيما حولها ، ثم توقفت الأعمال الحربية زهاء خمسة أشهر ونصف .

لم يجد الفرنسيون مشقة فى النزول إلى الماء الضحل بقرب الشاطىء ، فنزل إلى البر ألوف الفرسان فى دروعهم الثقيلة حاملين سيوفهم المستقيمة وممتطين ظهور جيادهم ، ويتبعهم حملة القسى ، كل هؤلاء ملأوا رحاب الشاطىء على حافة البحر وعلى رأسهم ملكهم والعلم الملكى أمامهم ، وواصلت القوات نزولها من الجانب الغربى من فرع دمياط ، فى حين أن دمياط كانت على الشاطىء الشرقى للنهر ، ومن ثم اضطروا للعودة إلى سفنهم مرة أخرى لأنه لم يكن فى استطاعتهم أن يعبروا النيل تحت رحمة الجيش المصرى المرابط فى دمياط .

خطابان متبادلان

قلنا إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب وصل من دمشق — وهو مريض أثر ما بلغه عن حملة الفرنج . فنزل بأشموم طناح فى شهر المحرم ٦٤٧ﻫ (١٢٤٩) وجمع فى دمياط من الأقوات والسلاح شيئاً كثيراً ، وبعث إلى الأمير حسام الدين بن أبى على نائبه بالقاهرة لكى يجهز له الشوانى فى دار صناعة مصر . فشرع الأخير فى تجهيزها وسيرها شيئاً بعد شىء ، ثم أمر قائد الجيش الأمير فخر الدين أن ينزل إلى جزيرة دمياط وصار النيل بينه وبينها ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه ثم وصلت سفن الفرنج بعد أن إنضم إلى جموعهم الحاشدة فرنج الساحل السورى كله وأرسل الملك لويس للسلطان كتاباً نصه :

أما بعد ، فانه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى اعترف بأنك أمين الأمة المحمدية ، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية فلو حلفت لى بكل الإيمان ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قداس الشمع طاعة للصلبان ماردنى ذلك عن الوصول إليك وقتالك فى أعز البقاع عليك . فإن كانت البلاد لى فهى هدية وقعت فى يدى وإن كانت البلاد لك والغلبة على ، فيدك العليا ممتدة لى وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قدحضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء[١]

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرىء عليه إغرورقت عيناه بالدموع وقال « إنا لله وإنا إليه راجعون » وأرسل الرد بخط القاضى بهاءالدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم » وسلام الله وصلواته على سيدنا محمدرسول الله.

---

(١) المقريزى . السلوك لمعرفة دول الملوك. نشره الأستاذ محمد مصطفى زيادةص٤ ٣٣٤-٥

الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه فلو رأت عينك — أيها المغرور — حولنا سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وأخربنا منكم ديار الأوائل والأواخر . لكان لك أن تقضى على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا إلى أى منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابى هذا فكن فيه على أول سورة النحل . أتى أمر الله فلا تستعجلوه . وكن على آخر سورة ص . ولتعلمن نبأه بعد حين . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، وإلى قول الحكماء إن الباغى له مصرع وبغيك مصرعك — وإلى البلاد يقلبك والسلام »

سقوط دمياط

اشتدت المعارك بين جنود الفرنسيين والقوات المصرية واستشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، وظلت المفاوضات قائمة إلى أن أرخى الليل سدوله ، فانطلق القائد الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من الجنود وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى يحتوى مدينة دمياط تاركين الجانب الغربى للفرنج ، ورحل فخر الدين قاصداً أشموم طناح — ولكن الجنود نسوا فى عجلتهم أن يرفعوا الجسر من على النيل ، فانقض عليه الفرنسيون واحتلوه وبهذا انفتح لهم الطريق .

فلما رأى أهل دمياط رحيل الجنود تبعوهم ولم يبق بالمدينة أحد البتة وفروا إلى أشموم طناح — حيارى لايدرون ماذا يفعلون — ومن الغريب أن دمياط احتملت فى أيام الملك الكامل حين نازلها الفرنج خسائر أقل ماتحملت فى هذه المرة ، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على انتزاعها أيام الكامل إلا بعد انقضاء عام بعد ما حل الوباء والجوع فى أهلها فأفنى منهم عددا كبيرا واستولى

الفرنج على المدينة عند شروق اليوم التالى ، وغنموا ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة والأقوات والذخائر والأموال والأمتعة وغيرها ، وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بنى كنانة الذين فروا . وإذ أدركت القوات أشموم طناح كتم السلطان غيظه ونهض بالرغم من مرضه ، فأحيا الأمل فى قلوب رجاله وبقدر ما كان فى جسمه من الأعياء والوهن تجلت فى روحه قوة الشكيمة وعزم الرجال فانتفض فى فراشه كالأسد الجريح وقد ألهب ثائرته فرار الحامية من دمياط ، فأصدر أمره بإعدام خمسين رجلا من بنى كنانة ، وعبثا حاولوا الدفاع عن أنفسهم وتبرير مسلكهم فإنه صاح فيهم أنهم يستحقون الموت إذ سلكوا مسلك الجبناء بفرارهم قبل تلقى أوامره

حملة بدون خطة (٢٤ أكتوبر ١٢٤٩) :

وصول حملة لويس التاسع الى البر أمام دمياط القديمة

دخل رجال الحملة الصليبية دمياط فوجدوا حصنها خالياً من حماته ولكن مخازنه كانت مكتظة بكل ماتشتهيه الجيوش فاستمرئوا البقاء شأنهم فى قبرس من قبل وتوالت الشهور وأحس المصريون بخلود الفرنسيين إلى الراحة فتشجعوا

على مناوشتهم وشنوا عليهم الغارات متوالية هوجاء وراح السلطان يمنح قطعة ذهبية عن كل رأس من رءوس الأعداء يأتيه به أحد جنوده فضلا عن الأسرى.

وحينئذ اختل النظام فى معسكرات الفاتحين وأصبحت دمياط مسرحاً للتهتك وبؤرة للمفاسد ، ولكم ساد الإفراط الفاضح فى الملذات والفجور ، وطفقت المؤونة تنفذ بسبب جشع التجار،ولم يكف كل هذا بل تعاقبت العواصف العنيفة على الوجه البحرى فحطمت ما ينوف على مائتين وأربعين سفينة من الراسيات على الشاطىء بالقرب من دمياط،ففدحت الخسارة فى الأرواح وتدمرت المخازن بما فيها من ذخيرة ومؤونة .

فلما وصل « الكونت دى بواتييه » من نبلاء الحملة إلى دمياط على رأس نجدة (٢٤ أكتوبر ١٢٤٩) جمع الملك مجلساً من الأشراف للبحث فى اختيار الطريق التى يسلكها الجيش ، وجرى الاستفتاء فى أى الطريقين أفضل . . طريق الأسكندرية أو طريق القاهرة فكان من رأى الكونت بييردى بريتانى ومعه بعض البرونات أنه يجب الزحف أولا على الأسكندرية نظراً لأن مرفأها يصلح لأن يكون قاعدة أمينة ولأن إمداد الجيش بحاجاته فى الأسكندرية أسهل منه فى دمياط .

ولعل أصحاب هذا الرأى كانوا ينظرون إلى أن الأسكندرية أعظم شأنا من دمياط وأنها مدينة لا يجوع الجيش فيها بسهولة وذلك فضلا عن سائر الاعتبارات العسكرية من حيث سلامة الطريق إلى القاهرة العاصمة وخلوه من العوائق الطبيعية . . بيد أن الكونت دارتوا لم يوافق على هذه الخطة واستهجنها قائلا أنه لن يسير إلى الأسكندرية إلا إذا استولى الجيش أولا على القاهرة (بابليون) التى كانت مقر السلطان . ثم عزز رأيه بأن من يريد قتل الأفعى فيجب أن يبدأ برأسها ، فأمن الملك على رأيه وطرح جانبا الخطة الأولى التى لاشك أنها كانت الأفضل والأسلم عاقبة ونحن لا ندرى لماذا لم يستفد الملك لويس من أخطاء حملة « جان دى برين » (١٢١٨) فاتبع الطريق التى سار فيها سلفه ، ولا سيا بعد أن حظى بالتوفيق فى بداية الأمر — على النقيض من

سلفه — إذ سقطت دمياط بعد عراك ضئيل . ولكنه ضيع ستة أشهر فى انتظار المؤن والإمدادات، بينما كان السلطان يعبىء جيشه . ويقيم العراقيل فى سبيل الفرنسيين ، وأكبر الظن أن لويس التاسع وأركان حربه لم يعنوا عناية كافية بدراسة المعارك التى دارت قبل ذلك بين الصليبيين والمسلمين فى مصر، وأنهم لم يدرسوا طبيعة الأراضى المصرية دراسة طيبة ، وحسبنا أنهم وقعوا فى عين الأخطاء التى وقع فيها أسلافهم .

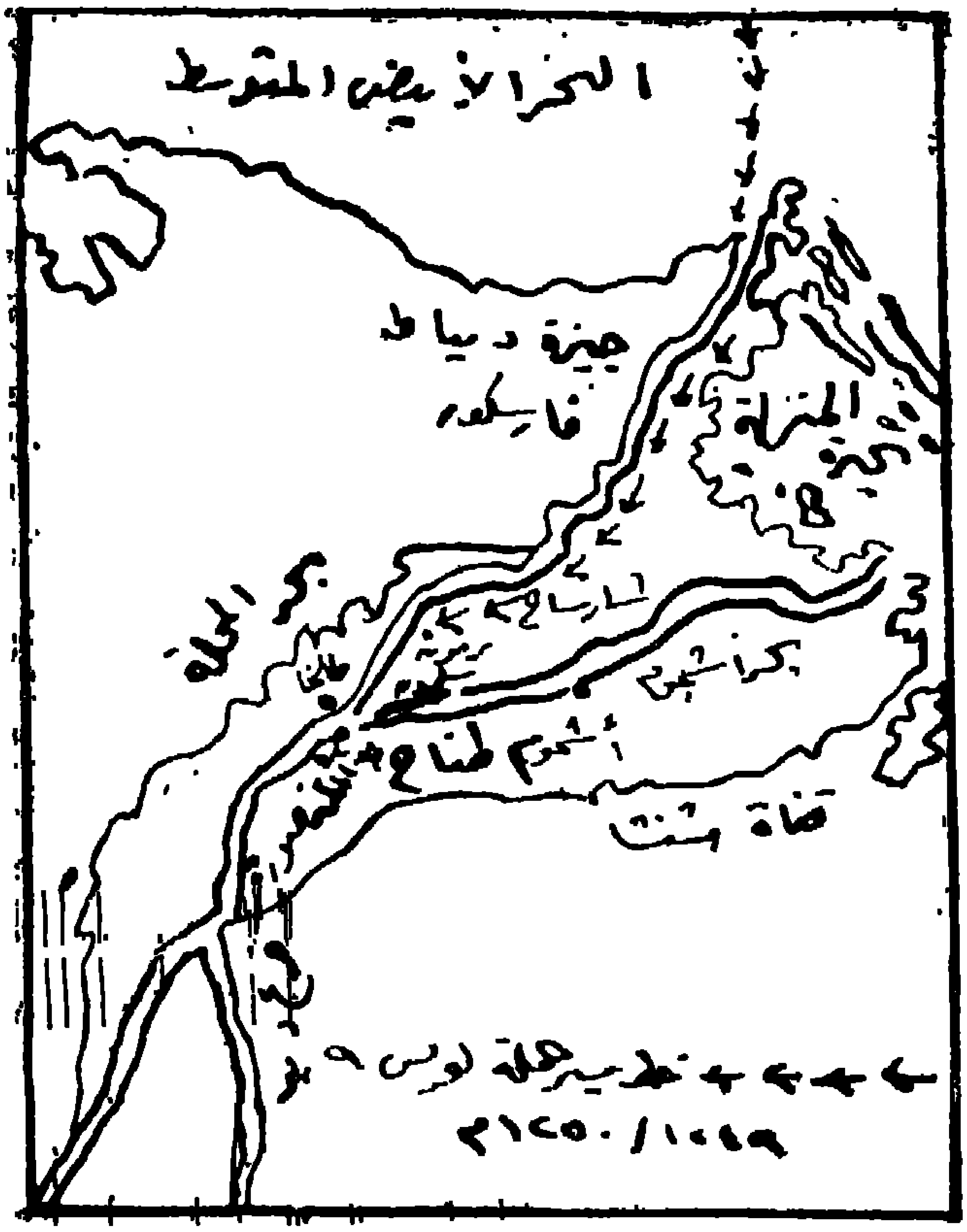

سيرة حملة الملك لويس التاسع ضد مصر عام ١٢٤٩ / ١٢٥٠

٢٠ نوفمبر ١٢٤٩

بدأ الصليبيون فى مغادرة دمياط ويتقدمون إلى القاهرة تاركين المدينة فى حراسة قوية وكان ذلك فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ .

ولذلك أمر السلطان بالانسحاب إلى المنصورة وحمل فى حراقة[1] حتى أنزل

(١) الحراقة سفينة حربية كبيرة تحمل مكاحل البارود (المدافع) والمنجنيقات التى يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء والحراقة أقل من الشونة حجما وتمتاز بالمنجنيقات كما تمتاز الشونة بالقلاع وتستخدم لحمل الاسلحة النارية الإغريقية وكانت بها مرام تلقى منها النيران على العدو واستعمل فى مصر نوع منها لحمل الأمراء وكبار رجال الدولة فى الاستعراضات .

بقصر مطل على النيل ، وجرى إصلاح السور المقام على النيل وستره بالستائر[١] وقدمت الشوانى المصرية[٢] بالعدد الكاملة والجنود وأقبل الجند والمجاهدون من عامة الشعب ، ووصلت وفود من العربان وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم وبدأوا يأسرون جنود الأعداء فوصل إلى القاهرة سبعة وأربعين أسيرا من الفرنج وأحد عشر فارسا من خيرة فوارسهم وظفر المسلمون بعد أيام بمسطح[٣] للفرنج فى البحرية فى أثناء مقاتلة بالقرب من نستراوه[٤] .

فلما كانت ليلة الإثنين نصف شعبان عام ٦٤٨ هـ (٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ م) مات السلطان الملك الصالح أيوب بالمنصورة وهو فى مقاتلة الفرنج ، فكانت مدة حكمه للديار المصرية تسع سنوات وثمانية أشهر وعشرين يوما بعد ماعهد لولده الملك المعظم توران شاه وكان يقيم فى حصن كيفا . وهنا يبدو دهاء الملكة شجرة الدر فى إخفاء أمر وفاته ، فقد حملت جثة السلطان فى تابوت إلى قلعة الروضة ، ثم نقلته عقب ذلك بمدة إلى ضريحه بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة ، وبقى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى على وظيفة نيابة السلطنة بالقاهرة .

بعد موت السلطان أحضرت زوجته شجرة الدر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والطواشى جمال الدين محسن . وكان أقرب الناس إلى السلطان وحدثتهما بأمر الوفاة وأوصتهما بالكتمان خشية أن يتسرب الخبر إلى الفرنج ، فاتفقا مع شجرة الدر على القيام بتدبير المملكة إلى أن يقدم الملك المعظم توران شاه ، ومن ثم استدعت شجرة الدر الأمراء (القواد) الذين بالمعسكر وقالت لهم : « إن السلطان قد رسم أمراً بأن تحلفوا له ولإبنه الملك المعظم غياث الدين

---

(١) جمع ستارة وهى حائط خارجى مقام من الخشب أو غيره يحتمى وراءه المدافعون عن حصن أو سور ويستخدم المهاجمون الستائر أيضا للوقاية من قذائف العدو وكانت تعمل أحيانا من اللبود ويطول المكان الذى يراد رميه بالمقذوفات كستر للرماه .

(٢) كانت الشوانى أكبر سفن الاسطول المصرى استعمالا وهى سفن كبيرة ذات أبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم وتجهز فى أيام الحرب بالسلاح والنفطية وتحشد بالمقاتلة والجنود البحرية .

(٣) نوع من السفن جمعه مسطحات والغالب أنه سمى بذلك لانه كان له سطح أو أكثر .

(٤) كانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية وعلى بحيرة البرلس أيضا .

توران شاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا من بعده ، وللأمير فخر الدين بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية (قيادة الجيوش) وتدبير المملكة فقالوا كلهم « سمعا وطاعة » ظنا منهم أن السلطان حى وحلفوا بأسرهم ، كما حلفوا سائر الأجناد والمماليك السلطانية

الصليبيون فى فارسكور

مسرح المعارك البرية والنيلية بين الأيوبيين والصليبيين عام ١٢٥٠ م

سار من المعسكر الفارس أقطاى — وهو يومئذ من رؤوس المماليك البحرية لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا(١) فخرج فى خمسين فارسا وكاد يقتل فى

(١) يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من مدينة آمد (ديار بكر) .

عبوره نهر الفرات إلا أن الله نجاه . أما الفرنج فلما بلغهم أن السلطان قد مات خرجوا من دمياط ونزلوا على فارسكور (١٢ ديسمبر ١٢٤٩) وكانت قرية من كورة الدقهلية — ثم رحلوا منها قاصدين المنصورة متجهين إلى الضفة الشرقية للنيل وظلت قواتهم تواصل السير نهراً وبراً مسرعة تارة متوقفة أخرى إلى أن اعترضت طريقها ترعة أشموم (أشمون) — وهى تمتد على مقربة من شمال المنصورة وعلى الضفة الأخرى منها ترابط القوة المصرية . فكانت أول عقبة جدية صادفت الحملة منذ قيامها السيء الذى جعلها تلقى رحلها هناك وتضطر إلى إقامة معسكرها .

أما تلك الترعة التى واجهت المغيرين فهى ترعة يسمونها الآن البحر الصغير، والحق أنها لم تلبث على حالها الأول إذ تغير مجراها منذ ذلك الحين تغيرا ملحوظا فأصبح يتفرع عن النيل فى نقطه قريبا جدا من المنصورة فى حين كان موضع التقائه فى تلك الأيام يبعد عن المدينة المذكورة إلى جهة الشمال بما يقرب من أربعة إلى خمسة أميال . وعلى صدر الرقعة الواقعة خلال هذه المسافة كانت القوات المصرية التى وقفت متأهبة للقاء الغزاة .

وكانت هناك جماعة كبيرة عدتها خمسمائة من الفرسان الأيوبيين تكمن بالمرصاد فى معسكر على مسافة غير بعيدة جنوبى فارسكور فى انتظار وصول الصليبيين ، وهم فى زحفهم إلى تلك المدينة . ولذلك لم يكد الفرنج يدخلون فارسكور دون مقاومة حتى أخذ قائد الجماعة اليقظة فى ترتيب فرسانه لمناوشتهم وتعويقهم عن الزحف جنوبا قدر الإمكان(١) ، على حين أطلق حمام الزاجل بأخبار هذا الزحف، فوصلت هذه الأخبار إلى معسكر المنصورة فى بضع ساعات وطير الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ هذه الأخبار بدوره فى اليوم التالى

(١) لازالت مدينة المنصورة فى موقعها الذى داهمها فيه الفرنسيون ولكنها اتسعت أرجاؤها وامتدت أطرافها امتدادا كبيرا وعلى الاخص ناحية الشرق .

(٢) د . محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، — المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ص ١٢٨ — ١٣٢ ، وملحق رقم ١ ، ص ٢٦٤ ب

(الجمعة) إلى القاهرة ، ومعها رسالة حربية من إنشاء الكاتب الشاعر بهاء الدين زهير ، وقرئت هذه الرسالة على الناس فى صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وغيره من الجوامع والمساجد بالقاهرة ، وكان لها من الأثر أن أوضحت للسامعين ضرورة المساعدة العاجلة بالامداد والأموال والرجال للقوات الدفاعية الواقفة بالمنصورة وضاحيتها جديلة ، حتى تستطيع هذه القوات أن تظل على المقاومة والثبات فى مواضعها ضد الزحف الصليبى ، لأنه إذا « اندفع العسكر الذين بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة ، ملكت ديار مصر أجمعها فى أسرع الأوقات » ، على قول المؤرخ ابن واصل نفسه .

ويبدو أن الملك لويس أفسح لجماعة الخمسمائة من الفرسان المصريين الأيوبيين أن تقوم بهجومها على الصليبيين ، وهم فى فارسكور ، إذ أخفى فرسانه وجنوده فى أطراف المدينة ، وبذا أغوى طلائع جماعة الخمسمائة بالدخول إليها للاستطلاع ، حتى إذا توغلت الجماعة نفسها بعد ذلك فى فارسكور ، أمر الملك لويس بالإطباق عليها من كل ناحية ، ولذا لم تجد هذه الجماعة سبيلا للنجاة سوى الفرار قبل فوات الأوان . وكانت هذه الواقعة فى يوم الأربعاء مستهل رمضان سنة ٧٤٦ هـ الموافق ٨ ديسمبر ١٢٤٩ ، واستشهد فيها الأمير العلامى أمير مجلس ، وجماعة من الأجناد . وفى رواية جوانفيل أن جماعة الفرسان المصرية الأيوبية أبيدت عن آخرها بين قتيل وغريق . . . . ولذلك لم تذكرها المراجع العربية .

ولم يلبث الملك لويس ٩ أن وصل إلى شارمساح وهى على مسافة عشرين كيلو متراً تقريباً جنوبى فارسكور ، ثم سار الملك من شارمساح ، وكان نزوله على البرمون ، وهى على مسافة عشرة كيلو مترات جنوبى شارمساح ، وكان نزوله على البرمون يوم الثلاثاء ١٤ ديسمبرسنة ١٢٤٩ الموافق ٧ رمضان سنة ٦٤٧ هـ .

وباستيلاء الملك لويس التاسع على البرمون لم يبق بين الصليبيين والمعسكر المصرى الأيوبى فى المنصورة ، وفى ضاحيتها جديلة ، سوى مرحلة نهائية واحدة

وترعة كذلك واحدة ، إلا إذا قرر الملك لويس ومشيروه أن يحاولوا الوصول بحملتهم إلى مشارف معسكر المنصورة مباشرة عن طريق النيل ، وقد اضطرب الناس فى أنحاء الدلتا والقاهرة .

وهذه المرحلة النهائية ، ومسافتها عشرة كيلو مترات أخرى تقريباً ، اجتازتها حملة لويس دون أن تلقى مقاومة ، ولم تلبث الحملة أن وصلت إلى نهاية هذه المرحلة أمام معسكر جديلة أى قبالة الجانب الشرقى من مدينة المنصورة ومعسكرها ، وذلك يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ ، وأما الترعة الواحدة فهى البحر الصغير ، ولم يكن بد من عبوره به للوصول إلى المنصورة وجديلة ، واسم هذه الترعة فى المراجع العربية المعاصرة للحملة بحر أشمون طناح ، وفى جوانفيل قناة دراكسا نسبة إلى بلدة الدراكسة شمالى دكرنس الحالية .

وبإزاء المعسكر الصليبى شمالى بحر أشموم طناح ألقت السفن الصليبية مراسيها فى النيل ، وعلى مسافة منها فى النيل كذلك ، بإزاء المنصورة نفسها وقفت أنواع مماثلة من السفن المصرية الأيوبية بالمرصاد ، ومعنى ذلك أن قوات الجانبين تراءتا بعضهما إلى بعض فى البر والنهر ، ولم يكن يفصل بينهما سوى الماء فى الحالين (محمد مصطفى زيادة ، ص ١٣٣) .

الطرفان يتحدى أحدهما الآخر وليس يحتاج هذا الموقف سوى معركة حاسمة ... لن تحدث إلا بعد عبور الصليبيين من الجانب الشمالى لبحر أشموم طناح ، حيث معسكرهم ، إلى الجانب الجنوبى الذى فيه معسكر المنصورة أو العكس، ليلتحم الفريقان بعد ذلك بقواتهما البرية الرئيسية من المشاة والخيالة فضلا عن قواتهما النهرية فى عرض النيل ، وأدرك الملك لويس التاسع أن هذا العبور لا يمكن أن يتم بإنشاء جسر عائم من السفن الصغيرة ، ليعبر عليها الصليبيون من جانبهم إلى الجانب الآخر من بحر أشموم ، بل يحتاج إلى سد بحر أشموم طناح بجسر ثابت من الطين والخشب، تبنيه مشاة الحملة الصليبية وعمالها على غرار ما حدث أثناء الزحف الصليبى جنوبى دمياط مباشرة . ولما

كان هذا العمل ضخما ويتطلب حماية العاملين ببنائه أثناء العمل ، ولذلك أمر الملك لويس بإنشاء سقيفتين يستطيع المشاة من الجند وعمال الجسر أن يعملوا تحت حمايتهما وهم آمنون ، مع إقامة برجين خشبين متحركين لحماية السقيفتين وثمانية عشر منجنيقا على جانبي البرجين الخشبيين ، للرمى منهما على المعسكر المصرى .

استغرقت هذه المعدات مدة طويلة ، تخللتها أيام من المناوشة والتراشق بالسهام والحجارة ، فضلا عن كرات النفط التى انفردت بها فرقة النفاطين فى الجيش المصرى الأيوبى . ففى اليوم الذى وصلت فيه الحملة الصليبية قبالة المنصورة وجديلة ، أى يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٦٤٧هـ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ عبرت فرقة استطلاعية صغيرة من الخيالة المصرية بحر أشموم طناح كما جاء فى إحدى المراجع الأوربية وبغتت هذه الفرقة الاستطلاعية جنود الصليبيين فى معسكرهم قبل أن يزيلوا عن أنفسهم تراب السفر ، وعادت من حيث أتت ، بعد أن فقدت من رجالها عدداً طارده الصليبيون المذعورون من أطراف المعسكر الصليبى إلى شاطىء النيل ، حيث مات أولئك الرجال غرقا فى الماء ...

وبالإضافة إلى تلك المعدات البنائية اللازمة لبناء الجسر ، قام الصليبيون بحفر خندق وبناء سور لوقاية الجانب الشمالى البرى من معسكرهم ، غير أن الأمير فخر الدين لم يمهلهم طويلا ، إذ أنفذ من خيالته سرية كبيرة عبرت بحر أشموم طناح بعد أربعة أيام من عودة سريته الأولى ، أى يوم السبت ١٨ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٢٤٩ ، ثم فاجأت الصليبيين بالضربات العنيفة وهى فى طريقها إلى داخل المعسكر الصليبى فأسرع الفرنج فى ارتداء ملابس الحرب ودفعوا المهاجمين المصريين إلى خارج المعسكر ولذلك أمر الملك لويس بأن يسرع رجاله فى بناء السور وحفر الخندق وبناء الجسر المطلوب .

تطورت الحرب بعد ذلك إلى مناوشات قام بمعظمها الجند النظاميون من الجيش المصرى فضلا عن جماعات من غير النظاميين تسميهم المراجع العربية باسم الحرافشة والعامة ودأبت هذه المناوشات على الهجمات الفجائية براً ونهراً عن طريق الممرات والمخاضات السرية التى عرفتها القيادة المصرية وجهلها الصليبيون. وفى ٧ يناير سنة ١٢٥٠ فى أثناء تلك المناوشات عاد المصريون بأحد الكونتات الفرنسيين أسيرا إلى معسكر المنصورة.

٢ يناير ١٢٥٠

وفى يوم الخميس ٧ شوال سنة ٦٤٧ هـ / ١٢ يناير ١٢٥٠ استولت البحرية المصرية الأيوبية على سفينة (شينى) وبها قرابة مائتى صليبى على رأسهم كونت كبير ... وبعد سبعة أيام أخرى ، أى يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢٠ يناير سنة ١٢٥٠ هجمت فرقة من الجيش المصرى على طول الناحية الشمالية البرية من المعسكر الصليبى وكان الملك لويس على معرفة سابقة بهذا الهجوم المصرى وميعاده بوساطة أحد عيونه . ولذا وزع الملك لويس قبيل وقوع هذا الهجوم قواته بين نواحى المعسكر توزيعاً محكما وأسند القيادة فى كل ناحية إلى واحد من إخوته ، فجعل روبرت كونت أرتوا على ناحية بحر أشموم طناح ، حيث تكدست المعدات الهندسية لبناء الجسر . وجعل شارل كونت آنجو على الناحية الوسطى ، حيث وقف الملك كذلك بالجيش الرئيسى، كما جعل ألفونس كونت بواتييه ومعه سائر الجيش من الإنجليز والشمبانيين والبورجنديين والبريتانيين على ناحية فرع دمياط من النيل .

ويذكر أستاذنا محمد مصطفى زيادة (ص ١٣٩) أن الهجوم المصرى وقع على الناحية الوسطى من المعسكر الصليبى فاستطاع قائدها كونت آنجو أن يرد ذلك الهجوم رداً عنيفا ، مما أدى إلى كثير من الخسائر فى الجانبين وكاد الكونت يقع أسيراً فى أثناء ذلك الهجوم . ثم حول الجنود المصريون هجومهم إلى ناحية فرع دمياط من المعسكر الصليبى ، حيث لقيتهم قوات ألفونس كونت بواتييه ، وصدمتهم صدمة ثانية أسفرت عن خسائر متبادلة أخرى بين الطرفين ...

وفى تلك الأثناء تمت المعدات التمهيـدية اللازمة للشروع فى بناء الجسر الصليبى « الذى تكلمنا عنه » عبر بحر أشموم طناح ، وبدأ العمل فعلا فى ذلك الجسر منذ أول شهر يناير ١٢٥٠ ، وتحمس الملك وأعوانه وجميع جنودهم لإنجاز ذلك العمل الضخم، غير أن طليعة بحر أشموم طناح تعاونت ـ فيما يظهر ـ مع القيادة المصرية الأيوبية على إفساد مراحل ذلك العمل مرة بعد مرة ، فكلما أنجز المهندسون والعمال الصليبيون سد جزء من مجرى بحر أشموم ، اشتد التيار فى الجزء الباقى من المجرى واستعصى على أية إضافة جديدة، وفى الوقت ذاته عكف المهندسون والعمال المصريون على حفر خنادق لتوسيع مجرى الماء فى ناحيتهم بقدر ما ضاق نتيجة لبناء الجسر فى ناحية الصليبيين . وهكذا ذهبت جهود الملك لويس التاسع وجنوده سدى ، وهدم المهندسون والعمال المصريون فى يوم أو يومين ، ما بذله الصليبيون من عمل شاق مدة ثلاثة أسابيع... أضف إلى هذا أن المجانيق المصرية وهى التى أقامها الأمير فخر الدين يوسف فى جديلة على الضفة الجنوبية لبحر أشموم طناح ، وعدتها ستة عشر كانت أمتن صنعاً وأدق رميا من مثيلاتها من المجانيق الصليبية على الضفة الأخرى، ويرجع بعض السر فى هـذا التفوق المصرى الأيوبى إلى قذائف النار الإغريقية وهى كرات النفط المشتعلة التى كانت تفتك بالأهداف الصليبية فتكا ذريعا وتشعل الحرائق، منها ما حدث فى يوم الخميس ٢١ شوال سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢٧ يناير سنة ١٢٥٠ وكانت النار الإغريقية تعتبر أفتك آلات الحرب حينذاك. لقد فوجىء الفرنسيون بشعلات رهيبة من اللهب تنصب على رؤوسهم كأنها تدفقت من السماء . مزيج الرعب والموت والسر الرهيب الذى أنقذ الإمبراطورية البيزنطية من الدمار ، والذى ظل مغلقا كالطلسم أمام الشعوب الأخرى أربعـة قرون حتى كشف المسلمون — قبيل هذه الحملة الصليبية مكنونه فعرفوه — وهو مركب عجيب اخترعه كالنيكوس وهو مصمم مدينة هيرابوليس فى سوريا على عهد قنسطنطين بوجوناتوس الذى حوصرت القسطنطينية فى إبان حكمه ست سنوات على يد الغزاة العرب ، فلم ينقذها منهم غير هذا السـلاح المريع ، وكذلك على عهد

لبيو الايزاوى إذ قام المسلمون بأعظم هجوم لهم وكانوا حينئذ — ولمدة قرنين بعد ذلك — فى قمة قوتهم وعنفوانهم ، ولم ينصرفوا عن القسطنطينية إلا بعد حصار دام ثلاث سنوات ، فكانت هذه النار الإغريقية أهم ما أنقذها من الوقوع فى أيديهم .

وصفت الأميرة أنا كومنينا إبنة اليكسيوس كومنينوس الذى شهد عصره الحرب الصليبية الأولى هذه النار فى كتابها عن سيرة أبيها ، فصورت مقدار روعتها حين تعلو النار فى الجو وحين تشتعل ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوى الناس وتتركهم مع متاعهم رمادا تذروه الريح ، وأشارت إلى بعض عناصرها فقالت إنها مزيج من النفط والزيت والكبريت مجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال ، وكان هذا المزيج النارى يعبأ فى أنابيب من النحاس لها فوهة توقد منها وفى مؤخرها قوس تنطلق فتدفعها إلى الأمام . وكانت تلك الأنابيب توضع بكميات كبيرة فى أسطوانة مستديرة وتلقى فى مكان بالمنجنيق ثم تقذف على العدو فتصليه ناراً حامية إذ تنفجر بقوة الاصطدام فيندلع منها لهيب لا يمكن لإنسان أن يخمده وينتشر شررها فى كل جانب فتجعل ما حولها أتونا متلظيا .

ذلك هو السلاح الذى حطم به المصريون ما أعده الجيش الصليبى للهجوم ويأتى على وصفه الفارس « دى جوانفيل » وقد بلغ به العجب مبلغا فيقول :

« فى غسق الليل جاء المسلمون بآلة عجيبة ووضعوها تجاه الأبراج التى كنا ساهرين على حراستها أنا والسير والتركوريل، ثم قذفوا منها بشىء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب .. نار كأنما هى الدنان المشتعلة وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء حتى أنك ترى كل ما فى المعسكر كما لو كان فى وضح النهار ، وقد رمى المسلمون علينا هذه النار فى تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة وأربع مرات من القسى العريضة .

وذهب جوانفيل فتحدث .. كيف أن أولئك « الأتراك » وضعوا قاذفة النار تجاه الصليبيين فى اليوم التالى لـكى يحطموا أبراجهم وأسوارهم وكأنما فتحوا باب جهنم فجأة فى وجوههم. فاندلعت النار فى برجيهم الخشبيين وامتدت ألسنتها تلتهم كل ما تصل إليه .

وإزاء هذا كله صمم الملك على بناء مجموعة أخرى من الحصون والأبراج التى احترقت ، بيد أنه لم يجد خشباً فى تلك المنطقة فاضطر إلى جلبه من السفن الراسية فى دمياط ومن ثم شيد عدداً آخر من البروج تحت وابل من قذائف الأحجار ولـكن لم يـكن حظها أوفر من سابقاتها إذ سلط المسلمون نارهم الجهنمية عليها فاشتعل فيها اللهب .

فارس صليبى

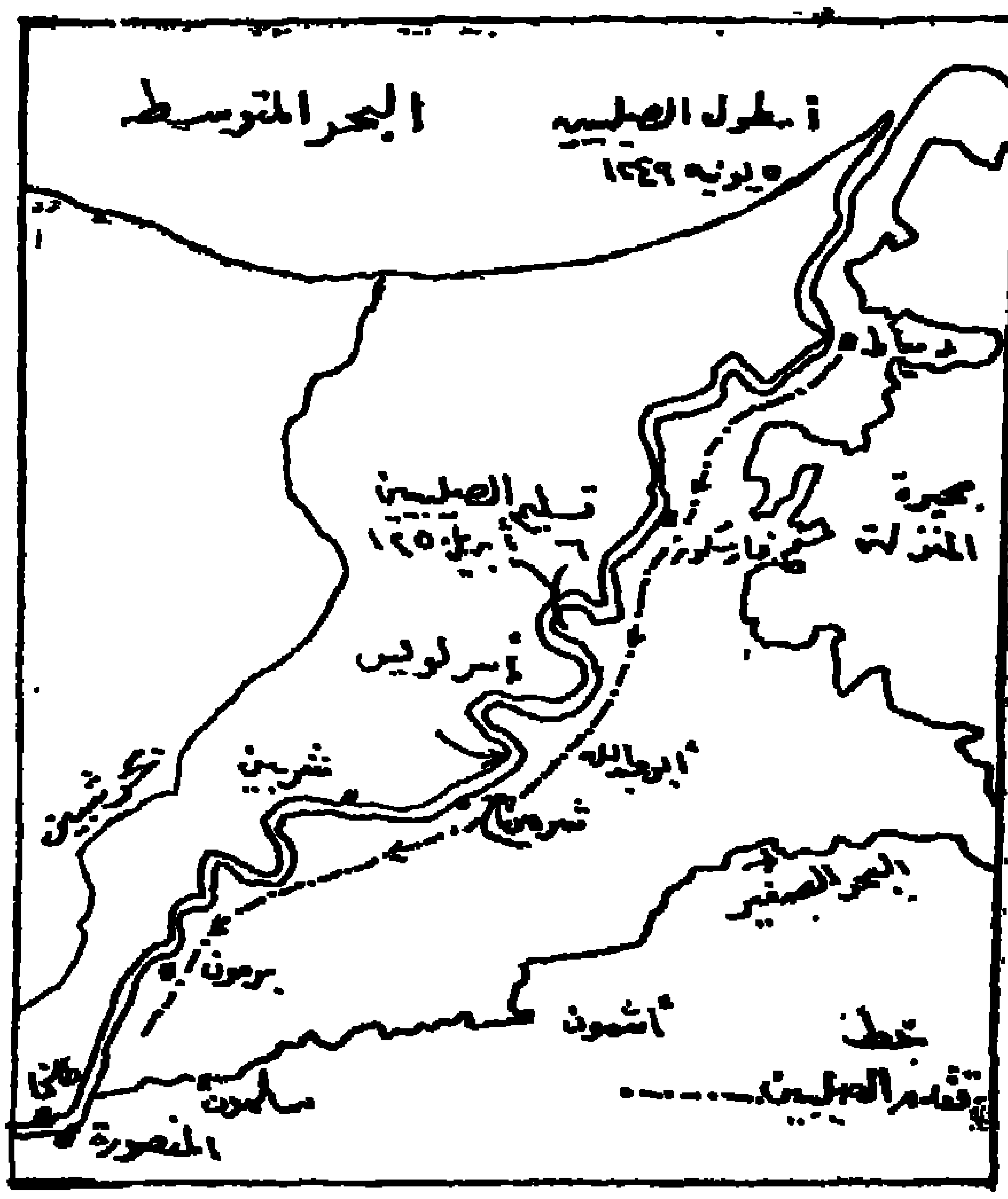

تقدم حملة لويس التاسع فى الدلتا

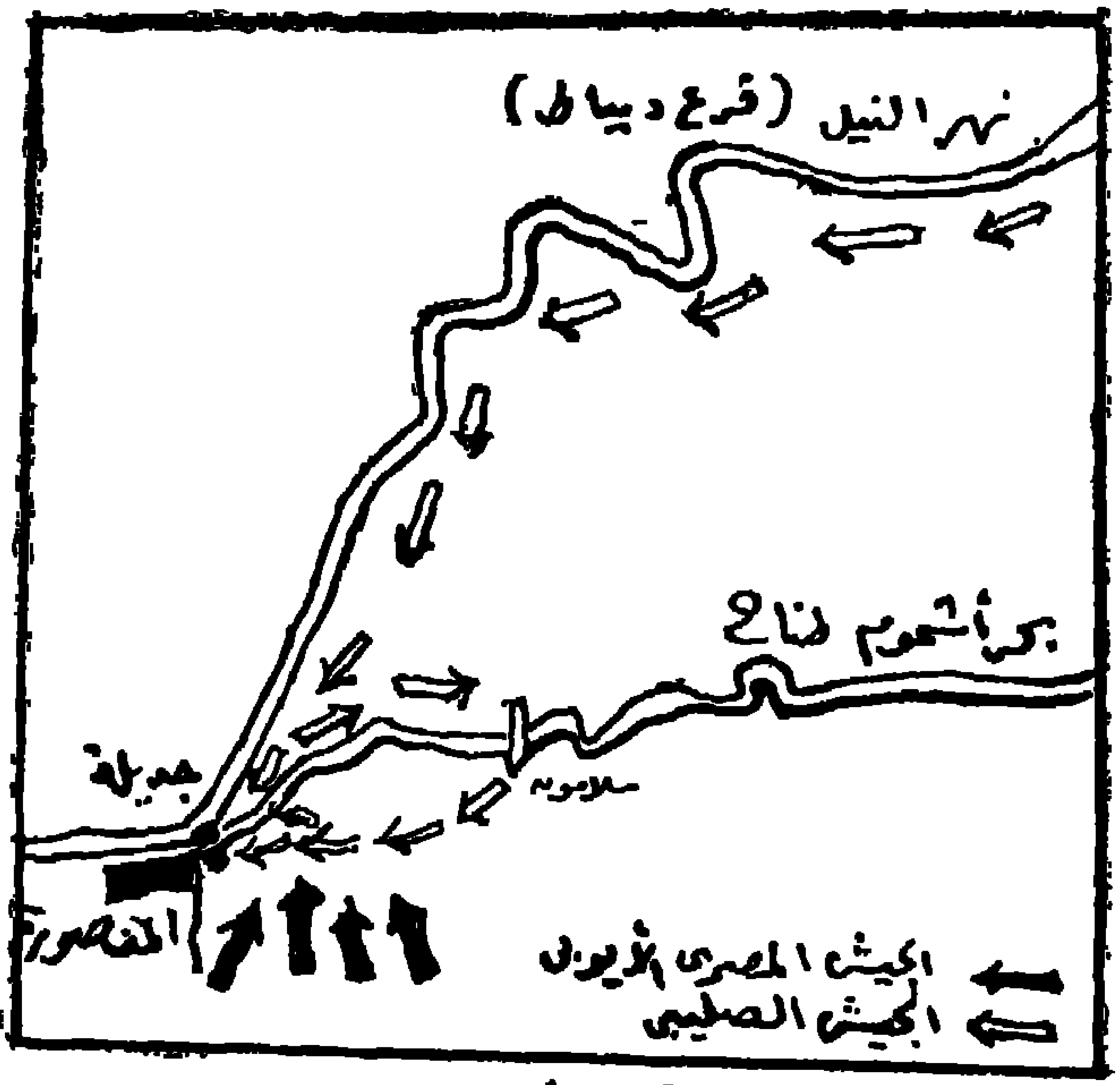

وصول فرقة كونت أرتوا إلى المنصورة

معركة المنصورة

الإثنين ٧ فبراير ١٢٥٠

لم يبق للصليبيين حينئذ حيلة ما، فيئسوا وفتر نشاطهم بعد أن ذهبت محاولاتهم سدى فى عبور القناة والاشتباك مع عدوهم . فاستدعى الملك مجلسه الحربى لشرح خطته لعبور مخاضة ضحلة المياه كانت تعرف بمخاضة سلمون ، مستعيناً بالخيالة الصليبية فقط ، وخلاصتها أن يزحف الملك لويس وأخوته الثلاثة ، ومعظم كتائب الفرسان والخيالة الصليبية من الفرنسيين والإنجليز والفلاندريين والبريتانيين والشمبانيين ، فضلا عن فرسان الداوية نحو مخاضة سلمون ، بينما يظل هيو الرابع دوق برجنديا وبارونات قبرص والشام ، بفئات خيالتهم ، وفئات المشاة والرماة الصليبية عموماً ، فى مواطنهم من الخطوط الصليبية ، شمالى بحر أشموم طناح لحراسة المعسكر الصليبى ، وانتظار ما سوف يصدر إلى دوق برجنديا من تعليمات تالية .

وكان الرأى النهائى قد استقر على أن يعبر الملك لويس ٩ وإخوته الثلاثة والفرسان والخيالة الصليبية المتفق عليها ، وطائفة الفرسان الداوية مخاضة سلمون ، فجر الثلاثاء الثامن من فبراير سنة ١٢٥٠ فى ثلاث وحدات كبرى على رأس كل كل منها أحد إخوة الملك لويس ٩ ، على أن تسير طائفة الفرسان الداوية فى أول وحدة الطليعة ، ووراءها فرقة روبرت كونت أرتوا ومعها فرقة الإنجليز والبريتانيين المرافقين للحملة ، ثم فرقة شارل كونت أنجو ومعها الشمبانيون ومعهم جوانفيل ، ثم فرقة ألفونسو كونت بواتييه ومعها دوق فلاندر ، ووراء أولئك جميعاً الملك لويس التاسع على رأس فرقة الخيالة الملكية لحفظ المؤخرة من أى هجوم خلفى مفاجىء . .

ويواصل الأستاذ المؤرخ الأستاذ محمد مصطفى زيادة كلامه :

وصدرت تعليمات مشددة ذلك اليوم ، بأن تقف كل فرقة من هذه الفرق الصليبية بعد عبور المخاضة فى ترتيبها المتفق عليه ، وأن ينتظر كل منها فى موضعه هناك، حتى تصل إليها تعليمات جـديدة من الملك لويس التاسع بعد عبوره المخاضة هو وفرقتـه من الخيالة الملـكية . وأراد الملك لويس بتلك التعليمات أن يكون الزحف الصليبى العام إلى معسكر جديلة فى قوة كافية ، ليتسنى بذلك إحـداق الصليبيين بالقوات والمعدات المصرية الأيوبية فجأة ، وإخراج هذه القوات أولا من جديلة ، ثم تعطيل المجانيق ذوات النار الإغريقية فى سرعة بإتلافها أو الاستيلاء عليها قبل أن ينهض القائد فخر الدين يوسف لمقاومة هذه الحركة ، وعلى ذلك يحقق الملك لويس هدفه باستيلائه على جديلة وليجعل منها قاعدة لعملياته المستقبلة وأول تلك العمليات توجيه المهندسين والعمال لإتمام الجزء الباقى من الجسر المطلوب لعبور بحر أشموم طناح ، لتستطيع المشاة الصليبية أن تصل بوساطته إلى جديلة ، وليستطيع الملك أن يزحف بالخيالة والمشاة الصليبية معاً إلى المنصورة ، وتلك هى العملية الثانية من عملياته ، ثم يزحف من المنصورة إلى القاهرة ، وتلك هى الثالثة والأخيرة من العمليات المتفق عليها .

بدأت عملية العبور صفاً صفاً ، على الترتيب الذى استقر الرأى عليه نهائياً . فعبرت فرقة فرسان الداوية فى أول وحدة الطليعة الصليبية ، وتبعتها فرقة روبرت كونت أرتو ، وهكذا فرقة بعد أخرى ، غير أن هذه العملية لم تخل من صعوبات ، نظراً لكثافة الطين فى قاع مجرى بحر أشموم طناح ، ولانحدار جانبى مخاضة سلمون إلى درجة لم يدركها الملك لويس حين تفقد المخاضة بنفسه سابقا ، دون أن ينزل إليها بفرسه ، ولذا وجد عدد من الخيالة الصليبية صعوبة كبيرة فى إنزال خيلهم وتوجيهها وهم على ظهورها عبر المجرى ، مما أدى إلى انزلاق بعضهم عن ظهور خيلهم وموتهم غرقاً فى المـاء . وتم ذلك فى ظلام الساعات الأخيرة من الليل ، دون أن يرى الحرس الأمامى المصرى أو يسمعون شيئاً من حركات العدو ، ثم لم يلبث الحرس المصرى أن كشف جماعات الصليبيين وهم يتخذون مواضعهم المتفق عليها، عند الجانب الجنوبى من مخاضة سلمون فى متنفس الفجر .

وهـذا الحرس الأمامى وعدته قرابة ثلاثمائة من الخيالة المصرية الأيوبية كتقدير جوانفيل لم يثبت للقتال لأنه ليس من واجبه أو من طاقته ، بل أسرع راكباً إلى جديلة ليعطى الأمير فخر الدين يوسف آخر أنباء الصليبيين ، وليتنذر بدوره مدينة المنصورة وقائد معسكرها . وانطلق فى أثر هـذا الحرس الراكض روبرت كونت أرتوا بفرقته من وحدة الطليعة الصليبية ، قبل أن تبدأ الوحدات الكبرى الأخرى فى العبور . وخالف الكونت بذلك تعليمات أخيه الملك . ولم يحترم الحقوق التى اختصت بها طائفة الفرسان الداوية ، إذ تطلبت هـذه الحقوق أن يكون ترتيبه وراءها على أية حال . وساء فرسان الداوية ، ورئيسهم وليام سوناك أن يعاملوا بهذا الاحتقار . . . ولذا لحق فرسان الداوية ، وفرسان الإنجليز والبريتانيين معهم ، بفرقة كونت أرتوا ، بعد أن رفض الكونت أن يستمع إلى نصيحتهم ، فأسرع الجميع مشتركين فى مطاردة الخيالة المصرية الراكضة إلى معسكر جديلة ، ولم يلبثوا أن اقتحموا أطراف هذا المعسكر صبيحة ذلك اليوم وهو اليوم الثامن من فبراير سنة ١٢٥٠ .

كانت مفاجأة للمصريين فى معسكر جديلة، وكان القائد فخر الدين فى الحمام فخرج فوراً وامتطى صهوة جواده دون أن ينتظر حتى يلبس درعه وانطلق يلم شعث المسلمين ، والتحم بالعدو مقتحماً صفوفه فى شجاعة ، ولكنه سقط مثخناً بالجروح بعد أن اعتورته السيوف من كل ناحية حتى غدا جثة هامدة .

ونزل الصليبيون على تل جديلة (١) وكانوا قرابة ألف وأربعمائة فارس يتولى قيادتهم الكونت دا أرتوا . أما القوة المصرية التى كانت فى جديلة فلجأت إلى المنصورة مؤقتاً ، ولا سيا بعد أن تحرك الكونت وفرقته ، وملحقاتها من الفرق الأخرى ظهر ذلك اليوم إلى مدينة المنصورة . وطار حمام الزاجل بهذه الأخبار السيئة إلى القاهرة ، ووصلت البطاقة العسكرية بها إلى الأمير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى نائب السلطنة عصر ذلك اليوم ، أى يوم الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ .

---

(١) يعرف تل جديلة فى العصر الحاضر باسم الماقولة حيث توجد مقابر هذه البلدة الصغيرة

اقتحام المنصورة ومعركتها

ظهر يوم الثلاثاء ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ — ٨ فبراير ١٢٥٠

اقتحمت قوات الصليبيين تلك ، أحد مداخل المنصورة الشرقية وانطلقت جميعاً خلف المسلمين الذين سرعان ما توزعوا فى أنحاء المدينة وحواليها . . ودخلوها دخول الفائزين ، وقد ظن قائدها أن عسكر المنصورة وأهلها هربوا عنها بعد أن سمعوا ما حل بمعسكر جديلة ، وانتشر الفرسان الصليبيون بخيولهم الضخمة فى الشوارع والأزقة والحارات ، غير أنه فى لحظة خاطفة ، طار ذلك النصر من أيديهم ، إذ باغتتهم جيش المماليك الأتراك ، وكان فى انتظارهم خارج المدينة ، فردهم على أعقابهم وطارد فلولهم فى كل مكان ، ثم أخذ يتعقبهم فى الشوارع والأزقة . فلما لاذوا بالبيوت يبتغون الاحتماء بداخلها ، إنهال عليهم بالضرب سكانها وهم فى مجموعات صغيرة وتساقطت فوق رؤسهم القذائف من السطوح والنوافذ ، ولولا وصول الملك نفسه ومعه قوات صليبية أخرى لهلكوا عن آخرهم .

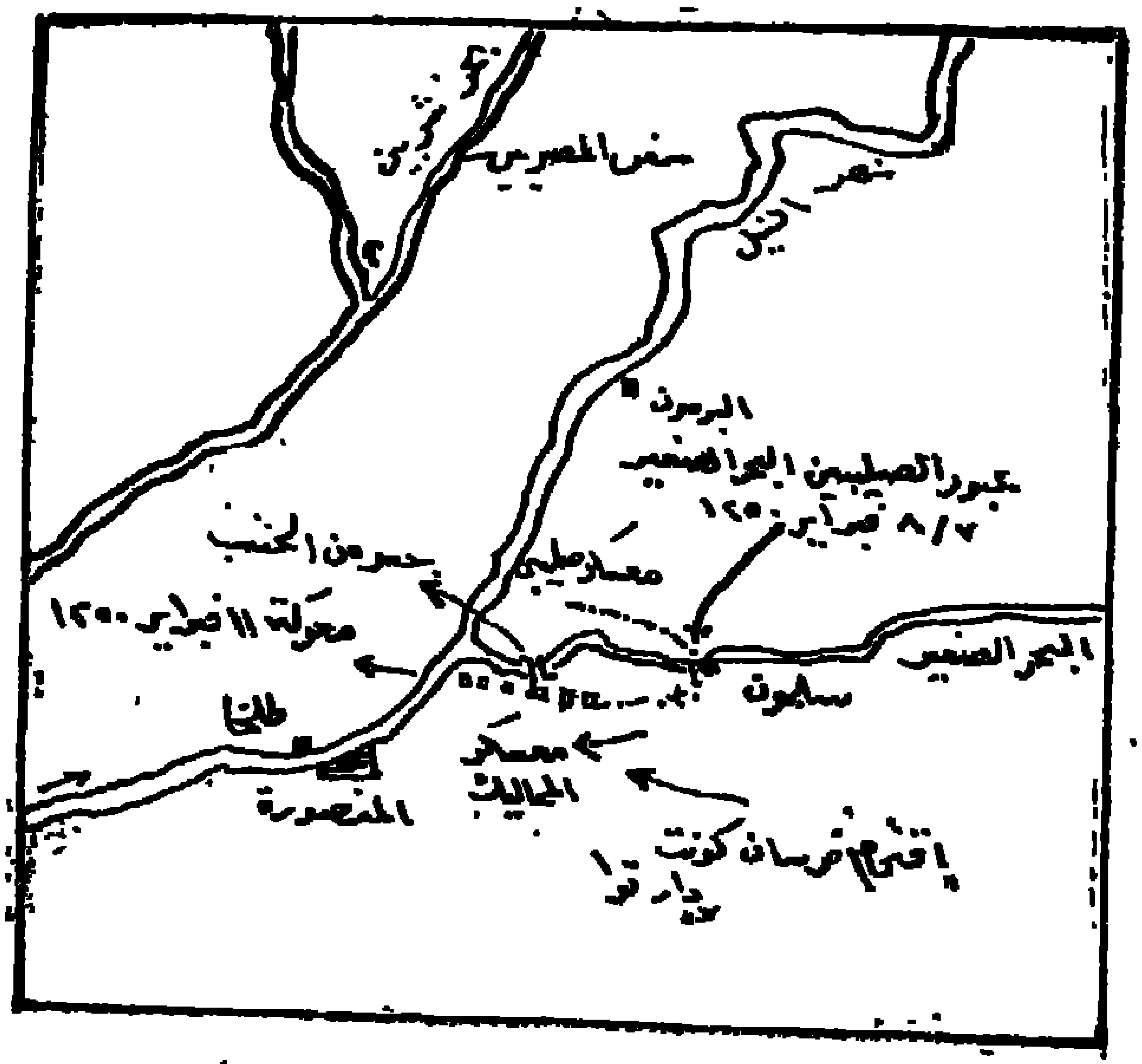

معركة المنصورة فى ٧ و٨ فبراير و ١١ فبراير

كانت معركة المنصورة معركة الشعب والجيش .. ولا شك أنه لولا تهور قائد هذه الطليعة « الكونت دارتو » شقيق الملك لما حدثت تلك النكبة الشنيعة والهزيمة المنكرة ، فقد غلبت عليه الحماسة وحب السبق ، فاندفع على إثر عبوره المخاضة بفرقته نحو كوكبة من خيالة

المسلمين، فطاردها وتعقبها إلى المعسكر المصرى، وعلى يد رجاله ورجال فرقة الداوية التى لحقته كان حتف الأمير فخر الدين. ثم تقدم الكونت دارتوا إلى معسكر المسلمين واستولى على الجهة التى كانت بها الأسهم الحربية والمجانيق، ويظهر أنه كان يبغى الانفراد بظفر ذلك اليوم من دون بقية الجيوش الفرنجية فلم يقف منتظراً وصولهم إلى حيث وصل، بل تقدم مسرعاً إلى المنصورة ودخلها منصورا — لجأ إلى بيت قريب من قصر السلطان واعتصم به يبغى إيجاد وسيلة سريعة للفرار. لكن المنصوريين لم يلبثوا أن اقتحموا عليه هذا البيت وأخرجوه منه قتيلاً مثخناً بالجراح.

وقتل فى هذه المعركة ألف وأربعمائة فارس وكثير من نبلاء فرنسا — بعد أن أبدى الفريقان فى القتال بسالة منقطعة النظير، وكان قائد المسلمين فى ذلك الهجوم البارع الروع هو بيبرس قائد المماليك البحرية الذى سرعان ما طبقت شهرته الآفاق والذى غدا بعد عشر سنوات سلطاناً على مصر، وهكذا حمل « المسلمون » على الفرنج حملة صادقة زعزعت أركانهم وهددت صفوفهم.

أما الصليبيون فقد أظهر ملكهم وأشقاؤه بسالة رائعة وتضحية نبيلة، إذ كافحوا مع جنودهم جنبا إلى جنب، وعرضوا حياتهم لأشد الأخطار حتى أن السيد « جوانفيل » يؤكد أنه لولا شجاعة الملك لهلك فى ذاك الوقت الجيش برمته، وهو يصور القتال فى هذه المعركة فيقول :

أظهر العدوان مهارة فائقة وصلابة ودربة وقام أبطالهم بأعظم الأعمال وأروعها إقداما وجرأة إذ أن العراك فيها لم يكن بقوس ولا برمح ولا بقذيفة مدفع، إنما كانت صورة مروعة لملحمة هائلة اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهى تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح مختلطة بعضها ببعض، فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال وهنا وهناك وعلى الرؤوس وفى الصدور وخلف الظهور صيحات تزأر وأنات تزفر وكاس المنايا على شفاه الصرعى تدور — وبينذاك طارت ضربة طائشة فصادفت الكونت دارتوا فخر صريعاً لتوه. فأخذ القائد درعه ورداءه أمام المصريين ولكى يؤجج نار

الحماسة فى صدورهم قال لهم : « هـذا هو درع الملك ورداؤه فإن الملك عدوكم قد مات » .

* * *

انتصرت المنصورة : شعبا وجيشا ، ويحق لها وحدها أن تفخر بما أفاءت على التاريخ المصرى الأيوبى ، والتاريخ المصرى المملوكى بعده ، من أفضال ثلاثة متتابعة فى ثلاثين سنة، وهى المدة الواقعة بين نشأتها الأولى زمن السلطان الكامل، وبين معركة المنصورة التى اشترك فيها المنصوريون بدورهم المجيد ، دفاعا عن مدينتهم . فمن المنصورة وحاراتها وشوارعها وأزقتها الضيقة المسدودة فى كثير من الأحيان ، تجمعت أنواع المقاومة العسكرية النظامية ، وأنواع المقاومة المدنية غير النظامية ، وتعاونت كلها على إفناء الصليبيين المعتدين . وكانت تمهيداً لطرد هؤلاء من بلادنا ، فعادوا من حيث أتوا خاسرين نادمين . . .

معركة جديلة

فى مطلع الفجر من اليوم التالى لمعركة المنصورة الكبرى ، أى يوم الأربعاء ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ هجمت فرقة من المشاة والخيالة المصرية الأيوبية على معسكر جديلة حيث بات الملك لويس ٩ وجوانفيل فى حراسة بقايا المجانيق التى غنمها الصليبيون سابقا من ذلك المعسكر بعد مقتل الأمير فخر الدين . ولم يتوقـع الملك لويس وأعوانه أن القوات المصرية ستعود إلى الهجوم والمناوشة بهذه السرعة ، ولذا وقع بمعسكر جديلة من المفاجأة للصليبيين ، مثلما وقع به فى اليوم السابق من المفاجأة للقوات المصرية الأيوبية ، غير أنه القياس هنا مع الفارق الكبير بين الحادثين، لأن الفرقة المصرية الأيوبية، المهاجمة لم تزد وقتذاك عن كتيبة مشتركة من المشاة والخيالة ، وكان غرض هذه الكتيبة — المناوشة الخفيفة الخاطفة، ولذا عادت أدراجها بعد أن تحملت خسائر قليلة وبعد أن أصابت عدداً من الصليبيين .

وأهم ما حـدث فى ذلك اليوم أيضا احتفال قائد القوات المصرية الأيوبية

الجديد، وهو الأمير بيبرس البندقدارى بمظاهرة عسكرية بمدينة المنصورة نفسها. وقد أمر الأمير جاويشيته أن ينادوا أيضاً فى موكب المظاهرة بأن الاستعدادات جارية على قدم وساق لافتراص الفرصة لمهاجمة الصليبيين بكل قوة ممكنة ، يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ . . ومما يدهش أيضا أن أخبار ذلك الموكب ونداءاته وإنذاراته وصلت إلى أسماع الملك لويس التاسع وهو منهمك فى إحاطة المعسكر الصليبى الجديد بجديلة بسور خشبى، بعد أن قوى الجسر الذى أصبح واصلا بين جديلة والمعسكر الصليبى الشمالى . ولا ندرى لماذا لم يقم الملك بعد أن قوى مركزه فى جديلة بعمل هجومى كبير نحو المنصورة كشف مدى ما حاق بالطليعة الصليبية على يد شقيقه روبرت كونت أرتوا .

وكيفما كان الأمر ، فقد استجاب الملك لويس إلى نداءات الأمير بيبرس البندقدارى وإنذاراته ، بالإسراع فى عملياته التحصينية بمعسكر جديلة ، ثم رتب جيشه من الخيالة والمشاة خلف السور الخشبى لمقاومة الهجوم المصرى المنتظر . وكانت المشاة الصليبية أكثر عددا من الخيالة نظراً لكثرة ما خسر الصليبيون من فرسانهم وخيالتهم فى المناوشات السابقة، وجعل الملك لويس فى أقصى الميمنة المستندة إلى فرع دمياط أخاه شارل كونت أنجو على رأس فرقته ومعه فئات من بارونات قبرس وفلسطين ، وفى القلب وقف الملك بفرقة الخيالة الملكية ومعه فرقة الفرسان الداوية والبارونات الفرنسيين ، وفى الميسرة وقف ألفونس كونت بواتييه ، ومعظم جنوده من المشاة ، ووراءهم جماعة المهمات وباعة الأطعمة والأتباع، وأسهب جوانفيل وغيره من المراجع الأجنبية إسهاباً فى وصف ترتيب الجيش الصليبى يومذاك وفى تعيين وحداته وقياداتها الرئيسية والفرعية . أما المراجع العربية فليس فيها شىء من هذا الإسهاب ، سواء فيما يتعلق بالجيش المصرى أو الجيش الصليبى .

ويذكر جوانفيل أن الأمير بيبرس البندقدارى جعل قواته المصرية الأيوبية فى جبهة تشبه قوساً من الفرسان والخيالة ، بلغت عدتها أربعة آلاف ، بحيث

وصلت أطرافها إلى أقصى أطراف للميمنة والميسرة الصليبية ، وطوقت المعسكر الصليبي كله تطويقا تاما من ناحيته ، واصطفت وراء هـذه الجبهة من الفرسان والخيالة المصرية الأيوبية جموع كبيرة من المشاة والرماة لحماية حركاتها الهجومية ، كما اصطفت وراء هؤلاء وأولئك جموع احتياطية مشتركة لحماية المؤخرة من أية حركة جانبية . ووقف الأمير بيبرس وسط فرسانه وخيالته ومشاته ، وأجال بصره فى تنظيمات الملك لويس ووحداته الصليبية ، فكلما شاهد تركيزا صليبيا جعل قبالته تركيزا مصريا أيوبيا مشابها ، على حين أنفذ فئة كبيرة عدتها ثلاثة آلاف من العربان للزحف شرقاً إلى مخاضة مجهولة الإسم ، بعيدة عن الجبهة لعبور بحر أشموم طناح ، ومهاجمة دوق برجنديا والمعسكر الصليبي الشمالى .

وظل الأمير بيبرس منذ صباح يوم الجمعـة إلى الظهيرة ، وهو يتنقل بين الصفوف استعداداً للهجوم العام ، ووقف لويس التاسع وقادته خلف السور الخشبى وقفة المتربص للدفاع ، وفى ذلك ما يدل دلالة على أن القوات المصرية الأيوبية كانت على أهبة للانتفاع بنتائج معركة المنصورة ، بأخرى مثلها أو أشد منها ، وذلك بهجوم خاطف حاسم ، وأن فى نيتها القضاء على الجيش الصليبي واسترجاع معسكر جديلة بأى ثمن .

وضح هذا العزم حين صدرت الأوامر إلى القوات المصرية بالهجوم العام ، إذ امتلأ الجو بأصوات الطبول والكوسات والنقارات والابواق ، وزحفت الخيالة والمشاة المصرية من جميـع الجهات إلى المواقع الصليبية فى وقت واحد تقريبا ، وأخذت نبال الرماة وقذائف النيران الإغريقية تعمل عملها الذريع بين فئات الصليبيين . وكانت تعليمات الملك لويس أن يثبت القـادة الصليبيون فى مواضعهم بالجبهة ، مهما تكلفوا فى سبيل ذلك من الخسائر ، وأن يحفظوا لصفوفهم تكويناتها الدفاعية حتى تنتهى وطأة الهجوم المصرى الأيوبى ، بانتهاء مابه من حماسة ، ولذلك حمى القتال بين الجانبين إلى درجة ارتفعت بتلك المعركة إلى مستوى المعارك الحاسمة .

ثم وصل الخبر إلى لويس بأن الميمنة الصليبية قرب فرع دمياط بقيادة

أخيه شارل تكاد تنهار تحت أقدام الخيل والخيالة المصرية ، فضلا عن فتك النار الإغريقية وأن حياة شارل فى خطر . فركض الملك لويس شاهراً سيفه ، وشق الصفوف الصليبية المتراصة لتخليص أخيه قبل فوات الأوان ، وأصابت النار الإغريقية ذيل الفرس وهى راكضة ، فازداد ركضها عنفا واختل توازنها . ولم يلبث الملك أن وصل إلى حيث كان أخوه شارل واقفاً يدفع عن نفسه يمينا ويسارا ، وجنوده يقاومون الهجوم المصرى مقاومة مستميتة وتتحمل الخسائر فى سبيل البقاء فى مواضعها ، وبفضل وصول الملك لويس إلى الميمنة الصليبية ، نجا شارل كونت آنجو من مصير حاق مثله سابقا بأخيه روبرت كونت أرتوا ، يوم معركة المنصورة ، وتحول الهجوم المصرى الأيوبى إلى أطراف القلب الصليبى ، حيث كانت أشد أنواع المقاومة الصليبية ثباتا وصلابة منذ بداية القتال[1] .

أما فى ناحية الوسط من القلب الصليبى ، حيث وقف رئيس فرسان الداوية وليام سوناك ، وحوله الفئة القليلة التى بقيت له من فرسانه ، بعد ذهاب معظمها فى معركة المنصورة . وأصابت شظية عين الرئيس سوناك فأضاعتها ، مع العلم بضياع الأخرى قبل ذلك فى معركة المنصورة ، ثم لم يلبث الرئيس سوناك أن مات متأثرا بجراحه الكثيرة التى أصابته فى ذلك اليوم ، كما مات معظم البقية الباقية من فرسانه لكثرة ما انهال عليهم من رمى النبال وقذائف النار الإغريقية .

أما الصفوف الصليبية الأخرى من ناحية الوسط من القلب حتى الميسرة ، فكان أقربها إلى مواضع فرقة الفرسان الداوية ، فرقة فرنسية ألحقت النار الإغريقية بها كذلك خسائر فادحة ، ثم فرقة الفلاندريين بقيادة كونتها ، ووراءها فرقة جوانفيل والشمبانيين ولم تنزل بفرقة كونت فلاندر خسائر غير عادية .

أما الميسرة الصليبية وعلى رأسها الفونس كونت بواتييه ، فتألف معظمها من المشاة ، وكان نصيب هذه الفرقة المهزمة ، فضلا عن وقوع الكونت فى

(١) المصدر السابق ، ص ١٧١ — ١٧٢ .

الأسر عند أول الهجوم المصرى الأيوبى ذلك اليوم . وخشى جماعات المهمات والتموين والأتباع مما سوف يحل بهم من الأسر ، فاندفعوا نحو المهاجين من القوات المصرية اندفاعا جنونياً ، وما زالوا فى اندفاعهم حتى وصلوا إلى كونت بواتييه وأرجعوه معهم إلى فرقته . وهكذا انتهى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه زهرة الجيوش الصليبية ، ورجعت القوات المصرية إلى قواعدها سالمة بعد أن أدت واجبها الهجومى كما أراده قائدها الأمير بيبرس . ويقول المؤرخ محمد مصطفى زيادة أن ذلك اليوم ينبغى أن يسمى يوم معركة جديلة الكبرى ، تمييزاً له من يوم معركة جديلة السابقة ، وهو يوم الكارثة التى استشهد فى أولها الأمير فخر الدين يوسف . ويقع يوم جديلة الكبرى فى يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ ، ومما يثير الدهشة أن المراجع العربية المعاصرة منها والمتأخرة لم تذكر هذه المعركة ! مع أنها وردت مفصلة فى جوانفيل ومخطوطة أخرى تعرف بالروتلانية .

ثم وقف القتال فجأة بين الفريقين المتقاتلين لأسباب غفلت عنها المراجع كلها . ومن المحتمل أن الصليبيين شغلوا فى ذلك الحين بقتلاهم وانتشالهم من المياه ودفنهم ، وكذلك العناية بجرحاهم وأخيرا ، شغلوا فى إعادة تنظيم صفوفهم(1) .

أما أسباب توقف القوات المصرية الأيوبية عن أية حركة بعد أن أدت واجبها يوم معركة جديلة الكبرى ، فيبدو منها أن الهجوم على الخطوط الصليبية ذلك اليوم ، برغم قلة خسائرها بالقياس إلى خسائر العدو ، استلزم إعادة تنظيم الصفوف المصرية قبل القيام بأى هجوم عام آخر . ثم كانت هناك حالة القلق التى نجمت عن وصول توران شاه إلى المنصورة ولا سيما عند القادة المماليك الذين تحملوا أعباء القتال والنصر . ولعل الجفوة الصامتة التى نشأت

---

1. Dauvies : The Invasion of Egypt by Louis IX of France. Sampson Low, London 1897.

بين توران شاه ، وقادة القوات المصرية فى المنصورة ومعظمهم من المماليك هى التى أدت بالسلطان توران شاه إلى التحول عن متابعة الهجوم البرى على مواقع الصليبيين فى جديلة إلى خطة نهرية محورها تجويعهم فى ذلك المعسكر بقطع مواصلاتهم فى النيل مع دمياط ، دون حاجة إلى الاستعانة فى تنفيذ ذلك بالقوات المصرية الأيوبية البرية بدليل انعدام أية معركة برية بين المتقاتلين بعد معركة جديلة .

ويصف المؤرخ جوانفيل خطة الهجوم التى أحكمها بيبرس والتى تدل على مهارته وحنكته فى تدبير حركات المعارك ، فيقول :

« أرسلت الشمس أو خيوطها، ورأينا الأرض كأنها تتحرك أمام ناظريها وقد أقبل أربعة آلاف فارس يحملون سلاحهم ، ويتهادون على ظهور جيادهم فى منظر رائع ، ووقفوا تجاهنا فى أبدع نظام . وبعد قليل ظهر من خلفهم جيش جرار من المشاة ، حجب من كثرته أمامنا وجه الأفق . . فأحاطوا بجيشنا كله وعلى الأثر تبدى من وراء هؤلاء جيوش أخرى لا يعرف البصر مداها فاصطفت فى المؤخرة على نسق عجيب . ولاح القائد المصرى على رأس جيوشه ينظمها ويرتب صفوفها وأماكنها فلما انتهى من ذلك ، تقدم وحده على ظهر جواده ، وسرح البصر فى قواتنا . . فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندنا أوفر ، وبانقاصها فى الأماكن التى يرانا فيها أقل قوة . وظل هذا القائد منهمكا فى تلك العمليات حتى إذا ما انتصف النهار وقف وسط جنوده فى مهابة وجلال ، وبإشارة من يده دوى فى الفضاء فجأة صوت الطبول وضرب النقرزان ، وكأنما زلزلت الأرض وانتفضت السماء بقصف الرعود . فامتلأت بالدهشة والروعة قلوب أولئك الفرنسيين الذين ما دق سمعهم من قبل مثل هذا الصوت الرهيب . ثم بدأ الفرسان والمشاة فى السير معا فى خطوة واحدة وفى كل جانب وبدأ الهجوم

وتنقلت فرق العدو على رقعة الميدان بنظام عجيب ، كأنها لاعب ماهر ينقلها على رقعة شطرنج . واندفع مشاتهم نحو رجالنا فأصلوهم بالنار الإغريقية

ثم انقض فرسانهم فى سرعة عظيمة وحماسة هائلة على فرقة الكونت دانجو فأنزلوا بها هزيمة نكراء . وكان الكونت منتصبا على قدميه ، ومعرضا نفسه للخطر المحقق لولا أن أنقذه أخوه الملك ورد الأعداء عنه . بيد أن الجيش أصيب بضربة قاضية. فبين الفرق السبع التى يتألف منها هلكت اثنتان إحداهما بقيادة فرايار وليم سو ناك قائد الفرسان الداوية وكان قد دخل المعركة بمن بقوا على قيد الحياة من رجاله بعد موقعة يوم الثلاثاء المروعة . ولما كان شاعرا بضعفها فقد أقام أمام معسكره حاجزا من المتاريس الخشبية يكون من بعض ما غنموه من العدو وما جمعوه من كتل الخشب . ولكن هذا كله كان عبثا لا طائل تحته — فقد أحرقه المصريون بنارهم ، وأطبقوا على رجال الفرقة فى شدة عنف ، وسرعان ما قضوا عليهم القضاء المبرم . وكان قائدها سو ناك فقد إحدى عينيه فى معركة يوم الثلاثاء الآنفة الذكر ، ففقد الثانية فى هذه المعركة ثم سقط قتيلا وهو يدافع لآخر رمق دفاع الأبطال . (١)

أما الفرقة الأخرى التى فتك بها العدو فكانت بقيادة الكونت دى بواتييه ، وهى تتألف من المشاة عدا الكونت قد كان راكبا جواده ، فأبيدت هذه الفرقة عن آخرها وأسر قائدها غير أنه تمكن من الفرار إلى معسكر الفرنج .

والفرقة التالية لفرقة الكونت (دى بواتييه) كان على رأسها جوسيران دى برانسون وهى أضعف الفرق جميعاً وتتكون من المشاة ، فنفذ العدو بين صفوفها فى كل جانب وأوشك أن يفنيها كلية لولا أن أدركها الكونت « دى كون » بجماعة كبيرة من جنود حملة القسى من الضفة الأخرى للبحر الصغير ، فأنقذوا بعض رجالها وان كان دى برانسون سقط قتيلا وخر بجواره صفوة فرسانه ومعظم البواسل من جنده .

توقف المصريون عن القتال وتركوا الفرنسيين فى أخطر المواقف وأحرجها

(١) ذكرنا ذلك فى كلام سابق

فإن محاولتهم — بعد ذلك الهجوم على المصريين كانت مستحيلة فى حين أن بقاءهم فى أماكنهم كان معناه الهلاك المؤكد — ومع ذلك فمن المدهش أنهم لم يتحركوا وأضاعوا الوقت كما أضاعوه مراراً من قبل .. فكان كل يوم يمر يزيد مركزهم سوءاً ، إذ تفشى فيهم مرض مريع ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا أن يلقوها فى النيل والقناة ، غير أنه بعد أيام قلائل طفت هذه الجثث على سطح الماء طبقة من الجثث المشوهة ، هى كل ما بقى من أولئك المحاربين التعساء .

والواقع أن الوباء انتشر بسرعة مدهشة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ظهر أيضا مرض الاسكربوط نتيجة لنفاذ المؤونة وقلة التغذية — فأصيب معظم رجال الجيش ، حتى الخيل لم تنج منه ونفقت . ومع كل هذا فإن فكرة الانسحاب لم تدر بخاطر الصليبيين حتى ذلك الوقت .

وفى يوم ٢٥ فبراير ١٢٥٠ وصل توران شاه إلى المنصورة وما أن دخل المدينة حتى نودى به سلطانا على مصر — ووضعت شجرة الدر سلطتها بين يديه. وعندئذ أعلنت وفاة السلطان صالح نجم الدين رسمياً .

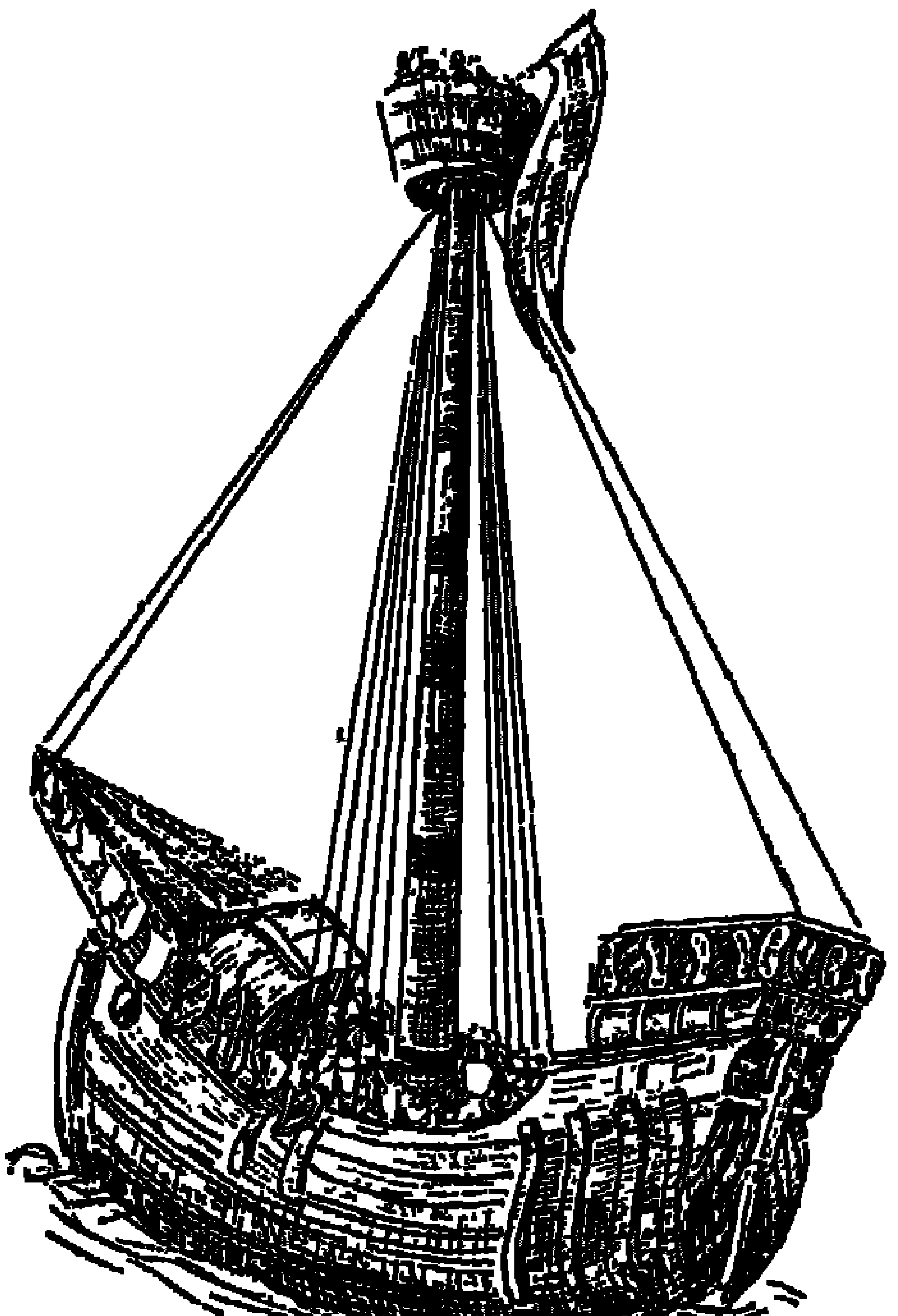

حراقة مصرية

عمليات الأسطول النهرية

معركة بحر المحلة

تنفيذاً للخطة النهرية الجديدة ، أمر السلطان توران شاه بعد استقراره بالمنصورة ، بسحب عدد من المراكب المصرية الراسية جنوباً عند إحدى الموانى النيلية القريبة ، وفك هذه المراكب قطعاً على ظهور الجمال إلى بحر المحلة ، ثم إعادة تركيبها وشحنها بالمقاتلة هناك ، لإقلاعها شمالا إلى مصب هذا البحر فى النيل قرب شربين الحالية ، حيث تكمن هذه المراكب بالمرصاد للسفن الصليبية التموينية التى يعتمد الصليبيون على وصولها إليهم تباعاً من دمياط . وانتهت هذه العملية فى سرعة هادئة . وسارت قافلة صغيرة من هذه المراكب المصرية فى بحر المحلة سيراً حاذراً حتى وصلت إلى فوهته قرب شربين الحاليـة . وتسللت من

معركة مسجد النصر النهرية

هناك على حذر إلى مجرى النيل ، لكن السفن الصليبية المكلفة بحراسة المجرى بين المنصورة ودمياط ، لم تلبث أن كشفت هذه المراكب المصرية القليلة وكانت من النوع المعروف باسم الحراريق ، فهاجمتها واستولت على سبع منها ، بعد أن أفلت بحارتها منها لكى لا يقعوا فى أيدى الصليبيين . وكان ذلك فى

يوم الإثنين مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٧ مارس سنة ١٢٥٠ أى بعد ١١ يوماً من وصول توران شاه إلى المنصورة .

وبعد أيام تكاملت المراكب المصرية فى بحر المحلة وازداد عددها وظهر بينها مراكب حربية كثيرة من النوع المعروف باسم الشوانى (واحدتها شينية) وكمن عدد من هذه الشوانى الحربية عند فوهة بحر المحلة فى انتظار قافلة من سفن المؤونة الصليبية التى بارحت دمياط وقتذاك، كما خرج عدد آخر من هذه الشوانى إلى مجرى النيل وسار فيه جنوباً حتى وقف على مسافة جنوبى شربين لقطع الطريق على السفن الصليبية ، إذا هى نجحت فى الإفلات من الشوانى المصرية الكامنة لها بالمرصاد . فلما جاوزت القافلة الصليبية شربين ، تحركت فى اتجاهها الشوانى المصرية من كمينها ولحقت بها واشتبكت معها فى معركة نهرية كبيرة ، ولاسيما بعد تعززها بالشوانى التى انحدرت إليها عائدة من ناحية جنوبى شربين وهكذا هجمت الشوانى المصرية الأيوبية على السفن الصليبية من ناحيتين فى وقت واحد ، وأخذتها أخذاً وبيلا ، وكانت عدة هذه السفن الصليبية اثنتين وخمسين سفينة ، واستولت الشوانى على حمولات تلك السفن الصليبية التموينية كما أخذوا رجالها أسرى وعدتهم قرابة ألفى رجل وأرسلوهم على ظهور الجمال إلى المنصورة . . ويقول المؤرخ محمد مصطفى زيادة أنه ينبغى أن تسمى هذه المعركة باسم معركة بحر المحلة .

هزيمة صليبية فى معركة مسجد النصر

تلا معركة بحر المحلة هزيمة نهرية أخرى ، وتتلخص فى أن قافلة ثانية من قوافل المؤونة الصليبية القادمة من دمياط ، وعدتها قرابة ٣٢ سفينة محملة بالحبوب والأعلاف ومن بينها سبع شوان صليبية حربية حارسة، حاولت اختراق خط الشوانى الحربية المصرية التى غدت مسيطرة على مجرى النيل تمام السيطرة ، واصطدمت هذه السفن الصليبية بالشوانى المصرية عند موضع غير معروف على وجه التحديد [1] حتى العصر الحاضر ، واسمه مسجد النصر فى المراجع العربية ،

(١) محمد مصطفى زيادة : حملة الملك لويس التاسع على مصر ص ١٨٠ — ١٨٢ .

وهو على مسافة سبعة كيلومترات شمال المنصورة حسب تقدير جوانفيل ، وهناك نشبت معركة نهرية هائلة ، وانتهت هذه المعركة بوقوع السفن الصليبية فى أيدى رجال الشوانى المصرية ، ماعدا سفينة صليبية صغيرة تابعة لكونت فلاندر فقد أفلتت فى الظلام ، وأخبرت باستيلاء الشوانى المصرية على القافلة الصليبية كلها، فضلا عن حمولتها التموينية . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٩ ذى الحجة سنة ٦٤٧هـ أى يوم وقفة عرفات ، الموافق ١٥ مارس سنة ١٢٥٠

وتعتبر معركة مسجد النصر النهرية خط تقسيم المصائر فى تاريخ حملة لويس على مصر فقد أكدت سيطرة المراكب الحربية المصرية على الطريق النهرى بين دمياط والمنصورة ، وجعلت الجيوش الصليبية تحت رحمة هذه السيطرة التامة .

* * *

ولكى يتقى الملك لويس هذه المصائب ، جنح إلى سياسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ورأى أولا أن يجلو الجيش الصليبى عن جديلة ، بالانتقال عن طريق الجسر المعروف إلى شمال بحر أشموم طناح ، حيث أقام دوق برجنديا بجزء كبير من القوات الصليبية منذ بدأ القتال ، ووافق جميع البارونات الصليبيين على ذلك المشروع ، وبدأوا فى تنفيذه . فأقاموا برجاً خشبياً واطئاً عند مدخل الجسر ، وشحنه بفئة من رماة النشاب لحماية الفرق الصليبية فى أثناء انسحابها من معسكر جديلة ولإخفاء عبورها عن أنظار المصريين على قدر الإمكان ، وترتيب عملية العبور بحيث جعل الملك لويس التاسع فرقته الملكية فى المؤخرة وراء جميع الفرق الصليبية الأخرى ، على أن يكون القائد الفرنسى والتر شاتيون فى آخر تلك المؤخرة لحماية الجيش الصليبى المنسحب من أية حركة مفاجئة معادية، ولذا لم يلبث معسكر جديلة أن عمته الحركة بعدما خيم عليه سكون اليأس والوباء والمجاعة مدة ثمانية أسابيع ، أى منذ معركة جديلة الكبرى ومعركة مسجد النصر النهرية ، ولحت القيادة المصرية الأيوبية هذه الحركة ، دون أن تهتدى إلى أهدافها ، لكنها اتخذت العدة لجميع الاحتمالات (١).

(١) المرجع السابق ذكره ، ص ١٨٣

وأخيراً ، ومن المحتمل يوم ١٦ ذى الحجة سة ٦٤٧ ﻫ الموافق ٢٢ مارس ١٢٥٠ بدأت الفرق الصليبية فرساناً ومشاة فى العبور ، فهجمت عليها من فورها كتيبة من الخيالة المصرية وحملت على البرج الخشبى عند رأس الجسر . وتلقت فرقة المؤخرة الملكية الصليبية هذا الهجوم المصرى ، وقصدت له وشغلته بالمناوشة حتى انتهى عبور جميع الفرق الصليبية إلى شمال بحر أشموم طنوح ، ثم عبرت المؤخرة الملكية حسب الترتيب . ولذا لم يبق من الفرق الصليبية عند رأس الجسر سوى فرقة شاتيون وهى نهاية المؤخرة الملكية . فتعرضت هذه الفرقة لوابل كثيف من رماة كتيبة مصرية ، وكادت عساكرها تقع فى الأسر لولا عودة شارل كونت آنجو لنجدتها وتمكنه من معاونتها فى العبور .

ومع ذلك فإن انسحاب الملك لويس بجيشه كله إلى المعسكر الصليبى الشمالى لم يخفف شيئاً من أحوال المجاعة والمرض بين عساكره ، بل أخذت الأقوات تنفد من المخازن لنقص الوارد منها إليهم من أية ناحية وارتفعت الأسعار ، فى عيد الفصح وكان يوافق ٢٧ مارس ١٢٥٠ . ولذلك لجأ الملك لويس إلى وسيلة طلب المفاوضة والمهادنة مع السلطان المعظم توران شاه .

وفى أواخر مارس ١٢٥٠ جاء إلى المنصورة وفد صليبى يرأسه كونت فيليب مونتفورت زعيم البارونات الصليبيين المحليين ، ومن أقرب المقربين إلى الملك ومعه فارس آخر ، وقابل هذا الوفد نواباً مفوضين رسميين من عند السلطان ، ومنهم قاضى القضاة بدرالدين حسن بن يوسف السنجارى ، والأمير زين الدين أمير جاندر . وعرض الوفد الصليبى استعداد الملك للانسحاب بحملته شمالا إلى دمياط ، تمهيداً للجلاء التام عن السواحل المصرية ، على شروط نزول السلطان توران شاه لمملكة عكا الصليبية عن مدينة بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى فلسطين ، غير أن الجانب المصرى كان عليما بالحال فى المعسكر الصليبى ولذا لم يجد المفوضون المصريون مسوغاً لقبول هذه الشروط العجيبة ، وفشلت المفاوضات وانتهت وكأنها لم تبدأ ...

ونتيجة لفشل هذه المفاوضات واستمرار سوء الحال عند الصليبيين ، اختمرت

فى رأس الملك فكرة الانسحاب بالجيش الصليبى كله براً ونهراً إلى دمياط ، عاجلا وبأية وسيلة ، غير أن بعض البارونات اقترحوا على الملك أن يسبق هذا الانسحاب العام بالرحيل بنفسه خلسة إلى دمياط فى ظلام الليل مع فئةمن حاشيته عن طريق البر أو النهر،وذلك ليكون بعيداً عن أخطار الانسحاب السريع ، ولكن الملك لويس أبى أن يعمل بهذا الاقتراح ، بل أعلن أن موضعه سوف يكون فى آخر المؤخرة وراء المنسحبين ، كما حدث أثناء الجلاء عن جديلة .

الانسحاب :

ولم يكن هذا الانسحاب سهل التنفيذ ، نظراً لضعف الروح المعنوية فى الجيش الصليبى ، فضلاعن طول المسافةمن المنصورة إلى دمياطالعصور الوسطى ، وهى قرابة ٢٢ كيلو متراً من شمال المنصورة إلى شرمساح ، وثمانية وعشرين كيلو متراً من شرمساح إلى فارسكور ، وعشرين كيلو متراً من فارسكور إلى دمياط العصور الوسطى ، وتبلغ هذه المسافات فى مجموعها سبعين كيلو متراً ، وهى كثيرة العراقيل المائية .

وتقرر أن يكون البدء فى تنفيذ الانسحاب مساء يوم الثلاثاء بعد عيد الفصح الكاثوليكى أى مستهل المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ ، فتحرك الصليبيون

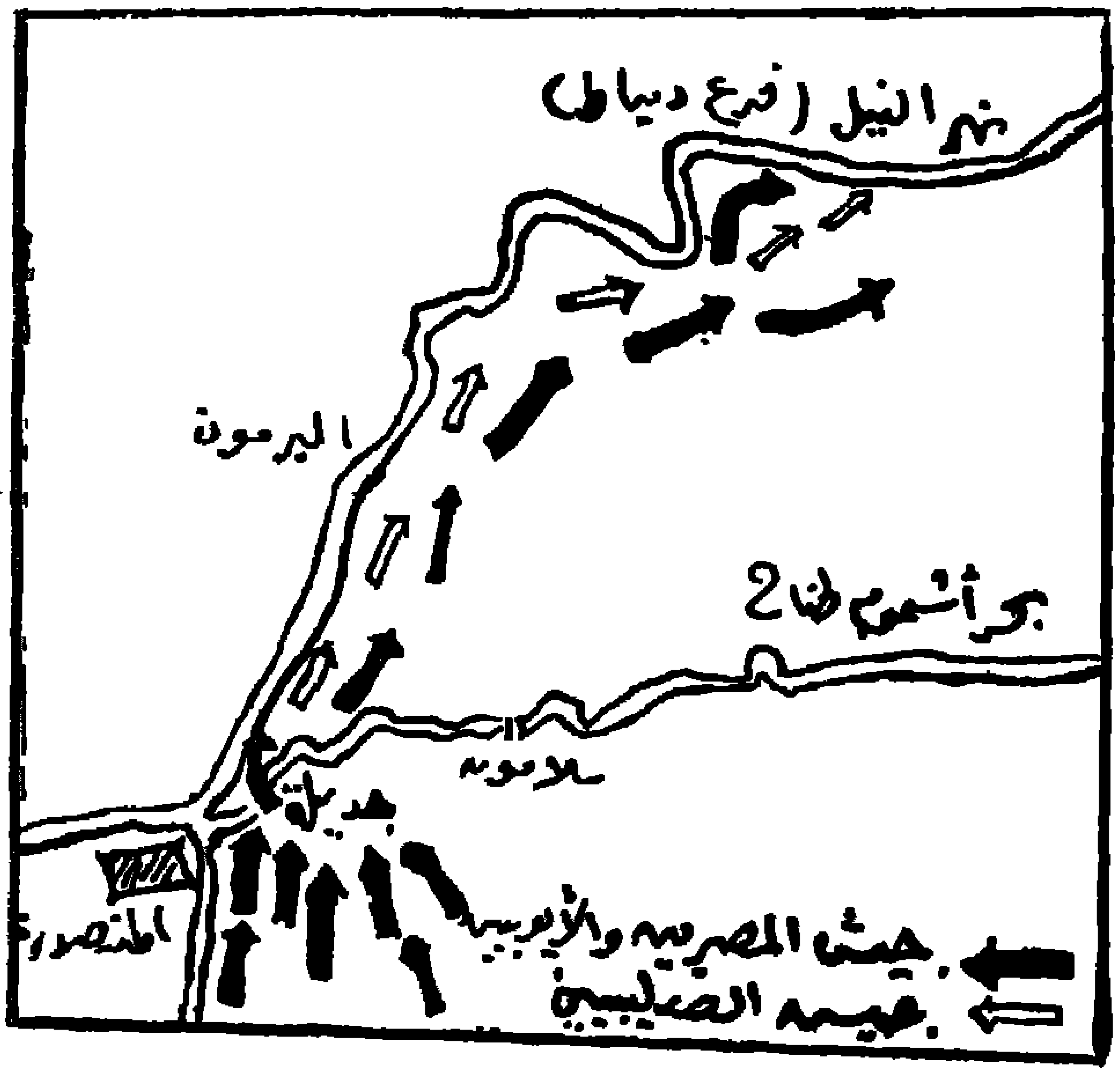

السحاب الجيش الصايبي العام

متجهين صوب الشمال تاركين وراءهم أكداساً مكدسة من العتاد الثقيل والذخيرة والمهمات وحاجات الجيش .. نعم تركوها غنيمة للمصريين .

وكان الجيش المصرى يجوس طوال الليل أنحاء الجبهة ويتصيد من يقع فى يديه من المتعبين أو الهاربين فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة الصليبيين بقيادة السير والتر شاتيلون تبذل الجهد الجبار لستر الانسحاب .

تبع المصريون الجيش المنسحب وهما فى حالة يرثى لها ، واستمر النضال وطالت المطاردة حتى وصلوا إلى فارسكور وهى تكاد أن تكون فى ثلثى المسافة إلى دمياط ، وهناك توقفوا إذ أصاب المصريون الجهد من جراء المطاردة والقتال . وفى خلال ذلك كان الملك لويس مريضاً بالدوسنطاريا المنتشرة بالمعسكر الصليبى وهو لا يكاد يستطيع الحراك ، لكنه رفض أن يكون طريح الفراش على ظهر إحدى السفن المنسحبة فى النيل مع سائر المرضى والجرحى العاجزين ، وأصر على البقاء فى موضعه من المؤخرة . وفى آخر الليل هبت رياح عكسية قللت من سرعة السفن الصليبية الحربية وغير الحربية ، ولم تلبث هذه السفن أن وجدت نفسها قبالة المراكب المصرية المصطفة عند موضع مسجد النصر على أهبة القتال ، وفى محاذاتها فئة من الفرسان والرماة المصريين المزودين بالنبال والنار الإغريقية . وعندئذ هربت مجموعة السفن الصليبية المكلفة بحراسة السفن المحملة بالمرضى والجرحى الصليبيين ، واتخذت سبيلها فى النيل إلى الشمال للنجاة قبل فوات الأوان ، على حين نشبت معركة نهرية بين السفن الصليبية المحملة بالمرضى وبين القوات المصرية فى البر والنهر ، ونزلت القذائف المصرية الأيوبية على هذه السفن الصليبية فى أثناء تلك المعركة ، من رماة فى البر وفى النهر . . . واختلط الحابل بالنابل وكثر عدد القتلى من المرضى والجرحى الصليبيين بهذه السفن بعد الاستيلاء عليها فى سرعة ويسر . وبلغت الغنائم التموينية التى استولت عليها السفن المصرية من وفرة الكمية . مثلما بلغ القتلى الصليبيين من كثرة العدد ، ويقع جوانفيل فى فى الأسر ، ولما عرف آسروه أنه قريب الملك أحسنوا معاملته واستضافه أمير السفن المصرية حتى يوم ١٠ أبريل سنة ١٢٥٠ وأركبه معه فرساً للنزهة على شاطىء النيل

بعض الأحيان . ثم ذهب جوانفيل مع الذاهبين من الأسرى الصليبيين إلى معسكر المنصورة ، حيث علم أن الملك لويس التاسع ، ومعظم البارونات الأوربيين والحليين وقعوا كذلك فى الأسر ، وأن الانسحاب الصليبى العام فى البر ، كان أتعس حظاً وأشد كارثة مما حل بالسفن الصليبية فى النيل .

الانسحاب البرى

وكانت بداية الانسحاب الصليبى البرى العام كبداية الانسحاب النهرى مساء يوم الثلاثاء ، واتخذت الفرق الصليبية البرية من الليل ستاراً كما حدث فى الانسحاب النهرى بعد أن جعل الملك موضعه فى ذيل المؤخرة وازداد المرض عليه فى ذلك المساء حتى أمسى لا يستطيع امتطاء فرسه لشدة ما كان يشعر به من الاضطراب المعوى .. ولصعوبة العراقيل المائية ، تطور الانسحاب الصليبى البرى إلى سير متعثر بطىء تعوقه الهجمات المصرية الجريئة العنيفة بقيادة بيبرس دون أن يستطيع الصليبيون الدفاع عن أنفسهم ... وازدادت حالتهم سوءاً ساعة بعد ساعة

وفى صباح الأربعاء ٦ أبريل ١٢٥٠ تراءت القوات المصرية الزاحفة وهى تسير فى شكل قوس ضخم يحتوى على أعداد متوثبة من الفرسان والمشاة ، وهذه القوات تنتظر إشارة من قائدها بيبرس للاطباق من طرفى هذا القوس على الوحدات الصليبية المنسحبة

صورة محفورة على الخشب مأخوذة من كتاب فرنسى صدر عام ١٥٢٢ يظهر فيها الملك لويس عابساً ومقيداً فى يديه وبجانبه أحد أخويه وحولهما جند مصريون أيوبيون

المذعورة ، وعند منتصف هذا القوس وقعت مناوشات متكررة على مؤخرة الصليبيين تبتغى الوصول إلى شخص الملك لأسره بأية وسيلة ولحمل الصليبيين على الاستمرار فى القتال دون ملك يقودهم . . وبعد ساعتين من هذا الصباح أخذ شكل القوس المصرى يضيق رويداً رويداً ، ويتحول من شكل قوس إلى شبه حلقة ناقصة ، ثم لم تلبث القوات المصرية الأيوبية أن أطبقت حوالى ظهر ذلك اليوم على الصليبيين لإبادتهم عن آخرهم قبل أن يصلوا إلى شار مساح للاحتماء بها ، وخشى فارس الملك جودفرى مما عسى أن يحل بسيده الملك الذى كان لا يستطيع حراكا لشدة مرضه ، فبادر جودفرى إلى الفرار به . وأوصله إلى مكان معروف له من قبل فيما يبدو ، بقرية ميت الخولى عبد الله الحالية على الشاطىء الشرقى للنيل،وهناك اعتصم الملك لويس بموضع اسمه تل قونه حيث آوى إلى بيت ريفى من بيوت هذه القرية ولحقه بها أخواه وكثير من كبار باروناته . وكان الملك وقتذاك فاقد الوعى ومغمى عليه. وكان الأمل فى بقائه حياً يتضاءل[1]

ويقرر المؤرخون العرب أن فى قتال الانسحاب قضى من الصليبيين ثلاثون ألف رجل وقد يكون هذا التقدير مبالغاً فيه . ولكن الشىء المفروغ منه هو أن من بقى من الجيش الصليبى عقب ذلك كان عليه الاختيار بين الموت أو العبودية إلا إذا اعتنق الإسلام ، وأحاط المسلمون بالقوات الفرنجية وأجروا فيهم سيوفهم واستولوا عليهم بين قتل وأسرى ، أما ماغنموه من الخيل والبغال والأموال فكان مما لا يحصى .

ويرجع فضل كبير فى تحقيق هذا النصر إلى بلاء المماليك البحريه بقيادة بيبرس البندقدارى بلاء حسناً ، وشجاعتهم وانتهازهم فرصة انسحاب العدو فى صورته التعيسة .

---

(١) المرجع السابق لزيادة ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

الملك الأسير

يروى « جوانفيل » قصة اعتقال الملك كما سمعها من بين شفتى مولاه ، فيقول : « تخلف الملك عن فرقته وانضم إلى فرقة السير « والتر دى شاتيلون » الذى يقود مؤخرة الجيش ، وكان ممتطياً صهوة جواد صغير ولم يكن معه من رجاله سوى ذلك القارس الأمين « سير جيوفرى سيريجين » الذى دافع عنه حتى بلغ الإعياء بالملك مبلغاً قاتلا ، فتوقف الملك ومن معه على مقربة من بلدة تدعى منية عبد الله على مسيرة بضعة فراسخ فى الشمال من المنصورة ، وهناك أحاط بهم العدو وأصبحت المقاومة إذ ذاك عبثاً ، فسلموا أنفسهم بعد أن أمنهم العدو على حياتهم وكان عددهم يربو على الخمسمائة ومعظمهم من الفرسان النبلاء ، وفى الحال أخذ

الملك لويس التاسع فى الأسر

المصريون الملك على إحدى السفن ونقلوه إلى المنصورة حيث اعتقل فى دار إبراهيم ابن لقمان كاتم سر السلطان ، وهناك ألقوه مقيداً بالسلاسل ، وألقوه فى حراسة الخصى صبيح الذى أمر بأن يعامله بما يليق بمقامه من التجلة والاحترام .

ولا تزال هـذه الدار التى أسر فيها الملك لويس التاسع باقية بالمنصورة بجوار مسجد الشيخ الموافى، ويقوم فيها اليوم متحف تاريخى لتخليد آثار الانتصار فى المعركة .

وتذكر المصادر العربية أن السلطان المعظم أرسل غفارة الملك[1] إلى نائب دمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور فلبسها وهى اسكرلاط أحمر[2] تحته فروسنجاب وفيها مشد من ذهب، فنظم الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن إسرائيل مقطعات ثلاثا ارتجالا كل مقطعة بيتان فى مدح السلطان والأمير : الأولى

إن غفارة الفرنسيين التى   جاءت حباء لسيد الأمراء
ببياض القرطاس فى اللون لكن   صبغتها سيوفنـــا بدماء

والمقطعة الثانية للأمير :

يا واحد العصر الذى لم يزل   يجوز فى نيل المعالى المدا
لازلت فى عز وفى رفعـة   تلبس أسلاب ملوك العدا

والثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السلطان :

أسيد أملاك الزمان بأسرهم   وتنجزت من نصر الأله وعيده
فلا زال مولانا يفتح حمى العدى   ويلبس أسلاب الملوك عبيده

نهاية السلطان توران شاه (٢ مايو ١٢٥٠) (يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ)

وفى خلال المعارك الدامية بين المسلمين ، انفجر بركان ثورة مفاجئة، فانقلب كل شىء وتبدل مؤقتا سير الأمور .

ذلك أن توران شاه كان قد ورث عن أبيه الصالح نجم الدين ذلك الوجه

(١) غفارة الملك ، بضم الغين أو كسرها ومعناها غطاء الرأس أو العباءة (Manteau).
(٢) عباءة من النسيج الأحمر .

العبوس، فأثار طغيانه واستبداده المبكرين دهشة القادة المصريين، وكان قد أتى في ركابه من حصن كيفا بعض الندماء الشبان ، وهؤلاء سرعان ما تسلطوا على تفكيره وأصبحوا وحدهم محل رعايته ، الشيء الذي أوغر صدور الأمراء وأوقد غيرتهم وطرد توران شاه كثيرا منهم من وظائفهم ابتغاء مرضاة هؤلاء الندماء، وجردهم من مظاهر الشرف والسلطان ليسبغها عليهم ، وبدلا من اعترافه بالجميل الذي أسداه إليه هؤلاء الأمراء في الدفاع عن مصر . راح يبدي في كل أعماله الريبة وانعدام الثقة نحو أولئك الرجال الذين صدوا عن بلاده غزو الغزاة . وبلغ من إخلاصهم له أن نادوا به سلطانا وهو ما يزال غائبا في بلاد نائية .

كان توران شاه وعد القائد آقطاي بأن يعينه حاكما للاسكندرية، ولكنه أخذ يسوف ويماطل في الوفاء بكلمته، فخلق له — من ثم .... في شخص هذا الرجل عدوا رهيبا فضلا عن أن ندماءه الخليعين قد أثاروا حقده وضغينته على السلطانة والأمراء إذا ما فتئوا يرددون على مسمعه أنه ليس سلطانا إلا بالإسم ، وأما السلطنة الحقيقية فهي في أيدي هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم شجر الدر ويسخرون منه قائلين « لماذا جئت إلى مصر إذن ؟ أفما كان من الأفضل أن تبقى في العراق ، ثم راحوا يوسوسون له بأن يسارع بالاتفاق مع ملك فرنسا على أن يسلم الصليبيون دمياط ويغادر أرض مصر وبذلك يتخلص من نير الأمراء ويخلو له الجو، فيمكنه إذ ذاك الانتفاع بخدمات ندمائه المخلصين .

ووجد الدس تربة صالحة له فنما وأثمر، وكان من ثمرته أن انفتحت هوة عميقة من العداء والبغضاء بين السلطان وأمراء الجيش وازدادت تلك الهوة مع الأيام عمقا . وكان من ثمار ذلك الدس أيضا أن نشب شقاق عنيف بين السلطان الجديد وشجر الدر . فبالرغم من أنها خدمته بإخلاص ، وبالرغم من أنه يدين لها بعرشه وتاجه وبنجاة مصر من أعدائها في غيبته، فقد بدأ في مضايقتها واستفزازها بأن طلب منها ، أن تقدم له حسابا مفصلا عما صرف من أموال الدولة ، وعن المبالغ التي تركها أبوه في الخزانة مع بيان كامل بالثروة التي خلفها

فأعلنت السلطانة فى سخط وحنق أن المال قد أنفق فى المرافق العامة وعلى الحرب ضد الصليبيين .

وإذ أحست شجر الدر بالخطر المحدق بحريتها وحياتها تملكها الانزعاج والذعر ، والتجأت إلى أنصارها من أمراء المماليك البحرية، لما يكنونه نحوها من الحب والإخلاص ولما يشعرون به من القلق على أنفسهم من تصرفات السلطان — إذ أنه كان إلى جانب كل تلك النواحى القبيحة فى طبعه — سكيرا ماجنا ، يعكف كل وقته على الشراب والفجور ، ولم يكونوا على غير علم بأنه — بين خمره وسكره وفى وسط أصدقائه المازلين — كان يفوه بأوقح الألفاظ ضدهم . فمن ذلك أنه راح فى إحدى الأمسيات وهم على مائدة العشاء يضرب بسيفه رؤوس الشموع الموقدة أمامهم صائحا فى كل ضربة ، وهكذا سأقطع رأس فلان، ذاكرا أسماء كبار ضباط الجيش. ومن ثم عقدوا النية فيما بينهم على التخلص منه والاستئثار بسلطته قبل تسليم دمياط .

وكان توران شاه قد أمر بتشييد سرادق فخم على ضفة النيل بالقرب من فارسكور بسياج جميل ، وفى حديقته الغناء حمام فاخر وعلى جانبيه أبراج من الخشب أحدها أعلى من باقيها وقريب إلى النهر .

ففى فجر أول مايو ١٢٥٠ (محرم ٦٤٨ ﻫ) تناول توران شاه طعام الإفطار مع بعض ضباطه ، ثم قام ليستريح فى الدهليز السلطانى ، وهناك اقتحم مضجعه فجأة أحد الأمراء — ويقال إنه بيبرس قائد المماليك البحرية — وجرد سيفه وهوى به على رأس السلطان، ولكن هذا تفادى الضربة بذراعيه فرقت أصابعه ثم أغمى عليه . فلما رأى ذلك المعتدى دم السلطان متفجرا من جرحه تملكه الفزع لما اقترفه وانطلق هاربا . وللحال ضرب النفير وهرول إلى السرادق كثير من الضباط والخدم فلما سألوا السلطان عمن جرحه، أجاب بأنه واحد من المماليك البحريين ، فقالوا يظهر أنه أحد الإسماعيليين فهز رأسه قائلا : كلا أنا واثق أنه واحد من البحريين، وحينئذ تقرر فى لوح القدر مصيره، إذ عرف المماليك البحرية أن الأمر لم يعد يحتمل صبراً فإما حياته وإما حياتهم .

ونقل توران شاه إلى البرج وضمد جرحه ولكن سرعان ما تكاثر حول البرج عدد من المماليك وعلى رأسهم أقطاى ونادوا لكى ينزل إليهم ، فوجد عندئذ أنه وقع فى الفخ . فراح يتوسل إليهم ويستدر عطفهم وشفقتهم وعرض عليهم أن ينجز وعده بجعل أقطاى حاكما للاسكندرية ، بل أبدى رضاه بأن يتنازل عن عرشه فى نظير أن يبقوا على حياته ويتركوه يعود إلى حصن كيفا . ولكنهم خوفا على أنفسهم قسوا قلوبهم وضيقوا عليه الخناق . فلما لم يسلم نفسه إليهم أتوا ببعض النار الإغريقية وألقوها على البرج ، فاندلعت فيه ألسنة اللهب وعندئذ فزع السلطان وجرى نحو النيل لعله يصل إلى إحدى سفنه ، ولكنهم لحقوا به وهو يسبح وقتلوه فى الماء بجانب السفينة التى كان على ظهرها «جوانفيل» وقد رأى بنفسه كل ما حدث .

وعلى الرغم من أن الجيش قد علم بكل ما يدور هناك إلا أنه لم يحرك ساكنا ، فإن أعمال السلطان فى الفترة القصيرة التى قضاها بين جنوده جعلته مكروها من الجميع ، ولم تبذل سوى محاولة واحدة لإنقاذه إذ تشفع من أجله الأمير حسام الدين ، ولكن البحريين وقفوا فى وجهه وجردوا سيوفهم وصاحوا أن السلطان قد مات ، وكذلك كان نائب الخليفة فى بغداد موجودا إذ ذاك فى المعسكر ، فحاول أيضا مساعدة السلطان إلا أنهم اعتقلوه وهددوه بالموت لو أنه تدخل ، وتركت جثة السلطان ملقاة على ضفة النهر يومين كاملين حتى قام بدفنها بعض الفقهاء .

وبموت توران شاه انتهى حكم الأسرة الأيوبية فى مصر . وقد كانت من مبدئها إلى منتهاها دولة فتح وجهاد . ولولا وقوفها فى وجه الصليبيين لانقرض الإسلام من الشام والجزيرة ومصر وشمال أفريقية ، وقد خلفها فى حكم مصر سلاطين المماليك الأتراك (البحرية)

مفاوضات التسليم

كان المماليك قد عقدوا العزم على إعدام جميع الأسرى ، إذ أنهم دفعوهم دفعا وألقوا بهم إلى جوف السفينة فوق بعضهم ، وقد اختلطت — كما يقول

جوانفيل — رؤوسهم بأقدامهم— وظلوا طول الليل على هذه الحال، فهو يقول كانت أقدامى فى وجه الكونت بيير دى بريتانى ، وكانت أقدامه فى وجهى .

على أنهم فى الصباح ، أطلقوهم من هذا المكان المكتظ ، وقرر المماليك أن الملك لن يسمح له بمغادرة مصر إلا إذا دفعت زوجته الملكة . . . وكانت لاتزال فى دمياط — مبلغ أربعمائة ألف دينار (تساوى حوالى ٢٢٠٠٠٠ جنيه) فدية له ، وضمانة لذلك قرروا الاحتفاظ بجميع المرضى الذين كانوا فى دمياط بالإضافة إلى المخازن والأسلحة .

ومرة أخرى يبدو للصليبيين كأنما المخاوف قد انتهت . ولكن كان الخطر مع ذلك لا يزال قائما ، إذ علق المسلمون رضاهم بالصلح على أن يقسم الملك بصيغة معينة على الشروط التى انتهوا إليها . فلما سمع الملك هذه الصيغة التى وضعت بوساطة بعض المسيحيين المرتدين ، هالته بعض جمل فيها وبادر إلى رفضها رفضا باتا . إذ جاء فيها « أن الملك لويس إذا نكث عهده فإنه يعتبر قد حلف زورا ويكون ملعونا كمسيحى أنكر الله والمعمودية والإخلاص والإيمان»

فحينما سمع الملك ذلك القسم وهو يتلى عليه تميز غيظا وحنقا وصاح قائلا إنه مستحيل أن يقترف هذه الجريمة أو ينطق لسانه بهذا الإثم . وحينما بعث العلامة « نيكول » إلى الملك قائلا أن الأمراء فى أشد الغضب وأنه ليشعر شعورا أكيدا بأنهم مصممون — إن لم يقسم الملك القسم كما وضعوه له — أن يقتلوه هو وجميع رعاياه ، ولكن الملك أصر مع ذلك على الرفض . .

ثم يقول جوانفيل فى مرارة « لا أدرى ان كان الملك قد فاه بالقسم أم لا » ولكن كيفما كان الأمر فقد وافق القواد وأمراء الأسطول على ما أقسم به الملك وأرسل « السير جيوفرى دى سيرجين » إلى دمياط أمراً بإخلاء المدينة للمسلمين ، فلما تم الجلاء كان من المتعين بعدئذ أن يطلق سراح الملك مع الأسرى الآخرين .

وكان من الشروط التى قبلت بمقتضى القسم أن يدفع الملك قبل أن يغادر مصر مبلغ مائتى ألف جنيه ، أما الباقى وقدره مائتا ألف جنيه أخرى فيسدده

من عكا وضمانا لدفع هذا المبلغ قرر المسلمون الاحتفاظ بجميع المرضى الذين يعالجون فى دمياط ، أما كل المهمات والأسلحة وآلات القتال واللحوم المملحة الموجودة فيها فاشترط ألا تعاد هذه كلها إلى الملك إلا إذا دفع باقى الفدية .

والظاهر أن بعض أمراء المسلمين ترددوا فى قبول الفدية من الملك الأسير ، ولكن تم الاتفاق أخيرا على تسليم دمياط وكل ما فيها .

وفى إثر ابرام هذا الاتفاق نقل الملك وفى معيته بعض النبلاء إلى فارسكور وتسلم المصريون دمياط بعد أن ظلت فى يد الفرنج أحد عشر شهراً وتسعة أيام ، وأفرج عن الملك بمجرد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار كما أخلى سبيل أخيه وزوجته ، ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ١٢٠٠٠ أسير[١] .

أصبح الملك فى أمان ، غير أن شقيقه « الكونت دى بواتييه » كان لا يزال فى يد العدو وكان الملك متشوقا إلى أن يدفع الفدية فى سبيل إطلاق سراحه .

وفعلا أرسل المال من لدن الملكة التى غادرت دمياط قبل الجلاء عنها وقد استغرق دفع هذه النقود يومين كاملين وكان تقديرها بالموزنات وكل وزنه تبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب حوالى ٥٧٥٠ جنيها ، وفى مساء اليوم التالى وجد اتباع الملك أنه ما زال باقيا عليهم ثلاثون ألف قطعة ذهبية ناقصة من مبلغ الفدية ، فنصح جوانفيل للملك بأن يقترض هذا المبلغ من فرسان المعبد ، ولكن الأب دى تريكور رئيس هؤلاء الفرسان اعترض مؤنبا جوانفيل لإبدائه مثل هذا الاقتراح ، وقد هدد بأنه إذا أخذ الملك ذلك المبلغ منهم بالقوة فسوف يأخذون لأنفسهم تعويضاً من الأملاك التى للملك فى عكا . فسخط جوانفيل لهذا التهديد وطلب من الملك أن يأذن له بالذهاب إلى سفن الفرسان واغتصاب المبلغ المسلوب . فحين وصوله إلى هناك وجد خزانة مغلقة على سطح إحدى السفن ولما رفضوا أن يفتحوها له تناول أحد القلاع وكسرها بالقوة

---

(١) المقريزى : المرجع السابق ، حـ ١ ص ٣٦٣ .

فانخلع القفل ، وتناول النقود التى بقى عليهم دفعها ، وعاد إلى الملك فسر سروراً عظيما ودفعت الفدية إلى آخر درهم شراح الـكونت « دى بواتييه » .

وفى مثل هذا المجال يطيب لنا أن نذكر أنه — خلال تحديد الفدية — وقع حادث ليس الأول من نوعه ولـكنه يؤكد ما انطوت عليه نفس الملك من شرف ونبل وسمو ، وذلك أن السير فيليب دى منتفور أحد صيارفة الملك قال له أن المسلمين قد أخطأوا فى عد وزنة من الذهب فلم يأخذوها وأن هذا الخطأ قد عاد على الفرنسيين بعشرة آلاف قطعة ذهبية ، فغضب الملك لهذا غضباً شديداً وأمر السير فيليب — احتراماً للثقة التى أولاها إياه فى تمثيله لدى الأعداء — أن يدفع إليهم عشرة آلاف قطعة فى الحال . وصمم الملك على أنه لن يبرح الشاطىء إن لم يدفع آخر درهم من الفدية المفروضة عليه . فلما سلمت بأ كملها تم عندئذ تنفيذ القسم الذى قطعه على نفسه فأبحر على سفينته الخاصة إلى عكا فى ٧ مايو سنة ١٢٥٠ (يوم السبت ٣ صفر ٦٤٨ هـ) .

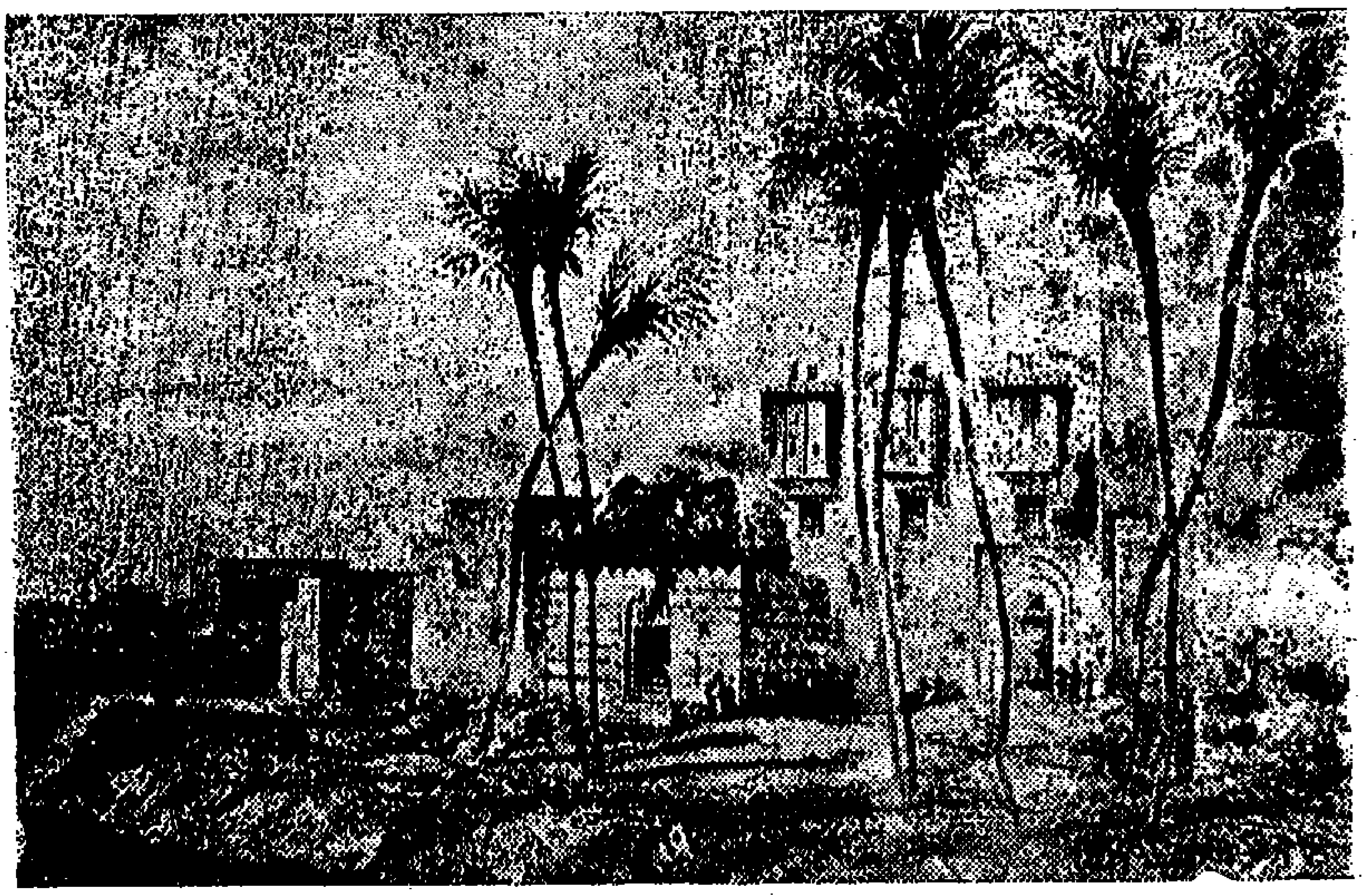

دار ابن لقمان حيث استقر لويس التاسع أسيراً

وبينما كان الأمراء يتفاوضون مع الملك سأله حسام الدين عن عدد جنوده حينما نزل إلى دمياط فأجابه بأنهم كانوا تسعة آلاف وخمسمائة فارس ومائة

وثلاثين ألفاً من المشاة غير الخدم والعمال ، ولا شك أن هذا التعداد مبالغ فيه جداً فإما أن يكون الملك قد أراد تضخيم حملته ، وإما أن المؤرخين المسلمين بالغوا فى تقدير عدد أعدائهم ليزيدوا من مكانة انتصارهم .

وعلى أى حال فان تلك الحملة الصليبية الكبيرة التى نزلت إلى أرض مصر فقدت معظم رجالها وذكرت المصادر التاريخية أن الأسرى الذين أطلق سراحهم لم يزيدوا على اثنى عشر ألف رجل وعشر نساء، وحتى هؤلاء لم يطلق سراحهم كلهم سريعاً بل ان بعضهم ظل راسفا فى أغلال الأسر وقتاً طويلا ، ومن المحتمل أن عدداً كبيراً من الجنود الصليبيين قد اعتنقوا الإسلام واستقروا بأرض مصر .

معاهدة الصلح (٥ مايو ١٢٥٠)

نصت المعاهدة بين الطرفين على الشروط التالية[١]

١ — أن يرد الملك لويس مدينة دمياط إلى المصريين .

٢ — أن يخلى الملك سبيل المسلمين الذين فى أسره .

٣ — ألا يقصد سواحل البلاد الإسلامية مرة أخرى .

٤ — أن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار[١] فدية عن الأسرى المسيحيين يقدم نصفها مقدما قبل اطلاق سراح الملك ، والنصف الآخر بعد مغادرة مصر .

وتعهد المصريون من جانبهم

١ — بأن يطلقوا الأسرى المسيحيين الذين وقعوا فى قبضتهم فى هذه المعركة ومن أسروا منذ عهد السلطان العادل أيوب وأن يرعوا المرضى من الفرنج الذين بدمياط وأن يحافظوا على معداتهم بالمدينة إلى أن تحين الفرصة لأخذها .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٥ ، وانظر أيضا :
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٦ ص ٣٦٩ ، العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٢) تقدر قيمة الدينار حسبما جاء فى مالية مصر لعمر طوسون ص ٥ — ٦ بمبلغ ستين قرشا وعلى هذا تقدر الفدية بحوالى ٤٨٠٫٠٠٠ من الجنيهات المصرية الذهبية .

وأقسم الطرفان بالمحافظة على نصوص تلك المعاهدة لمدة عشر سنوات .
ومع ذلك فلم يحافظ الملك على احترام المعاهدة .

سفر الملك (٨ مايو ١٢٥٠ — يوم الأحد ٤ صفر ٦٤٨ هـ)

وحدث أن كانت سفينة تابعة لمدينة جنوه راسية بقرب الشاطىء تجاه النقطة التى مر بها الملك بعد الافراج عنه . ولم يكن يبدو غير رجل واحد على ظهرها ، ولكنه فى اللحظة التى وقع فيها بصره على الملك صفر بفمه نغمة خاصة وفى الحال وثب إلى الشاطىء ثمانون من حملة الأقواس وقد تسلحوا تسليحاً تاما وقد حنوا أقواسهم وفوقوا سهامهم وبأسرع من لمح البصر ألقى لوح خشبى على ضفة النهر وعبره الملك إلى السفينة ثم تبعه شقيقه وتشارلس أوف أنجو وسير جينز وجوانفيل وبعض الآخرين .

وما تم النصر حتى سارت أنباؤه إلى القاهرة ومصر وشتى أنحاء القطر وأعلن للناس السرور والاغتباط وعادت قوات الجيش إلى القاهرة .

فلما كان يوم الاثنين الثالث عشر أنعمت شجرة الدر على الأمراء أرباب الدولة بالخلع السنية ووزعت الأموال على سائر الجند .

وللشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح قصيدة طريفة فى وداع الحملة الصليبية ننقلها هنا :

قل للفرنسيس إذ جئته	مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
ان يكن البابا بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح .

فاتخذوه كاهناً انه أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم ان أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

هل خمدت الروح الصليبية ؟

تلك كانت نتيجة الحملة الخائبة ، وقد كانت الروح الصليبية فى ذلك الوقت — تكابد طور النزع الأخير — فلا عجب أن عجلت هذه الحملة بذبولها . ذلك أن المملكة اللاتينية فى الأرض المقدسة مالبثت بعد فترة وجيزة أن تقلص ظلها ثم زالت . . وكان من أهم أسباب زوالها النهائى نشاط سلاطين المماليك الأتراك فى قتال الصليبيين وإمعانهم فى العمل على طردهم من الشرق الوسيط . فلما مرت إحدى وأربعون سنة على نزوح لويس التاسع عن مصر ، كان السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاون قد احتل عكا فى ١٨ مايو سنة ١٢٩١ وقضى على ما تبقى من مملكة الفرنج فى سورية .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

تحليل معركة المنصورة

سنوجز أهم العوامل التى كانت سبباً لفشل الحملة الصليبية السابعة على مصر، ويمكن تحليل هذه الأسباب إلى قسمين رئيسيين : عوامل استراتيجية وأخرى تكتيكية ، ونوجز الأسباب الأولى فيما يأتى :

١ — لم تدرس الخطة الكبرى للحملة ولم تبحث تفصيلاتها بعناية قبل الإقدام عليها ، فما يثير الدهشة ، أنه لم يكن قد مضى أكثر من ثلاثين سنة على حملة صليبية سابقة بقيادة حنا دى برين (١٢٢١) ، حتى وصلت حملة أخرى اتبعت نفس الخطة ونزلت فى دمياط . فكان الفشل نصيبها !

كان للصليبيين السيادة البحرية فى شرقى البحر المتوسط، وكان لا ينازعهم فيه الأسطول الأيوبى ، فتيسر لهم نقل القوات والعتاد إلى قبرص ثم قصدوا ساحل مصر ، ومع ذلك فقد خسروا الحرب فى حملة ١٢١٨/١٢٢١ ، هذا إذا أغفلنا حملة الملك أملريك عام ١١٦٣/٦٩م لاختلاف الأحوال السياسية حينذاك ، فقد كانت مملكة بيت المقدس ما زالت قائمة ، وفى حاجة إلى حماية عسكرية وكان من الصعب أن ينقل منها بعض قواتها لمعاونته فى حملته ضد مصر . ولم تكن هذه الأحوال موجودة فى أثناء حملتى ١٢١٨ ، ١٢٤٩ ، ذلك لأن مملكة بيت المقدس كانت قد انكمشت وانطوت على الساحل السورى ، وتستطيع تلك أن تدافع عن نفسها، وكان الدفاع عنها متيسرا إذا هاجمت عكا أو صور مثلا قوات دمشق أو بيت المقدس فى أثناء الاضطلاع بالحملة على مصر. فالبحر من ورائها يعج بالسفن الصليبية ، فضلا عن المساعدات التى يمكن أن تمدها بها البندقية أو جنوة . وعلاوة على هذا ، فقد كان قوام حملة لويس التاسع على مصر قوات وافدة من غربى أوربا ، وليس من قوات الممالك الصليبية المحلية فى فلسطين والساحل السورى . وعلى أى حال لم يكن هناك ثمة خطر جسيم يهدد أمن تلك الممالك الصغيرة .

كانت مصر إذ ذاك تبدو فريسة للغزاة ، فهى بلاد ذات ثراء موفور على

مر الدهور ، يحكمها سلطان يعتمد على قوات عسكرية مأجورة ، وتتكون من أخلاط الأتراك والأكراد والتركمان والمصريين والعربان، وكان التنافر مستحكما بين حكام مصر وسورية من الأيوبيين ، ويتقاسم البلدين عدة فروع من تلك الأسرة ، فمنذ عام ١٢١٩ كان السلطان الملك الكامل يحكم فى القاهرة والمعظم فى دمشق ، ومع أن حسن التفاهم كان يسود العلاقات بينهما أحيانا ، فلم يكن من السهل أن يتفقا على تنفيذ خطة موحدة ضد العدو المشترك .

كانت خطة الصليبيين لغزو مصر مستقلة عن خطة الدفاع عن فلسطين سواء فى عام ١٢١٩ بقيادة حنا دى برين أو فى عام ١٢٤٩ بقيادة الملك لويس التاسع ، ولم يكن من العسير على قائد موهوب أن يفوز بالنصر إذا كان على رأس حملة حربية كتلك التى قادها حنا أو لويس التاسع . أما الحفاظ على الأرض بعد ذلك أى بعد القضاء على شكيمة القوات المدافعة فكان أمراً محتملا . ومع ذلك فقد كانت التجربة أو المشروع يستحق أن يقام به وينفذ ..

ولكن المشكلة إذا لم تكن بالأمر الصعب أو المستحيل فإنها تحتاج إلى الدرس والعناية إذا اتخذنا القواعد الاستراتيجية العامة مرشدا . فإذا أراد العدو أن يقبض على مصر من رقبتها ، فينبغى عليه أن يعجل بالمسير للاستيلاء على القاهرة بعد أن يتخذ له قاعدة على ساحل البلاد . وهناك سبيلان هامان يحققان النجاح يوصلان إلى القاهرة مع مراعاة اجتناب المسالك المائية والترع الكثيرة التى تنتشر فى الدلتا . فما هى طرق التقدم ؟ !

هناك طريقان وأولها :

١ — النزول إلى البر بالقرب من الاسكندرية والابتعاد ما أمكن عن الفرع الغربى للنيل كما فعل بونابرت فى عام ١٧٩٨ ، ثم التوجه إلى دمنهور فالجيزة ، وعيب هذه الطريق أن مراحلها تقع كلها فى الصحراء إلى أن تصل القوات الضاربة لتجد القاهرة أمامها ونهر النيل الكبير يفصلهما عن بعضهما ، وليس عبور النيل بالأمر اليسير ولا سيما بعدما يبتعد الجيش عن قاعدته بالاسكندرية ويصبح فى حاجة إلى إمدادات متواصلة .

٢ — الطريق الثانية قد تكون أفضل عن الأولى هى طريق الصحراء العربية الشرقية ، وذلك بالنزول عند موقع الفرما (شرقى بحيرة المنزلة) ثم المسير إلى الصالحية وبلبيس ومنها رأساً إلى القاهرة مبتعداً ما أمكن عن الفرع الشرقى للنيل، ومن مزايا هذه الطريق أنها تجلب القوات المعتدية أمام القاهرة مباشرة ، وليس فيه ترع أو مسالك مائية تجبرها على العبور، والمسافة التى سيقطعها الفاتح حوالى مائة ميل تقريبا من (بلبيس) .

وليس فى هذه الطريق صعوبة تذكر سوى أن مراحلها الأولى تقع عبر أراضى صحراوية .

ونلاحظ أن معظم الحملات ضد مصر اختار قادتها هذه الطريق . . . فهو السبيل المفضل الذى سارت فيه جيوش قمبيز الفارسى وإسكندر المقدونى ، وانطوخيوس أبيفانس وعمرو بن العاص وسليم الأول العثمانى. أما لورد ولسلى قائد الحملة البريطانية فإنه استفاد من قناة السويس واقتصد قرابة أربعين ميلا فى مسيرة قواته، وكانت هذه الطريق معروفة تمام المعرفة عند الصليبيين فقد سلكها أملريك عام ١١٦٨ حينما استولى على بلبيس ثم حاصر القاهرة ، وكان من المحتمل جداً أن تقع فى قبضته لولا أنه قبل مفاوضة خصمه وتسلم الجزية وعاد من حيث أتى إلى فلسطين .

ولذلك يدهشنا كثيراً أن يهمل حنا دى برين والملك لويس التاسع هذه الطريق ، وأن يختار كلاهما النزول عند دمياط . فالطريق من هذه الميناء إلى القاهرة يخترق صميم الدلتا المزدحمة بالترع والقنوات وفروع النيل الكبيرة إذ ذاك وعبور كل هذه الموانع الطبيعية ، فضلا عن أن المصريين قد اختاروا عدة مواقع دفاعية منيعة لمقاتلة العدو وكسر شوكته وإضعافه حتى يصل القاهرة (إذا وصل) منهوك القوى . ولم يكن هناك أدنى شك فى فشل خطة الفرنج . وقد أدرك المصريون سبل الدفاع ، وعبأوا له كلما كان فى طاقتهم ليحرموا العدو ثمار النصر . ولم تنهض القوات المسلحة بواجب الدفاع وحدها بل أسهمت معها جموع الشعب المتحمسة .

الاستيلاء على دمياط

استولى حنا دى برين على دمياط عام ١٢١٩ م بعد حصار استمر حوالى ثمانية شهور ، فقد فى خلالها عدداً ضخما من قواته وعتاده ، فلما بدأ المسير بقواته عبر الدلتا إلى القاهرة كانت مجهدة ، فاضطر إلى الوقوف على شاطىء ترعة أشمون، فى مواجهة جيش السلطان الكامل ، وقد حاول عدة مرات اختراق الجبهة ولكنه فشل ، وأخيراً أدركه اليأس حينما عرف أن الأرض التى تفصله عن قاعدته فى دمياط قد غمرتها مياه الفيضان ، بعد ارتفاع ماء النيل ، ثم قطع المصريون الجسور ، فكانت الطامة الكبرى . فأسرع إلى التقهقر إلى دمياط، والمياه تحيط به من كل جانب ، والسلطان يضغط بجيشه للإطباق على قواته واضطر أخيراً إلى المهادنة والصلح ، فسمح له السلطان بالجلاء وإخلاء دمياط .

أما موقف حملة لويس التاسع فكان كالآتى :

وصل السلطان من سورية مريضاً ، والأمراء يتنافسون على تولى العرش بعد وفاته . وأسوأ من ذلك أن دمياط سقطت فى قبضة الصليبيين بعد مناوشات غير عنيفة ، وفرار جزء كبير من حامية دمياط وهلع الأهالى بعد أن فقدوا الذين يتولون الدفاع عنهم !

ومع ذلك نرى الملك لويس يضيع حوالى ستة أشهر فى دمياط وهو ينتظر وصول بقية أسطوله وعتاده وإمداده ...

وفى خلال تلك الأشهر كان السلطان والقادة المماليك يعبئون القوات ويعدون المواقع ويحشدون العتاد ، ويستنجدون بالأمراء ويقيمون العراقيل والموانع فى فى وجه الأعداء ، وأخيراً بدأ لويس (نوفمبر ١٢٤٩) تقدمه . وكان ينبغى عليه أن يتقدم إلى الجنوب بسرعة قبل أن يستعد المصريون ويقدم الصيف ومعه فيضان النيل السنوى ...

ولكن مباغتة الهجوم كان قد ضاع أثرها . . وفى إبان تلك الفوضى قام أحد قادة الملك لويس مقترحا التقدم عن طريق الاسكندرية ! فكأنه لم تكن للقادة خطة موضوعة للحملة ! فضلا عن جهلهم المطبق بجغرافية البلاد !

الأسباب التكتيكية :

١ — لعبت العوامل التكتيكية دورها فى المعركة منذ بدأ الملك لويس تقدمه من دمياط ، واصطدامه بعدو لا يتزحزح قيد أنملة عن أرضه العزيزة .

ففى يوم ٢٠ نوفمبر بدأ جيش لويس المسير ببطء وبحذر متجهاً نحو فارسكور وشارمساح والبرمون ، وفى نفس الوقت كانت سفائنه تسير فى النيل بمحاذاة قواته ثم وقفت القوات (١٩ ديسمبر) أى أنه قطع حوالى خمسين ميلا فى أربعة أسابيع .

وقفت الجنود لأن الملك وجد أمامه مانعاً مائياً منيعاً يقطع الطريق . فبالقرب من المنصورة (حينذاك) ينقسم فرع دمياط إلى فرعين ، أحدهما يتجه نحو دمياط ، والآخر يتجه شرقاً حتى يصب فى مستنقعات بحيرة المنزلة ، وأمام الفرع الآخر وقف الفرنسيون مضطرين . (ويطلق على هذا الفرع ترعة أشمون أو البحر الصغير) ، ولكن استمرت المناوشات بين الجانبين .

٢ — لجأ لويس إلى إقامة الأبراج ليحتمى خلفها أثناء عمل جسر ترابى يعبر عليه ترعة أشمون طناح ، ولكن قواتنا كانت واقفة له بالمرصاد ، فكانت تخرب أول بأول ما يقيمه ، وكان المنتظر أن يكون للبرجين فائدة للصليبيين فى تحطيم الاستعدادات المصرية ، ولكن جرت الأمور على عكس ما كان منتظراً ، فقد تمكن المصريون من تحطيم البرجين بفضل استعمالهم النار الإغريقية التى فاجأوا بها العدو ، وأخذت من بهما من الجنود فى كل جانب ، حتى أصبحوا يرون الغنيمة فى الخروج منهما والفرار سالمين . واستطاعت القوات المصرية تكبيد العدو خسائر جمة ، فلما رأى الملك مايقاسيه رجاله من المحن ، لم يجد سوى الصلاة ، عسى أن تدفع عن قواته الخطر الأكيد . وهنا يبدو لنا استخدام سلاح مفاجىء أمراً هاماً فى انتصار المصريين .

٣ — وبينما الملك يقاسى هذه المتاعب أمام المعسكر المصرى لا يدرى ماذا يعمل ، جاءه خائن ، قيل إنه بدوى وأرشده إلى مكان مخاضة على ترعة أشمون ،

تقع إلى الشرق من المعسكرين المصرى والصليبى ، ويسهل عبورها [١] فصمم الملك على اجتيازها ليلا على رأس طليعة كبيرة من الفرسان الذين يستطيعون عبورها ولم يتمكن المشاة من متابعتهم (٧/٨ فبراير ١٢٥٠) وكانت أوامر الملك صريحة ومفادها ألا يتقدم أحد ما أمامه . وفاجأ الصليبيون معسكر المصريين فاقتحموه واختلطوا بمن كانوا فيه ، وأخذوا يعملون سيوفهم فى رقاب القوم وهم بين اليقظة والنوم ، وعم الاضطراب المعسكر إذ لم يتوقع أحد مثل هذا الاقتحام المفاجىء . وكان الصليبيون قد نصبوا لأمير الجيش المصرى كميناً بين المعسكر والمنصورة وأقبل عليه فرسان الداوية فأصابوه بعدة ضربات وفقد الجيش قائده . . ثم ارتكب كونت دارتو خطأ جسيما بتهوره وإسراعه بفرقته الراكبة إلى داخل المنصورة ، واخترق طرقاتها ومسالكها الضيقة قبل أن يتمكن الملك لويس بقواته الأصلية اللحاق به ، فأحاط الأهالى بشراذم الأمير المتهور ، وكانت تفرقت فى المدينة ، وقضوا تماماً على تلك الفرقة وقطعوا رجالها إرباً إربا [٢] . ولما وصل لويس لم ينجح إلا فى الوصول إلى مشارف المنصورة على حساب خسارة فادحة فى فرسانه ، ومع ذلك فقد تمكن من اختراق طريق له حتى وصل إلى الضفة المقابلة لمعسكره الأصلى ، أى الشاطىء الجنوبى لبحر أشمون ، وتمكن مشاته من إنشاء الجسر الترابى الذى كانوا قد بدأوه منذ زمن وعبروا عليه ولحقوا بقوات الملك . وهكذا رأينا الصليبيين بالرغم من خسائرهم الجسيمة قد احتلوا موقعاً طيباً جنوبى بحر أشمون ، ولكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من الانتفاع باستثمار نجاحهم الابتدائى . . فقد كان نجاحاً قصير الأجل . وتمسكوا بموقعهم الجديد ولم يتقدموا بل تباطأوا أسابيع أمام المنصورة وجمدوا وأصبحوا فى معزل لا يستطيعون التقدم نحو المنصورة واستعادتها ولا يستطيعون التقهقر المنظم من حيث أتوا .

---

(١) تألفت هذه الطليعة من البارونات وأتباعهم من العسكر وفرسان الداوية فى المقدمة يتلوهم فريق كونت دارتو (شقيق الملك) .

(٢) اشترك الأهالى مع قواتهم المسلحة فى القضاء على المعتدين فكانوا يرمونهم من نوافذ المنازل وأسطحها بكل ما تصل إليه أيديهم من الأمتعة المنزلية والحجارة وكان الفضل فى هذا النصر للشعب .

ونشبت فى عصر ٨ فبراير ١٢٥٠ معركة أخرى استطاع الصليبيون خلالها صد المماليك. ويعود الفضل فى ذلك إلى شخصية الملك نفسه الذى رأى أن يقوم مع من تبقى من قواته بواجب حرس المؤخرة لقوات المشاة التى لم تكن قد عبرت بعد بحر أشمون. وقد استمرت هذه المعركة حتى الثالثة بعد الظهر وكان النجاح فيها حليف الملك.

وكان مشجعاً لهم وصول الإمدادات من صليبى سورية وقبرص وانضمامها إلى صفوف لويس فى أثناء الأيام الثلاث التالية، ومما استحال معه على الأيوبيين أن تكون لهم الكفة الراجحة، واضطروا إلى الارتداد إلى المنصورة (١). وإن لم يكن هذا الارتداد هزيمة للمصريين أو نصراً للفرنسيين. ولكن مما لا شك فيه أن خسر الجانبان الكثير فى الرجال والعتاد، ولا سبيل إلى انتشار قوات لويس إلا بالاستيلاء على المنصورة. ولكن ما كان أبعدهم عن تحقيق الهدف المنشود. فقد كان الأهالى على استعداد دائماً لتعويض جيشهم كل ما يفقده، بينما كان تعويضها عند الصليبيين أمراً عسيراً. وفضلا لم يصلهم إمداد عدة أسابيع. وفى خلال تلك الأسابيع كانت الضربات تتوالى على الصليبيين بينما تقل الأقوات والمؤن دون أن يستطيع أحد القيام بأية حملة فى الداخل على المدن المجاورة لضمان الأقوات، ولذلك كلما طال الوقت كان ذلك فى صالح المصريين الذين لم يغب عنهم هذا العامل الهام. فاستغلوا الأسابيع السبعة بما فيه إصلاح أحوالهم وإيقاع الضرر بالعدو، وأخذوا فى بناء السفن وجمع المجاهدين والذخيرة. وكانت جميع هذه العوامل داعية إلى ترجيح كفة المصريين على الفرنسيين.

وأمام كل هذه المتاعب المريرة بدأ الملك يفكر فى الانسحاب إلى دمياط. ولكن هل يترك المصريون أعداءهم ينسحبون فى أمان ونظام وهدوء.

٤ — الأسطول المصرى :

عمد المصريون فى أثناء تلك المرحلة من المعركة الكبرى إلى صنع السفن

---

(١) حسن حبشى: الشرق العربى بين شقى الرحى، ص ٨٨ .

وحملوها مفككة على الجمال إلى بحر المحلة وطرحوها فيه بعد أن شحنوها بالمجاهدين ، وكانوا يهدفون القيام بقطع السبيل على الصليبيين ، حتى يعجزوا عن تموين أنفسهم من دمياط . فإن وجود السفن المصرية فى النيل وفرعه وشحنها بالمقاتلين يعرقل أية حركة لتموين العدو ، ونجح المصريون فى ذلك إلى حد كبير ، فحينما قدم أسطول من دمياط يحمل المئونة إلى الصليبيين عند البحر الصغير ، كمنت له السفائن المصرية فى الطريق حتى إذا شارفها باغتته ، ونشب القتال بين الجانبين، وحينذاك أقبل الأسطول المصرى من ناحية المنصورة فانتزع المصريون النصر إلى جانبهم ، واستولوا على عدد كبير من السفن وفقد العدو حوالى ألف رجل منهم ما بين قتيل وأسير . وهكذا قطع هذا الأسطول النشيط خط الرجعة على العدو وأصبح فى شبه عزلة تعيسة ، ثم توالت المعارك النهرية بين الفريقين وكان من أعنفها معركة يوم عرفات ٦٤٧ هـ — ٢٥ مارس ١٢٥٠ م ، حينما التقت شوانى المسلمين عند مسجد النصر بسفائن الصليبيين ، وفقد هؤلاء فيها اثنين وثلاثين سفينة من بينها بضع شوانى .

٤ — المجاعة والأمراض :

لم يقتصر الحال على نكبات الهزيمة . فقد فشت المجاعة وضعفت الروح المعنوية وانتشرت الأمراض والأوبئة بين الجند وكانت المجاعة أكبر عامل شجع المصريين على الاستمرار فى القتال ومضايقة العدو وأخذ الموت يتخطفهم وهم فى معسكراتهم بعد أن أنهكتهم المجاعة .

٥ — تعذر الانسحاب :

كل هذه المتاعب مجتمعة أرغمت الملك على الانسحاب والارتداد إلى دمياط ففكر فى إحراق معداته الثقيلة وتدمير سفنه لكى لا ينتفع بها المصريون ، ولكن هل يترك المصريون هذا الجيش المهزوم يفر أمام أعينهم دون أن يتعقبوه وينالوا منه حتى يفنوه

وهذا ما ذكره المقريزى فى وصف المرحلة الأخيرة من المعركة فقال إن

الصليبيين رحلوا بأسرهم من منزلتهم يريدون دمياط ، وانحدرت مراكبهم فى البحر قبالتهم فتتبعهم المصريون بعد أن عبروا الماء الفاصل بينهم وبينهم . ثم أحاطوا بالمؤخرة وأعملوا فى رجالها القتل والأسر ، وبينما كانت خسارة المصريين طفيفة جداً لا تعدو مائة رجل ، خسر الصليبيون عشرة آلاف قتيلا وأسر منهم مائة ألف ، وإذا كان هذا العدد مبالغاً فيه ، ولكن لا شك أن الخسارة كانت جسيمة .

وهكذا اختتمت المرحلة الأخيرة من معركة المنصورة التى تم فى خلالها أسر الملك لويس التاسع وكبار قادته ثم تسليمه دمياط والجلاء عن البلاد بعد دفعه الفدية عن نفسه وعن رجاله .

إستحوذت مصر وجيشها على هذا النصر الحاسم دون الاعتماد على مساعدة من جار أو حليف ، فقد اعتمدت على شجاعة أبنائها وحذق قادتها وصانعى عتادها الحربى ، وكانت مؤمنة كل الإيمان بأنها تذود عن الحق والوطن .

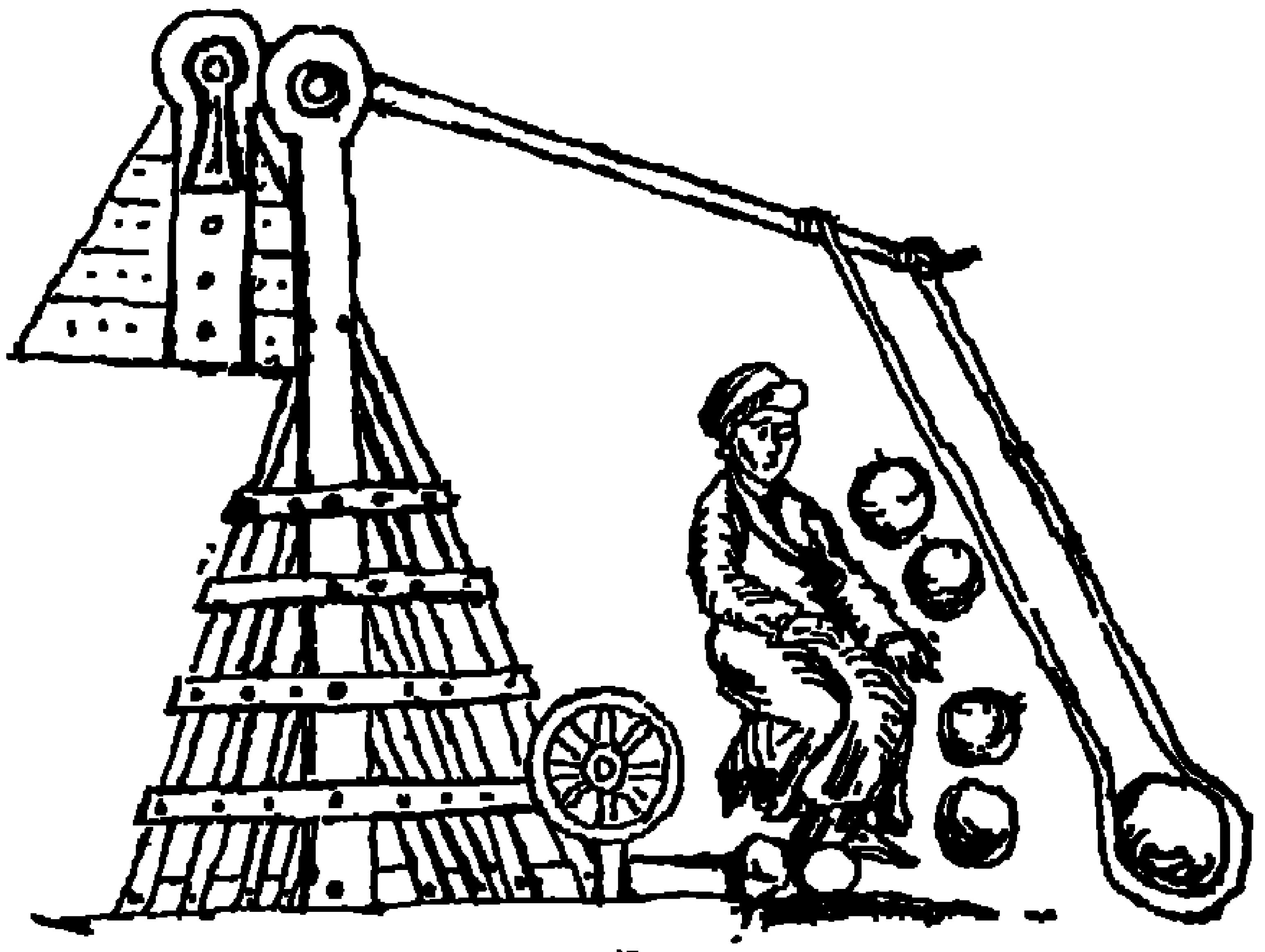

صورة

رمي الاحجار بالمنجنيق ماخوذة من جامع التواريخ لرشيد الدين

خاتمة المعارك بين الأيوبيين والمماليك

معركة العباسة

غادر الملك لويس التاسع دمياط مهزوماً وقاصداً الأراضى المقدسة حيث أقام أربع سنوات، وهى تبدو مدة طويلة لا مبرر لها. ولكن الدوافع الحقيقية تكشف لنا سر هذه الإطالة ، ونعنى بذلك الصراع الخفى حيناً والظاهر أحياناً ، الناشب بين رجال الدولة المملوكية والأيوبية فى مصر والشام ، وكان الملك لويس يطمع أن تشتد الجفوة بين مصر ودمشق ، وأن تزيل إحداها الأخرى فيخلو له الجو حينذاك لتحقيق أهدافه وضرب القوة الإسلامية الباقية ، ومما يدل على ذلك أنه (أى الملك) لم يجب برأى قاطع حين عرض عليه الناصر يوسف كبير أحفاد صلاح الدين الأيوبى وسلطان حلب الاتفاق معه ليكونا يداً واحدة ضد المماليك البحرية الذين تولوا السلطة فى مصر ، على أن يسلمه الناصر بيت المقدس (١) .

كانت حلب تحت حكم الناصر يوسف من الفرع الأيوبى ، وقد ثار لإزالة بيته من مصر نتيجة مقتل توران شاه (٢٨ فبراير ١٢٥٠) ، ولم يعد يعترف بالوضع الجديد الذى حدث ، بل إنه رأى نفسه أولى من غيره بتولى الحكم . ولذلك كانت مهمة لويس فى هذه الفترة هى ترقب الأمور لينضم إلى أحد الفريقين عساه يعوض ما خسره فى حملته ! ولم يفت الناصر أن يكتب إلى الملك لويس يسأله أن يقف إلى جانبه فى صراعه ضد المماليك البحرية إنتقاماً منهم لقتلهم توران شاه ودارت المفاوضات بينهما، ولكن اضطر لويس إلى وقوف محايداً خوفاً على الفرنسيين الذين لا يزالون فى أسر مصر من أن يفتك بهم المماليك ، إذا علموا بهذا الاتفاق بينه وبين صاحب حلب ، وكان رده أنه لا يستطيع الوقوف إلى جانبه .

---

(١) Joimville, Memoirs of the Crusades, p. 245 – 249

وانظر أيضاً حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى: حملة القديس لويس على مصر والشام ، ص ١٢٠ .

كانت دمشق فى ذلك الحين تحت سلطان أسرة كردية من المماليك الأيوبيين تعرف بالقيمرية، فما اتصل بهم أن الحكم فى مصر انتقل إلى شجر الدر التى مالبثت أن تنازلت عنه لزوجها الجديد حتى أخذتهم سورة الغضب [1] وفكروا فى وجوب إرجاع الأمور إلى نصابها ، وأبوا أن يخرج الملك من الأسرة الأيوبية ، وبدأت تظهر حركة التمرد على إقامة شجر الدر فى الحكم ، حين وصل رسول من قبلها إلى دمشق لاستخلاف من بهامن الأمراء ؛ فلم يجبه أحد ما من الأمراء القيمرية ، ولا الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة ، وكان توران شاه قد أمره بها وهو فى طريقه إلى مصر بعد موت والده .

تلفت الأمراء القيمرية فى دمشق حولهم عساهم يجدون قوة يستعينون بها على تأديب المماليك البحرية الذين فتكوا بتوران شاه ، والذين أقروا أن يساق العرش إلى امرأة . وترتب على هذا الوضع أن امتنع الأمراء القيمرية عن الحلف لشجر الدر وكتبوا بذلك إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد صاحب حلب ، يحثونه على المسير إليهم ليسلموه دمشق . وطبيعى أن يرحب الناصر يوسف بهذه الدعوة ؛ فبادر بالزحف على دمشق ودخلها يوم ٩ يوليو ١٢٥٠ دون قتال بفضل خيانة أحد الأمراء القيمرية .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى مصر ، كثرت الاضطرابات ، فجدد الأمراء والمماليك الإيمان لشجر الدر التى بادرت إلى الزواج من الأمير عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى بعد أن خلعت نفسها من الحكم ، بعد أن تولته ثمانين يوماً . ولكى يعمل المماليك على إرضاء الناصر يوسف فى حلب ليكون الحكم فى بيت الأيوبيين ، رأوا أنه لا بد من إقامة شخص من بيت الملك مع المعز أيبك ، ليجتمع الجميع على طاعته ويطيعه الملوك من أهله ، فوقع اختيارهم على صبى صغير ، إسمه الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر حوالى ست سنين ، شريكا للملك المعز أيبك . فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف موسى والمعز . ولم يرض سلطان حلب بهذا الحل ، فاستولى على دمشق بفضل الأمراء

---

(١) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٢١

القيمرية أيضاً ، واجتمع حوله جميع البيت الأيوبى وقرروا الخروج إلى مصر لمحاربة المماليك البحرية . وقصد عساكر الناصر غزة ، فخرج الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار مقدم المماليك البحرية بألفى فارس ، وسار إلى غزة وقاتل أصحاب الناصر وهزمهم .[1]

عند ذلك ، أخذ الملك الناصر صاحب الشام حينئذ لأخذ مصر ، فخرج من دمشق بعساكره ، يوم الأحد النصف من شهر رمضان ، ومعه الملك الصالح إسماعيل بن العادل والملك الأشرف موسى بن المنصور وغيرهم من الأمراء . فلما وردت أنباء هذا الاستعداد إلى القاهرة ، برز الأمير فارس الدين أقطاى مقدم البحرية بين عساكره الترك وسار بهم إلى الصالحية[2] .

وبعد أيام نزل الملك المعز أيبك من قلعة الجبل فيمن بقى عنده من العساكر وسار إلى الصالحية ، وكان قد اجتمع بها عساكر الأمير أقطاى ، وترك بالقلعة الملك الأشرف موسى .

معركة العباسة :

وصل الملك بعساكره إلى كراع وهى قريبة من العباسة . فتقارب ما بين العسكرين ، وكان فى ظن كل أحد أن النصرة إنما تكون للملك الناصر على المماليك البحرية لكثرة عساكره وليل أكثر عسكر مصر إليه . فعند ما نزل الناصر بمنزلة الكراع كان المعز أيبك بعساكر مصر من الصالحية ونزل اتجاهه بسماط فركب الملك الناصر فى العساكر ، ورتب ميمنة وميسرة وقلباً ، وركب الملك المعز ، ورتب أيضاً عساكره . وكانت الوقعة فى الساعة الرابعة ، فاتفق فيها أمر

---

(١) المقريزى : السلوك ، ص ٣٧٠ — ٣٧٣ ؛ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٩ — ٩ .

(٢) صالحية مصر أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٧ م على طريق القوافل بين مصر ودمشق لتكون منزلة لعساكر الاسلام إذا خرجوا من مصر للجهاد فى الأراضى المقدسة ، أو عادوا من الحرب الى مصر وبنى فيها جامعا وقصراً وسوقا ، وكانه ينزل بها ويقيم فيها كما كان يفعل من جاءوا بعده ، وقد تألق اسم الصالحية فى تاريخ مصر الإسلامى (أحمد رمزى من مقال له فى مجلة نادى السيارات)

عجيب (هذا ما سجله المقريزى فى السلوك ، صفحة ٣٧٤) قل ما اتفق مثله ، فإن الكسرة أولا كانت على عساكر مصر . . . ثم صارت على الشاميين : وذلك أن ميمنة عسكر الشام حملت هى والميسرة على من بإزائها حملة شديدة ، فانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين ، وزحف الشاميون وراءهم ، وما لهم علم بما وقع خلفهم ، وانكسرت ميمنة أهل الشام ، وثبت كل من القلبين واقتتلوا ومر المنهزمون من عسكر مصر إلى الصعيد وقد نهبت أثقالهم ، وعند ما مروا على القاهرة خطب بها للملك الناصر ، هذا والناصر على منزلة كراع ليس عنده خبر ، وإنما هو واقف بسناجقه وأصحابه وخزائنه وأما ميمنة أهل الشام ، فإنها لما كسرت قتل منهم عسكر مصر خلقاً كثيراً فى الرمل ، وأسروا أكثر مما قتلوا . وتعين الظفر للناصر وهو ثابت فى القلب ، وتجاهه المعز أيبك أيضاً فى القلب ، فخاف أمراء الناصر منه أن يفنيهم إذا تم له الأمر ، وخامروا عليه وفروا بأطلابهم

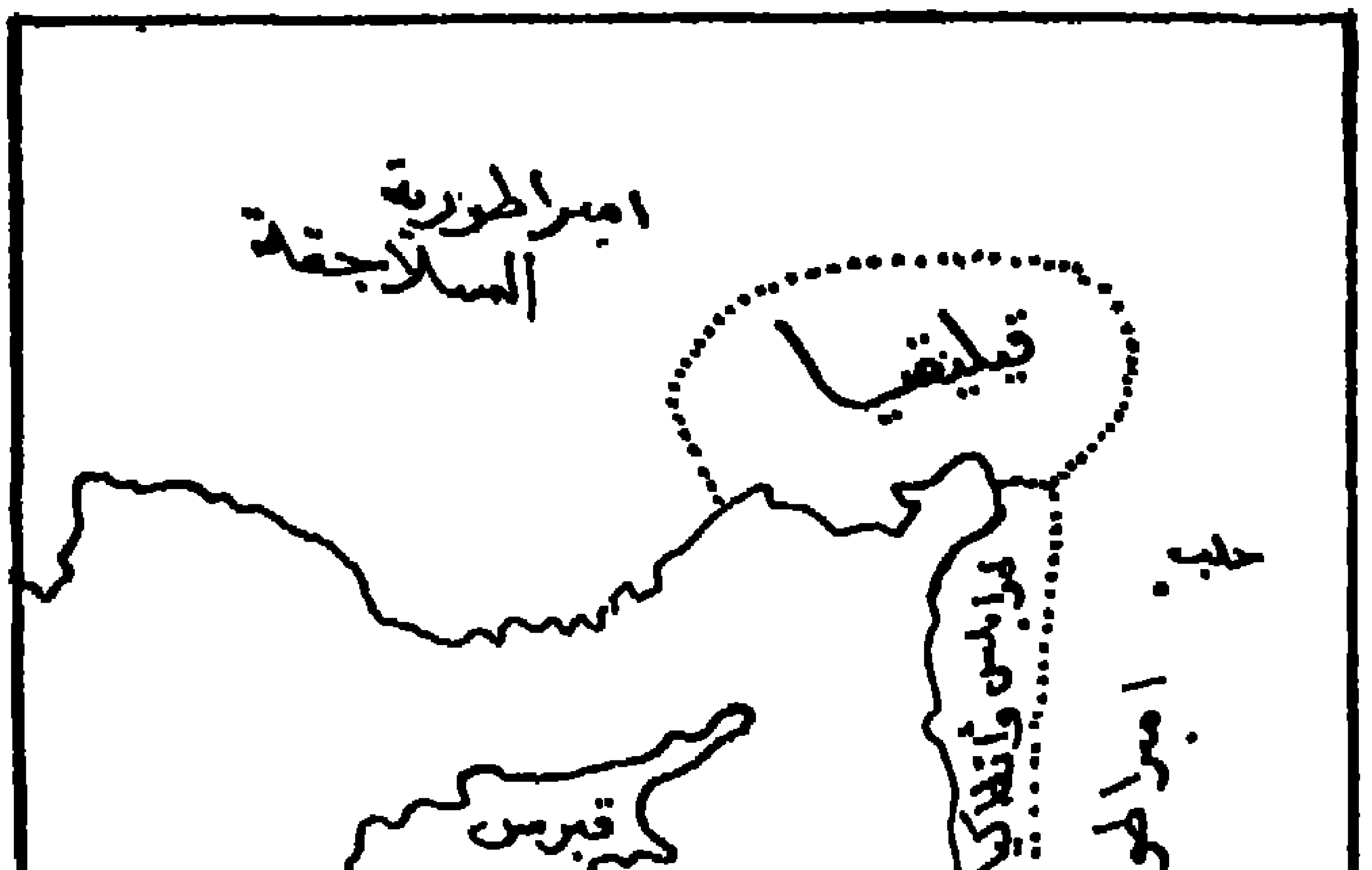

الصراع بين المماليك والأيوبيين ومعركة العباسة عام ١٢٥٠

إلى الملك المعز : ومنهم الأمير جمال الدين أيدغدى ، والأمير جمال الدين أقوش ، والأمير بدر الدين بكتوت . . . إلخ . فخارت قوى الناصر من ذهاب هؤلاء إلى المعز ، فحمل المعز بمن معه على سناجق الناصر ، ظنا منه أن الناصر تحتها ، وكان الناصر لما فارقه الأمراء ، قد خرج من تحت السناجق فى شرذمة قليلة ، فخاب ما أمّله المعز أيبك وعاد إلى مركزه وقد قوى الشاميون بذلك ، وتبعوه يقتلون منه وينهبون . . واستمر الصراع .

سُر الأمراء القيمرية بذلك ، وحملوا على المعز ليأخذوه ، فوجدوا أصحابهم قد تفرقوا فى طلب الكسب والنهب . فحمل المعز عليهم وثبتوا له ثم انحاز إلى جانب يريد الفرار إلى جهة الشوبك (بالأردن) : ووقف الناصر فى جمع من أمرائه وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن ، فخرج عليهم المعز ، ومعه الفارس أقطاى فى نحو ثلاثمائة من البحرية ، وقرب منه . فخامر عدة ممن كان مع الناصر ، ومالوا مع المعز والبحرية ، فولى الناصر فارا يريد الشام فى خاصته وغلمانه ، واستولى البحرية على سناجقه وكسروا صناديقه ونهبوا أمواله !

هكذا بدّد الملك المعز شمل خصومه من الأيوبيين وأسر المعظم توران شاه بن صلاح الدين وأخاه والملك الصالح عماد الدين اسماعيل والملك الأشرف صاحب حمص وغيرهم من الأمراء القيمريين . . .

أما ميسرة عسكر المصريين وكان عليها الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى ، فلما وقعت الكسرة عليها تفرق عنه أصحابه وكاد يؤخذ لولا أنه وقف معه من ساعده على ركوب جواده ، فلحق بالمعز أيبك . . .

تمزق أهل الشام ، ومشوا فى « الرمل » أياما . وسار الملك الناصر ومعه بعض صحابه إلى دمشق . وأما عسكر الشام الذى كسر ميسرة المصريين فإنه وصل إلى العبّاسة ونزل بها وضرب المخيم الناصرى هناك ومعهم بعض الأمراء وكانوا لا يشكون أن أمر المصريين قد زال ، وأن الملك الناصر مقدم عليهم ليسيروا فى خدمته إلى القاهرة ، فبينما هم كذلك إذ وصل إليهم الخبر بهروب الملك الناصر وقتل معظم أمرائه وأسر ملوكه . . . فهمّ طائفة منهم أن يسيروا

إلى القاهرة ويستولوا عليها ، ومنهم من رأى الرجوع إلى الشام ، ثم اتفقوا على الرجوع .

وصلت القاهرة أنباء النصر ثم دخل المعز المدينة ومن خلفه الأسرى الأيوبيون ، وأقيمت معالم الأفراح وأخذت القاهرة وقلعة الجبل وقلعة الروضة زخرفها عدة أيام . وبعد أيام أخذت فى تنفيذ حكم الشنق بالأسرى الأمراء . . وبعد أيام أخرى أخرج الملك المعز كل من دخل القاهرة من عسكر الملك الناصر إلى دمشق على حمير ، هم وأتباعهم ، ولم يمكن أحداً منهم أن يركب فرساً ، إلا نحو الستة أنفس فقط ، وكانوا حوالى الثلاثة آلاف رجل . .

وفى ١٧ ذى الحجة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ ، سار الأمير فارس الدين أقطاى من القاهرة فى ثلاثة آلاف مقاتل إلى غزة واستولى عليها .

زحف الأمير أقطاى

استولى أقطاى على الساحل ونابلس إلى نهر الأردن ورجع إلى القاهرة ، ثم سيّر الملك الناصر عسكرا من دمشق إلى غزة ليكون بها ، فأقاموا على تل العجول . فخرج المعز أيبك ومعه الأشرف موسى والفارس أقطاى وسائر المماليك البحرية ونزل بالصالحية ، فأقام العسكر المصرى بأرض السانح قريبا من العباسة، والعسكر الشامى قريباً من سنتين ، وترددت بينهما الرسل. وبعد مدة أزال المعز أيبك إسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وانفرد باسم السلطنة وسجن الأشرف واستولى على الخزائن ثم رتب المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر ، وأمّر عدة من مماليكه ، فقويت شوكة البحرية وزاد شرهم ، وصار كبيرهم الأمير فارس الدين أقطاى ملجأ لهم .

وفى خلال عام ١٢٥٢ كان يخيم الملك المعز وعساكره بالسانح ، وعساكر الشام فى غزة ، والملك الناصر بدمشق . وفى خلال ١٢٥٣ م تقرر الصلح بين المعز أيبك والملك الناصر صاحب دمشق واتفقا على أن يكون للمصريين حتى الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك ، وأن يدخل فيما للمصريين غزة والقدس ونابلس

والساحل كله ، وأن يطلق المعز جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر ، وحلف كل منهما على ذلك وكتبت العهود . وعاد الملك المعز إلى قلعة الجبل . .

وفى أعقاب ذلك، كانت المماليك البحرية يقوى شأنها بهمة فارس الدين أقطاى فكثر تعنتهم وتوثبهم على الملك المعز ، وهموا بقتله . . ومنذ ذلك الحين أخذ أقطاى يتطاول على الملك ، فثقل عليه ذلك ولاسيما بعد ما استولى الأمير على الأمور كلها . وفى عام ١٢٥٤ استفحل أمر قطاى وانحازت إليه البحرية. واضطر المعز إلى الاتفاق مع طائفة من مماليكه على قتله ، فبعث إليه ليحضر إليه بقلعة الجبل ليأخذ رأيه فى طائفة من الأمور . فعندما دخل من باب القلعة وصار إلى قاعة العواميد ، أغلق باب القلعة ومنع مماليكه من العبور معه ، فخرج عليه جماعة قد أعدوا لقتله، وهم قطز وبهادر وسنجر الغتمى، فهبروه بالسيوف حتى مات . فوقع الصريخ فى القلعة والقاهرة بقتله ، فركب فى الحال نحو السبعمائة فارس من أصحابه ووقفوا تحت أسوار القلعة ، وفى ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه ، وأنهم يأخذونه من المعز . وكان أعيانهم بيبرس البندقدارى ، وقلاوون الألفى ، وسنقر الأشقر . . . إلخ ، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاى قد رمى بها المعز إليهم ، فسقط فى أيديهم وتفرقوا بأجمعهم وخرجوا فى الليل من القاهرة ، وحرقوا باب القراطين فعرف بعد ذلك بالباب المحروق ، وتفرقوا فى أنحاء مصر والشام ثم جاء دور المعز . . .

***

ذكرنا أن شجر الدر كانت مستولية على أيبك فى جميع أحواله ، فلم يلبث أن سئم المعز أيبك الحياة وخاف على نفسه من غائلتها ، وكان أن خطب المعز أيبك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها، فغضبت شجر الدر، فدبرت مؤامرة قتله . . . فلم يكن أيبك يدخل الحمام فى الليل حتى انقض عليه خمسة رجال أشداء أعدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ م . ولم تنج شجر الدر من سوء المصير ، فقتلها مماليك أيبك وألقوا بجثتها من سور القلعة إلى الخندق . . . إلى أن حملت فى قفة ودفنت بعد عدة أيام !

وبمقتل أيبك، تولى الحكم السلطان المنصور على بن أيبك (١٢٤٧ — ١٢٥٠) حتى تم الأمر لقطز ، فقبض على المنصور على وأخيه وأمهما ، واعتقلهم جميعاً في برج القلعة ، وتولى هو السلطنة بلقب المظفر في أبريل سنة ١٢٥٩ . وكان ذلك بعد ما اجتاح التتار بقيادة هولاكو بغداد (١٢٥٨) ، وزحفوا بجحافلهم المخربة إلى الشام، فاستولوا على كبرى مدنها بعد ما أحرقوها ونهبوها ، ثم أخذوا في تهديد مصر . . .

ولكن كانت مصر لهم دواما بالمرصاد ! وسنقرأ ما فعله مماليك مصر مع التتار في كتاب تال إن شاء الله .

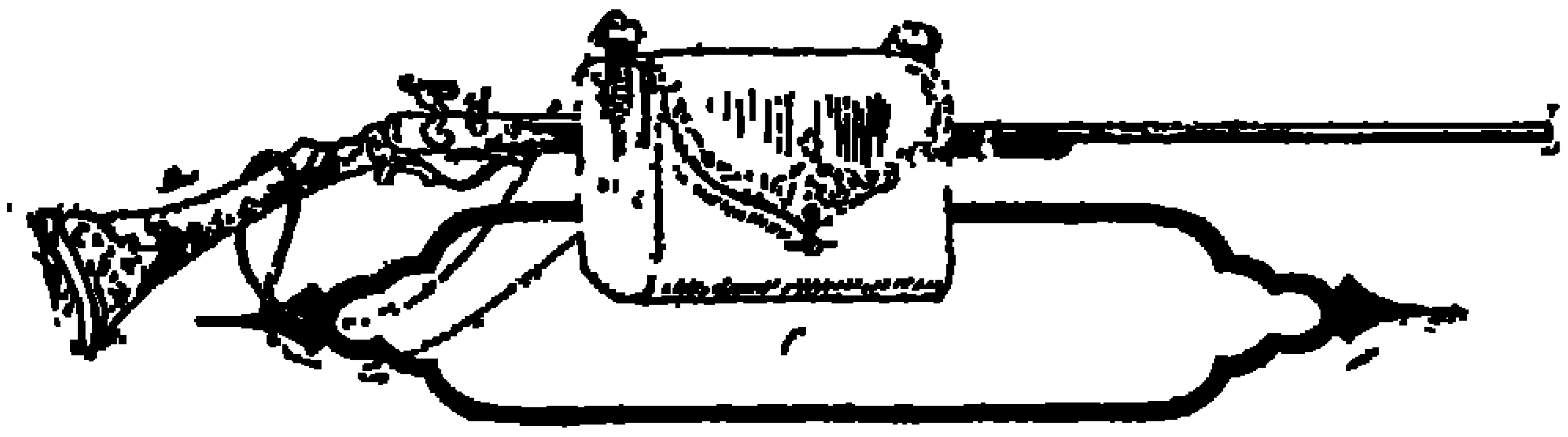

مراجع

— ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل . نشره وحققه د . عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣

— ابن مماتى : قوانين الدواوين ، القاهرة

— ابن واصل ، جمال الدين محمد : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشره وحققه د . جمال الدين محمد الشيال ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٧

— أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٩٤٧

— أبو المحاسن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، طبع منه حتى الآن ١٢ جزءاً ، دار الكتب ، القاهرة (١٩٣٠ — ١٩٥٦)

— أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار . حققه وعلق عليه د . فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٣٠

— بتلر وترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد : فتح العرب لمصر . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٣ Butler,A:The Couquest of Egypt

— د . جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط . مؤسسة المطبوعات الحديثة . القاهرة ١٩٥٩

— د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٥٨

— د . حسن حبشى : الشرق الأوسط بين شقى الرحى ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٣٨

———— : الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٧

———— : نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨

———— : مذكرات جوانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة وتعليق ، دارالمعارف بمصر ، ١٩٦٨

— د . حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٨

— د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، جزءان ، مكتبة الأنجلو ١٩٦٣

— د . السيد الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢

.... : مصر فى عصر الأيوبيين ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٥٩

— د . سيدة إسماعيل كاشف : الجيش والبحرية فى مصر من الفتح العربى إلى بداية العصر الطولونى ، رسائل الثقافة الحربية رقم ٤٨

———————— : مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧

———————— : مصر فى عصر الأخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠

— شمس الدين بن ظهير : كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب . حققه د . محمد الحبيب الهيلة .

— د . عبد الرحمن زكى : السلاح فى الإسلام . مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١

———————— : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٩

———————— : معارك حاسمة دمياط والمنصورة، مطبعة النيل، القاهرة

———————— : السيف فى العالم الإسلامى ، دار الكتاب العربى، القاهرة ١٩٥٧

———————— : معركة المنصورة ، وأثرها فى الحروب الصليبية ، إدارة الشؤون العامة ، القاهرة ١٩٦٠

— د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة (١٩٥٣ — ١٩٥٥)
— د . عطية مشرفة : نظم الحكم فى مصر فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٤
— د . على بيومى : قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، دار الفكر الحديث للنشر ١٩٥٢
— القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٣
— د . محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية . دار الفكر العربى القاهرة ١٩٦٧
— د . محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبى وعصره . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٢٧
— د . محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية (بالإنكليزية) ، ترجمها السيد محمد سعيد السيد منصور . رسائل الثقافة الحربية رقم ٣٩
— ———— : حملة لويس على مصر وهزيمته فى المنصورة . المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، ١٩٦١
— المقريزى ، تقى الدين أحمد : السلوك لمعرفة دول الملوك : نشر د . محمد مصطفى زيادة طبع منه حتى الآن ستة أقسام ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٣٤
———— : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار القاهرة
— ناصر خسرو : « سفر نامه » . نقله من الفارسية إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب . كلية آداب جامعة القاهرة ، ١٩٤٥
— د . نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤
———— : جيش مصر فى أيام صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٦
— النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب
— دائرة المعارف الإسلامية : (الطبعة الأولى)

BIBLIOGRAPHY

Atiya, Aziz, S.: The Crusade: Historiography and Bibliography. Indiana, U. P. 1962.

– – – – Crusade, Commerce and Culture of Egypt., Indiana, U. Press, 1962.

Creswell, K. A. C.: The Muslim Architecture of Egypt. 2 vols. Oxford, Clarendon Press, 1959.

Davies, E. J.: The Invasion of Egypt by Louis I of France. Sampson Low, London, 1897.

Gibb, H. A. R.: The Armies of Saladin. Cahiers d'histoire égyptienne, série III, fasc. 4 (May 1951), 304-20.

Joinville, J. Sire de: History of Saint Louis. Trans. Evans, Oxford, 1938.

Oman, Sir Charles: A History of the Art of War in Middle Ages, 2 vol. Metheun, London, 1924.

Runciman, S.: A History of the Crusades. 3 vols., Cambridge U.P. 1926

Smail, R. C.: Crusading Warfare., 1097-1193. Cambridge U. P. 1956, 1967.

Johns, C. N. Palestine of the Crusades. A map of the country scale: 350,000 with historical introduction and gazetteer. Jerusalem, 1938.

المحتوى

صفحة

المقدمة

الفصل الأول : الجيش فى عصر الولاة العرب ... ... ١ —٩

مصر العربية . الجيش العربى فى عصر الولاة .

الفصل الثانى : الجيش فى عصر الطولونيين (٧٦٨—٩٠٥م) ... ١٠ —١٥

الجيش الطولونى .

الفصل الثالث : الجيش فى عصر الإخشيديين (٩٣٥—٩٦٩م) ١٦ —٢٢

الجيش الإخشيدى .

الفصل الرابع : الجيش فى عصر الفاطميين (٩٦٩—١١٧١ م) ٢٣ —٧٨

الجيش الفاطمى فى مصر—عناصر القوات الفاطمية—الجيش كما وصفه ناصر خسرو—قادة الفواطم فى مصر — السلاح فى العصر الفاطمى —السياسة الدفاعية فى عصر الفاطميين— أسوار القاهرة وأبوابها — الأصول المعمارية فى الأسوار الفاطمية —معارك الجيش الفاطمى—القرامطة— الفاطميون والبيزنطيون-الصليبيون فى بيت المقدس معركة عسقلان (١٠٩٩) الصليبيون فى مصر — معركة بلبيس (١١٦٤) — معركة البابين (١١٦٧) — حملة نور الدين الثالثة بقيادة شيركوه (١١٦٨) — حملة أمورى وبيزنطية ضد مصر (١١٦٩) .

الفصل الخامس : الجيش فى عصر الأيوبيين (١١٧١—١٢٥٠م) ٨٩ —١٥٢

عصر صلاح الدين — الجيش الأيوبى — السلاح فى العصر الأيوبى : الأسلحة الهجومية ، الأسلحة الدفاعية ، النار اليونانية والبارود والنفط، الأسلحة النارية — السياسة الدفاعية

صفحة

فى العصر الأيوبى : قلعة صلاح الدين ، دعم أسوار القاهرة قلعة صلاح الدين بسيناء ، قلعة جزيرة الروضة ، قلاع أيوبية خارج مصر ـ قلعة بصرى، قلعة دمشق، قلعة جبل طابور — معارك الجيش الأيوبى أيام صلاح الدين يوسف — البحر الأحمر فى سياسة صلاح الدين — معركة حطين الكبرى تحرير بيت المقدس — معارك حصار عكا — معركة أرسوف

الفصل السادس: الجيش بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى (١١٩٣ـ١٢٥٠): ١٥٣ـ١٤٠

معركة دمياط — معركة غزة الأولى وغزة الثانية — حملة لويس التاسع ومعركة المنصورة — اقتحام المنصورة ومعركتها — معركة جديلة — عمليات الأسطول النهرية — الملك الأسير — تحليل معركة المنصورة — الأسباب التكتيكية والاستراتيجية — خاتمة المعارك بين الأيوبيين والمماليك — معركة العباسة — زحف الأمير أقطاى — نهاية الأيوبيين .

مراجع الكتاب : ٢٤١ — ٢٤٤

المحتوى ٢٤٥ — ٢٤٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥٣٤٨

مطبعة
الكيلاني

THE EGYPTIAN ARMY

in

THE MOSLEM PERIOD

« [640 – 1250 A. D.] »

DR. ABD el RAHMAN ZAKY

CAIRO
U. A. R.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

THE EGYPTIAN ARMY

in

THE MOSLEM PERIOD

« [640 – 1250 A. D.] »

DR. ABD el RAHMAN ZAKY

CAIRO
U. A. R.

Bibliotheca Alexandrina
0296844